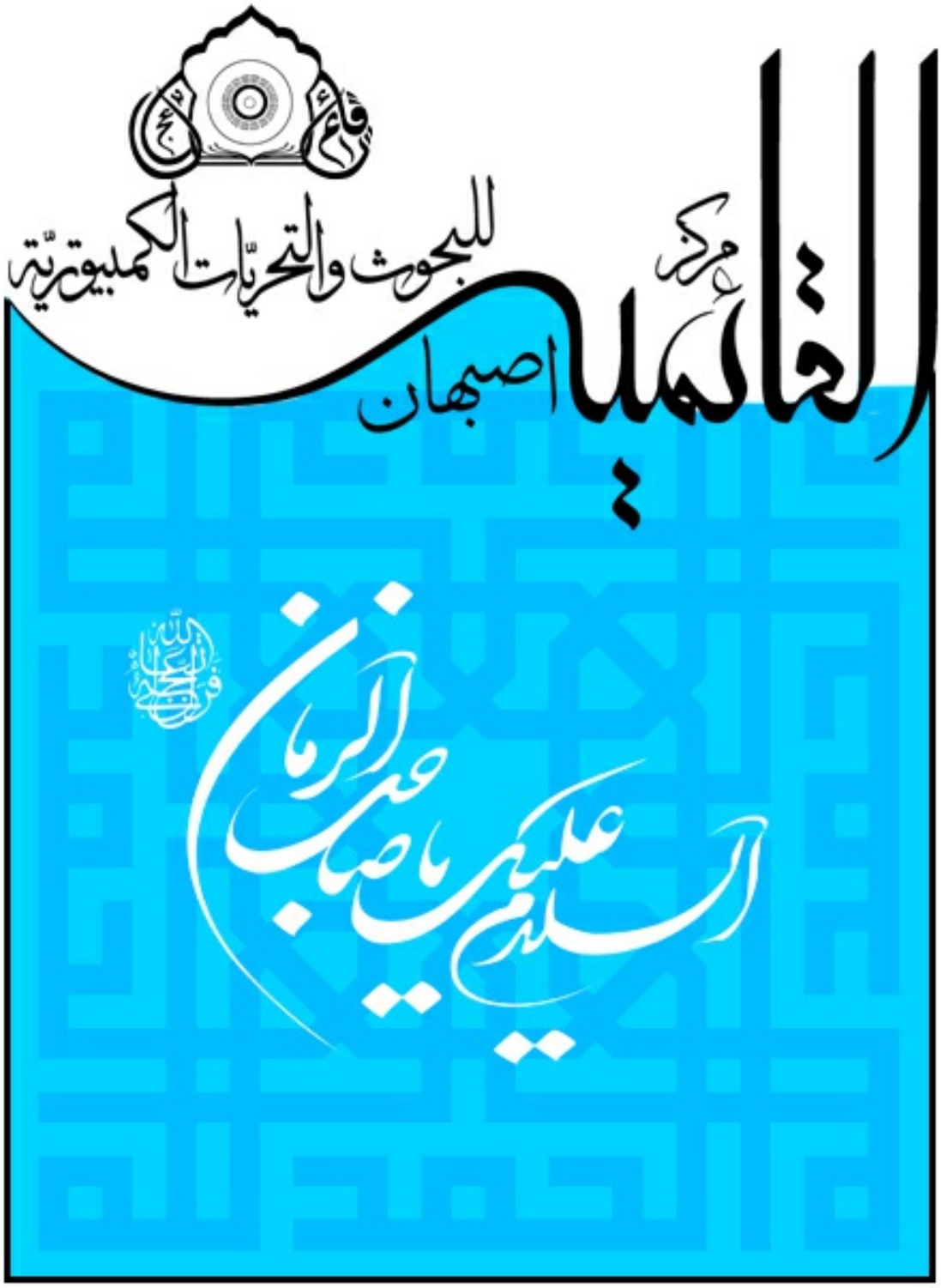

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

صديق أبو بكر دعيبل

سبع للجيل

السيد محمد نجل الإمام الهادي عليه السلام

مؤسسة الإسلام

بسم الله الرحمن الرحیم

سبع الدجيل السيد محمد بن الإمام علي الهادي عليه السلام عم الإمام المهدى عليه السلام

كاتب:

السيد حسين العوامي

نشرت في الطباعة:

مركز الدراسات التخصصية في الامام المهدي (عليه السلام)

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس 5

سبع الدجيل السيد محمد بن الإمام علي الهادي عليه السلام عم الإمام المهدى عليه السلام 10

هوية الكتاب 10

اشارة 10

مقدمة المركز: 12

مقدمة المؤلف: 14

مدخل 18

اشارة 18

ميزان العظمة وأهمية الذات: 23

الكتابة عن العظماء: 23

المقام الاجتماعي والشأن الرباني: 26

قرب الباري ونعوت الأولياء: 28

الفصل الأوّل: الهوية الشخصية 34

اشارة 34

المحور الأوّل: قرون الصراع بين قريش والإسلام 36

اشارة 36

مقامات تاريخية وأخرى أسطورية: 36

نظرة على الحياة العامة آنذاك: 39

المحور الثاني: الأصل والمنبت 46

أهل البيت عليهم السلام: 46

آباؤه: 46

أُمّه: 47

أعمامه وعمّاته: 48

إخوته: 49
عقبه : 50
المحور الثالث: سبع الدجيل في التاريخ والوجدان 58
اسمه وكنيته: 58
تحليل الكنى: 59
اشارة 59
1 _ سبع الدجيل: 60
2 _ البعّاج: 61
3 _ أبو جاسم: 61
4 _ أبو البرهان: 61
5 _ أبو الشارة: 63
6 _ أخو العبّاس: 63
حياته ومماته في سطور: 64
مماته: 65
قرائن تستبعد الموت الطبيعي: 66
المحور الرابع: السيد في وجدان الأمّة وعند قادته 69
اشارة 69
بانوراما سبع الدجيل: 69
من شهادات الأعلام والكتّاب في حقّ سبع الدجيل: 71
واقع مقام السيد وشأنه: 72
المحور الخامس: كرامات سبع الدجيل 75
اشارة 75
الأولى: تبرئة امرأة من التهمة: 76
اشارة 76
أنَّه الشرف: 77

الثانية: شفاء امرأة مفلوجة خرساء: 79
اشارة 79
شرف الخدمة: 80
مكنون الحدث: 82
الثالثة: داء الاستسقاء : 84
اشارة 84
هلع الماء: 84
الرابعة: كرامة والبنت من كربلاء: 85
اشارة 85
فعل الحكيم ونخوة الكريم: 86
الخامسة: قضاء حاجة مهمّة: 87
اشارة 87
تجديد معنى الحياة: 87
السادسة: شفاء امرأة من سنقر: 88
اشارة 88
يحفظ المرء في ولده: 90
الفصل الثاني: كلمات في الكرامة وخوارق العادات 93
اشارة 93
نظرة مجرّدة: 95
الكرامة معنى ووجداناً: 97
الكرامة في القرآن : 101
الكرامة الإلهية: 107
وصفوة القول: 113
ميسم الكرامة: 115
وصف لحال من يؤمن بالكرامة ومن لا يؤمن بها: 115

كرامة الأحياء والأموات: 119
الكرامة ولوثة الشيطان: 120
الفرق بين مكتسبات الإنسان والكرامة: 122
الكرامة بين صبغتي الصدق والكذب: 123
فذلكة القول: 126
كرامة العقيدة والمعتقد : 127
أثر الكرامة في حياة المؤمن: 130
الكرامة ظلال الرحمة: 132
الكرامة وسحر بني إسرائيل القديم منه والجديد: 133
وصفوة القول: 137
الملازمة بين الكرامة والقرب من الباري: 138
حكم الاعتقاد بالكرامة : 139
الجواب: 140
الفصل الثالث: معالجة مفهوم الإمامة وإشكالية البداء في السيد محمّد 143
اشارة 143
تمهيد في البداء، معناه و دلالته : 145
البداء: 145
ولبُّ القول: 147
لمحة موجزة عن الإمامة: 148
الإمامة والبداء: 152
تنبيه: 153
لفت نظر: 154
ناتج الأمرين علو مقام سبع الدجيل: 161
الفصل الرابع: شعراء سبع الدجيل 163
اشارة 163

مدخل: 165
قراءة في شعر الأعلام: 169
صفاته الفاضلة: 176
مختلف الأملاك: 177
الخوارق والكرامات: 178
اليد البيضاء: 178
الكلمات المحكمة: 179
الخاتمة: ملاحق 226
اشارة 226
الملحق الأوّل: زيارة السيد 228
اشارة 228
كيفية الزيارة: 228
زيارة أخرى لأولاد الأئمّة عليهم السلام: 229
الملحق الثاني: كتبٌ تحدّثت عن السيد 230
الملحق الثالث 232
اشارة 232
قال ابن تيمية: 232
مصادر التحقيق 236
تعريف مركز 238

سبع الدجيل السيد محمد بن الإمام علي الهادي عليه السلام عم الإمام المهدى عليه السلام

هوية الكتاب

سبع الدجيل السيد محمّد بن الإمام علي الهادي عليه السلام عَمُّ الإمام المهدى عليه السلام

تأليف: السيد حسين العوامي

تقديم ومراجعة

مَركَز الدَّراسَاتِ التَّخَصُّصِيَّة فِي الإِمَامِ المَهدِيّ عَجَّلَ الله تعالَي فَرَجَهُ الشَّريف

رقم الإصدار: 98

ص: 1

اشارة

تقديم: مَركَز الدَّراسَاتِ التَّخَصُّصِيَّة فِي الإِمَامِ المَهدِيّ عَجَّلَ الله تعالَي فَرَجَهُ الشَّريف

النجف الأشرف – شارع السور – قرب جبل الحويش

هاتف: 332811 و 332813 ، النقال: 07804754535

ص.ب588

www.m.mahdi.com

info@m-mahdi.com

سبع الدجيل السيد محمّد بن الإمام علي الهادي عليه السلام عَمُّ الإمام المهدى عليه السلام

مَركَز الدَّراسَاتِ التَّخَصُّصِيَّة فِي الإِمَامِ المَهدِيّ عَجَّلَ الله تعالَي فَرَجَهُ الشَّريف

الطبعة الأُولى: – 1429 ه

عدد النسخ: 3000

رقم الإصدار: 98

النجف الأشرف

جميع الحقوق محفوظة للمركز

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المركز:

لعلَّ من توضيح الواضحات القول بضرورة الحديث عن الرموز والتعرّف عليها وسبر غورها واستخراج كنوز المعرفة واستجلاء جوانب العظمة فيها. لأنَّ ذلك مدعاة للتأسي بها والسير على خطاها واتّباع نهجها وكفى في ذلك فائدة جمّة للفرد والمجتمع لأنَّ الشخصية حينما تكون رمزاً بأكثر من بعد وأبعد من اتجاه تكون عطاء دائماً تؤتي أكلها كلّ حين.

وليس اعتباطاً تذكير القرآن بمواقف السلف والأمم السابقة فهو ليس قصّاصاً يريد إثارة مكامن الشوق لدى المجتمع وخلق حالة من الارتباط بنافذة الخيال الرحبة لدى المتلقي كما هو ديدن القصّاصين، بل هناك هدف عميق من تنوّع القصص في القرآن وذلك لأجل الترابط الوثيق والعلقة المتينة بين الماضي والحاضر والتخطيط برؤية فاحصة وشاملة للمستقبل فرُبَّ رمز غيَّر أمّة بكاملها وأحدث معجزة اجتماعية وبقيت بصماته منطبعة وآثاره متجّذرة في كلّ حركاتها وسكناتها كما نجده واضحاً جليّاً في الحسين عليه السلام.

إذن الحديث عن الشخصيات والرموز ليس حديثاً تاريخياً بحتاً وليس كلاماً ترفياً فقط وإنَّما هو من صميم حركة الأمم نحو إصلاح ذاتها وتهذيب مجتمعاتها. وترتيب أوّلياتها في خضم المتغيّرات والتقلبات الفكرية.

هكذا استطاع المؤلف أخونا العزيز سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيد حسين العوامي تسليط بعض الضوء على حياة علم من أعلام أهل البيت عليهم السلام ورمز من رموزهم وكلّهم أعلام شاخصة ورموز عظيمة ألا وهو السيد محمّد ابن الإمام علي الهادي عليه السلام، وعمّ الإمام المهدي عليه السلام.

فجزاه الله خيراً وجعله في ميزان حسناته.

سائلين له ولنا المزيد من التوفيق وقبول الأعمال برعاية المولى صاحب العصر والزمان.

مدير المركز

السيد محمّد القبانچي

ص: 4

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمّد وآله الطيبين الطاهرين واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين.

* * *

خوارق العادات شيء يعجب كثيراً من الناس، ويسعون إلى امتلاك القدرة عليه بشتّى الوسائل ومهما كانت مشقّتها وكلفتها، ويعدّونه شكلاً من أشكال الكمال، وسمة من سمات العظمة، ومنحى من مناحي السلطة المطلقة على الكون، إذ أنه يرفع العجز الناشئ من غلبة الطبيعة وأسبابها.

والعاقل البصير يرى خوارق العادات دالاً من دوال الغيب، ولا يبهره بديع قدرتها، فهو ينظر في لونها ليرى من أيّ الألوان هو؟ ويتأمَّل في مضمونها ليعرف هل الخرق الحادث آية من آيات الحق أو خدعة من خدع الشيطان ومكره أم هو طاقة النفس أو من مكامنها؟

ولهذه المعاني ومن أجل التمييز بينها جاء هذا الكتاب، فغرضه بيان الكرامة وبيان منشأها وما يميِّزها عن مشابهها، سواء كان ذلك المشابه من جانب الخير كاستجابة الدعاء والتوسل بالأولياء، أم كان من جانب الشر كالسحر والكهانة أو كان عصي الميل لأحد الجانبين فلا هو ناتج من ظلال الرحمة الإلهية، ولا هو سراب توهج من هجير الضلال، بل كان ناتج رياضات روحية تقف بين الطرفين وتتبع ضمير صاحبها.

ومن الضـروري ذكر مثال حي من أهلها يتجسَّد فيه لبُّ الفكرة وصورها كي تظهر معالمها جليَّة و واضحة للعيان، وشاءت الأقدار أن يكون مثالها اللامع السيد محمّد ابن الإمام علي الهادي عليه السلام المعروف ب-- (سبع الدجيل) لذا سأسرد شيئاً من سيرته الذاتية بحسب ما تمليه العادة في مثل هذه البحوث، فقد تتطلَّب بيان الجو العام المعاش، ثمّ ذكر خصائص بيته الشريف لتتضح معالم شخصه بما هو مألوف ومعروف في مدوَّنات التاريخ والتراجم.

لكن محاور هـذه الدراسـة لن تعتمـد تلك العادة أساساً في التعرَّف على معالم شخصـية هـذا السـيد لشـحَّة ذكره في المـدوَّنات التاريخية المعروفة، ولأن ما تعنى به كتب التاريخ ليس له مساس كبير بالغرض المنظور، بل مثل السـيد تجده ماثلاً في وجدان الناس، وتسـمع ذكراه نابضة بها قلوبهم، فلك أن تحسب قلوبهم ووجدانهم وثقافتهم تدويناً لتاريخ أهمله أربابه بقصد أو بغير قصد.

وعلى هذا سـيكون الكلام عن الظرف العام الذي عاش فيه، وسـيكون التطرّق لسـيرته ثانوياً ومقتضـباً بقدر دخالته في موضوع البحث، وهو على إجماله ستظهر فيه النتائج مع الإحالة على الحوادث التي استقيت منها النتائج من دون مسردات إلاَّ بما تمليه طبيعة الغرض أو موجب آخر.

وسـير البحث يعتمـد محاور عـدّة، الأوّل منها: همس عن عظمـة الـذات ووجاهـة الخلق وموجباتها بعنوانها المناسب لها، والثاني تعريف بالسيد واستنطاق خصائصه، والمحور الثالث ينصبُّ على الكرامة وما يمتُّ إليها بصلة، والرابع كراماته وشعراءه، وفي الختام تأتي ملاحق.

هذا هو النسج العام للكلمات الآتية وبالله التوفيق.

وقبل طي هذه الصفحة ألفت نظر القارئ إلى شيء سيلحظه من دون شكّ وهو أن الكلام في جميع العناوين يلتصق بالسيد وهو أمر مقصود لأنه المحور في الموضوع، ولأن الكتاب بركة من بركاته وشيء من عطاءه، فهو وفاء لنذرٍ نذرته في ظرفٍ عصيب ووضع مقيت، وببركة السيد محمّد بن الإمام علي الهادي عليه السلام تبددت العقبات وانحلّت العُقَد وتيسّرت الأمور بشكل لمست فيها ألطاف الكرامة الربانية.

السيد حسين العوامي

***

ص: 7

مدخل

اشارة

ميزان العظمة وأهمية الذات.

الكتابة عن العظماء.

المقام الاجتماعي والشأن الرباني.

قرب الباري ونعوت الأولياء.

ص: 9

يحفل تاريخ الأديان برجالٍ جسَّدوا التديُّن بأروع معانيه حتّى غدوا نبراساً يستضاء به، فمن سيرتهم تنبع معاني العبادة جليَّة من دون رين ومن دون شبهات السالكين أو تزييف الشياطين، وبرغم أن التاريخ حافل بمثل هؤلاء الرجال إلاَّ أن الطريق إلى الله قد قعد فيه الشيطان، وقد عاند وضادَّ الله في سلطانه إذ ((قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ))(1) وقد أعانه على ذلك أهل الأحقاد والحساد وعبيد الدنيا، فغدت غايات الدين وطرائقه مشوَّشة المعالم مشدوهة البال، يخفي جمالها قومٌ (رفعوا الله سيفاً وغنوا النبي والإسلام) فلم يبقَ للإسلام شعيرة لم تخبطها قريش وأذنابها، متخذة الدين والتديُّن غطاءً وشعاراً، حتّى قال أنس بن مالك في ذلك العهد: (لا أعرف شيئاً مما أدركت إلاَّ هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيِّعت)(2) وفي كلمة أخرى قال: (ما أعرف فيكم اليوم شيئاً كنت أعهده على عهد رسول الله غير قولكم: لا إله إلاَّ الله) ولم يعرف أبو الدرداء منهم من أمر محمّد إلاَّ أنهم يصلون

1- الأعراف: 16 و17.

2- محكي عن البخاري في صحيحه والمقدسي في الأحاديث المختارة وغيرهما بأسانيدهم عن الزهري أنه قال: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟ فقال ما ذكر في النصّ. راجع مثل البخاري 1: 133/ كتاب مواقيت الصلاة وفضلها/ باب تضييع الصلاة عن وقتها.

جميعاً على حدّ تعبيره(1)، وأما ميمون بن مهران عن أبيه فقد بلغ الحال في زمانه لدرجة يحكيها قوله: (لو أنَّ رجلاً نشر فيكم من السلف ما عرف فيكم غير هذه القبلة)(2) هذا هو الوضع المزري أبان فجر الرسالة فكيف ما بعده؟!

وقد بيَّن الإمام الباقر عليه السلام الحالة في حديث طويل له جاء فيه: ((... ثمّ لم نزل أهل البيت مذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله نذل ونقصى ونحرم... ووجد الكذّابون لكذبهم موضعاً يتقرّبون إلى أوليائهم وقضاتهم وعمَّالهم، في كل بلدة يحدّثون عدوَّنا وولاتهم الماضين بالأحاديث الكاذبة الباطلة، ويحدّثون ويروون عنّا ما لم نقل، تهجيناً منهم لنا، وكذباً علينا، وتقرَّباً إلى ولاتهم وقضاتهم بالزور والكذب... ثمّ لم يزل البلاء الشديد يزداد... حتّى أن الرجل ليقال له زنديق أو مجوسي أحبُّ إليه من أن يشار إليه بأنه شيعة علي عليه السلام وربما رأيت الرجل يذكر بخير ولعلَّه يكون ورعاً صدوقاً يحدِّث بأحاديث عظيمة عجيبة... وكان أشدُّ الناس في ذلك القرَّاء المراءون المتصنِّعون الذين يظهرون الخشوع والورع... وصارت في يد المتنسِّكين والمتديّنين منهم الذين لا يستحلّون الافتعال لمثلها...))(3).

والقارئ المتأمّل في تاريخ المسلمين يرى أن المتنسِّكين والمتزهّدين كانت لهم يد طولى في ثني الناس عن جادَّة الصواب، وما كان التزهُّد والتنسُّك سوى بوابة لدعوى القرب من الباري تبارك وتعالى

1- محكي عن مسند أحمد 5: 195، و6: 443.

2- محكي عن الاعتصام للشاطبي 1: 34.

3- كتاب سليم بن قيس الهلالي 2: 630 - 635.

قرباً يصوِّر مدّعيه في ظلال الرحمة الإلهية، وهو ما يمكّن صاحبه من نسج هالات القدس على مذهبه وجماعته ليسرق أو يبهت أبرز علامات القرب من الباري تبارك وتعالى ظهوراً عند البشر، ألا وهي الكرامات الربانية التي تظهر على يد الأولياء، الأمر الذي شوَّش على وجدان الناس فاختلطت موازينهم، وألفت معارفهم ذاكرة الجهل ووهن النظر وأوهام الشيطان، فمن جهة يلمسون آثاراً طبيعية تحدث للسالك لله وإن لم يكن سلوكه على صراطٍ مستقيم، وهي آثار يمليها جوُّ الاستطراق أو طبيعة الطريق المستطرق أو هي آثار تتولّد من صلب العقيدة بغضّ النظر عن المعتقد، ومن جهة أخرى يدرك العقل أن للشيطان لمسات تُزيِّن لأوليائه ضلالهم، وفي الآية المباركة المتقدِّمة ما يشير إلى ذلك، ومن جهة ثالثة يتحدّث التاريخ عن سعي قريش(1) _ في جميع أطوار دولتها وعلى اختلاف مشارب حكّامها _ في الاستفادة من الظواهر الدينية من أجل ترسيخ نظرتها الخاصة في الدين وتحوير ما جاء به الوحي بنحو يخدم مصالحها ويحقِّق رؤاها الدينية، فشوَّهت مظاهر الدين فضلاً عن حقائقه، وأكثرت من التظاهر بالتديّن، وهذا المعنى ليس من الحقائق المتخفّية _ خجلاً _ وراء سطور المؤرّخين لتاريخ الخلفاء العرب، وبمجرَّد إطلالة سريعة على صولاتهم وجولاتهم تدرك أنهم جابرة ضحَّوا من أجل الملك بكل شيء حتّى بالإسلام.

1- ليس المراد من لفظ قريش ذلك المرتكز التاريخي المشير إلى المجموعات التي وقفت بوجه النبي صلى الله عليه وآله أبان الدعوة بل هي مفردة تسع للأعقاب منهم الذين كايدوا الدين الإسلامي بنفس النهج الأوّل وإن تناحروا فيما بينهم في سبيل الملك ولوحدة النهج عبرت بدولة قريش.

ميزان العظمة وأهمية الذات:

يـأنس الـذهن كثيراً بالأحـداث الكبرى التي تكوّن منعطفاً في حياته، ويجعلها معياراً يتمُّ على أساسه تحديـد عظمـة صانع تلك الأحـداث بغضّ النظر عن إيجابيـة وسـلبية تلك الأحـداث، وهذا المقياس تجده متداولاً في مناحي الدنيا، مقبولاً عند العقلاء، ومتضـمّناً لموازينهم، وداخلاً ضمن مدركهم وشأنهم الذي تبتني عليه رؤيتهم تلك.

وقـد ترى في اسـتعمالات الشارع المقـدّس نفس الميزان، ولكن تجـد في بياناته وصف بعض الأفراد بأنه عظيم كما في الخبر الوارد عن أبي عبـد الله عليه السـلام: ((... ومن تعلّم وعمـل وعلّم لله دعي في ملكوت السـماوات عظيماً...))(1) ومثلـه نعـت: ((من يحب في الله و يبغض في الله)) وهـذه النعوت تتّفق مع المناحي التي بُنيَ عليها الـدين، فالعظمة تكمن في أمور كبيرة وذات خطر عظيم في واقعها وإن لم يلتفت الناس إلى تلك الحقيقة.

ولست في صـدد تعـداد مكامن العظمـة أو كواشـفها في الـذات الإنسانية أو غيرها، ولكن لا أجد بدّاً من ذكر أهم كاشـفين عن عناية الباري بالإنسان ولا شكّ أنهما إذا التقيا كشـفا عن عظمـة تحفُّ بـذلك الفرد أو تحلُّ بالـذي صار محلاً لتجليهما بنحوٍ ما، وهما: البـداء والإمامة، وسيأتي الحديث عنهما حين الكلام حول مقام السيد وشأنه.

الكتابة عن العظماء:

كما تكون الأحداث الكبرى معياراً لعظمة أصحابها كذلك تكون مقياساً يجسُّ صعوبة الحديث عن العظماء ودراسة حياتهم وتمييزهم عن

1- بحار الأنوار 2: 27.

المـدّعين والمزيّفين هذه جهة، وجهة أخرى هي كثرة دواعي التدوين لسـير العظماء، ولعلَّ أهم ما يدعو إلى الكتابة عنهم أنهم منار يُهتدى بهم في غمار الحياة، ولكلٍ نظرة وتعلُّقٌ بالعظماء، فنظرة ترقى إلى مسـتوى التقـديس، ونظرة تهبط ما دون سـطح الاعتراف والاقتداء بغضاً أو حنقاً أو غير ذلك مع الاعتراف بعظمة تلك الشخصية المرغوب عنها.

وتتعطَّل لغة الكلام حينما يكون التدوين عن عظيم وهب مبدأه الحياة، ونسخ عنوان ذاته ليحلّ محله عنوان مبدئه، وإذا كان المبدأ سـماوياً، وكان العامل به والواهب روحه له محبّاً فإن العقل يبخع؛ إذ الوقت وقتٌ تتجلَّى فيه روح الوجود، كي تقود العالم نحو تكاملٍ وتناسقٍ ضـيعه الإنسان أو كاد؛ هنا ندرك نحن البشـر أن السكينة التي يهبها لنا أرباب العظمة لم تكن من كأس أوهامنا، ولم تكن من موائد دنيانا.. إنها نتاج الـدين والتـديُّن والضـمير الحي الواعي، إنها دواء النفس المتهالكـة والعقل الواهي، فقد يترك هذا العظيم التجوال في الأرض ويتعالى على المشـتهيات كي يشـرف على آمال الضـمائر الحرة، ويُنَمّي غرسـة العبودية للحق تبارك وتعالى؛ تلك الغرسة الكافلة لتحقيق الذات للذات، والماسحة ألوان الغبش عن فجر الحقيقة ومشرق النفس.

يشرف على الآمال، ويحقِّق الأمنيات، ويزداد عطاءً كلما زدنا استعداداً وقابلية، وكأن التحف والمواهب الرحمانية فيض جاء به، وهبةٌ زفَّها لنا نحن البشـر من شـفقةٍ ورحمـةٍ تتـدفَّق من بين جوانبه، فـذاته على عطائها وكرامته على نوالها صدقة جارية له فطرها فاطر الخلق، فنبعت فوق الحس أو قارنته، ومن دون دركٍ أو معه..

هكذا شأن العظماء الربانيين يفيضون علينا، ويبلغون بنا ما لم نكن نحلم به، بل ما لم يخطر بالبال، رعاية منهم لعيشنا نحن البشر، وصيانة لوجه الحياة وحفاظة على الأخلاق ولباب العقول.

وبين العظام من يسعى نحو مبدءٍ ظاناً أن فيه جماع الأمر المُنْشد في وجدانه، وهو على عظمته شارد البال، لاهٍ عن معاقد الأمور، وإنما تلمّس أشياء تجمَّل ببعضها العقلاء، وجالوا ببعضها في سياحتهم حول الذات الإنسانية؛ هؤلاء وإن تعرَّفوا على سرّ العظمة، أو نالوا شيئاً من خصائصها، ولكنَّها لم تكن إلاّ خصائص مرسلة ذات ملامح مجازية، لا أسَّ لها ولا أساس، وهي وإن صدرت عن نبع حي إلاّ أنها فارقت بلسمه الذي يبرء الجراح الدامية من صرعة الأنا حيث لم ترتبط بالسماء، وإن ادّعت الارتباط بها لم يصدِّق الرب تبارك وتعالى دعواها.

وأما عظماء الحق فلم تلههم خصيصة عن سرّ العظمة؛ إذ كانت قلوبهم مكمنها، ولم يفقدوا بلسمها؛ إذ بهم يتم الارتباط بين السماء والأرض، وأحد أولئك العظماء _ الذين أقرَّت لهم الأرض، بضعف تحملها عظيم دلائلهم، وسابغ إيمانهم، وتأبَّت أن تركن إلى خادع أمانيها _ إمامٌ وابنٌ لأئمّة الهدى، ومنار التقى وهو الإمام علي الهادي عليه السلام الذي أنجب سادات، تحنُّ الأرواح إلى محيَّاهم، فصنعهم أعلاماً للدين وتسديداً لأولياء الله، منهم من نال عهد الإمامة، ومنهم من شابه ريحانتي رسول الله صلى الله عليه وآله، و منهم من يقف المؤالف والمخالف على بابه، خاضعاً يرجو نوالاً ينعش دنياه، أو يثمر أمل أخراه، والسيد المرجوُّ المعنيُّ بهذه الأحرف الجذلى وهو سيدنا:

أبو جعفر سيد محمّد ابن الإمام علي الهادي عليه السلام.

ص: 16

المقام الاجتماعي والشأن الرباني:

يتكوّن المقام الاجتماعي للفرد من عوامل عـدّة، منها المكانـة الاجتماعيـة لبيته الـذي أنجبه، ومنها الميزات والخصائص المعنوية والمادية التي يحويها، وعادة ما تقترن المكانة الاجتماعية بوجاهة ونفوذ اجتماعيين يظهر اعتبارهما وقيمتهما أثر ظروف وشروط خاصة(1).

فالوجاهـة هي محصَّل الاحترام الذي يتلقَّاه الفرد من المجتمع بسـبب ما يحيط بمكانته من الملابسات التي توجب الاحترام، فإن لم توجبه تـذهب وجاهته، فكم من إنسانٍ له مكانـة اجتماعيـة مرموقـة، ولكن ليست لـديه تلك الوجاهة المناسـبة لها، وكم من إنسان له من الوجاهة الشيء الكثير رغم أن مكانته الاجتماعية بسيطة أو مقامه ضحل.

ومع تحقُّق الوجاهة يتحقَّق النفوذ؛ إذ هو تعبير عن قدرة الإنسان في المجتمع.

وللوجاهـة هيمنـة على عقول النـاس ونفوسـهم، هيمنـة تكاد أن تكون مقدَّسـة، ولعلَّ سـرَّ ذلك هو غياب منشأها عن أعين الناس ورؤيتهم لآثارها، الأمر الـذي يشـعرهم بالراحة من النقص الذي يعتريهم، لذا تجدهم يحنّون إليها كحنين الرضـيع لثدي أُمّه، ويُسـخّرون بها الناس أيّما تسخير(2)، وكأن الوجاهة ميسم كرامة حباه الله لذوي المكانة الاجتماعية

1- من جهة فنية يقع البحث في الظروف والشروط على عاتق الباحث الاجتماعي.

2- ومن لطائف الشواهـد على هيمنـة الوجاهـة ما جعل المتنبي يضنُّ بالمال لقضـية حـدثت له مع بعض الباعـة، فبينما كان يساومه على خمس بطيخـات بـدينار جـاء رجل وأخـذها منه بثلاثـة دراهم من دون مساومـة، بل وحملها البائع لبيته، فلما عاتبه المتنبي قال له: أنت لا تعرف هذا الرجل، إنه شيخ التجّار؟!

فلا يتوقَّع عامـة الناس محلاً للفضائل غير هؤلاء، وكأن مضـمون كلمة الصادق عليه السـلام متجلٍ هنا: ((إذا أقبلت الدنيا على إنسان أعطته محاسن غيره وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه))(1)، وفي قوله تعالى: ((وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هـذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ))(2) ما يعضـد هذه الحقيقة، وناظر إلى مثل هذه الخصـيصة الشائعة بين الناس، في حين أن المُؤْثر بأفضل مراتب الدين وجلاله هو الأفضل في طاعة الباري والأجدى في خدمته، وأيضاً لا يُؤخر في مراتب الدين وجلاله إلاَّ الأشدّ تباطئاً عن طاعته، وهذا من الأمور الخفيَّة التي لا يظهر عليها إلاَّ الباري تبارك وتعالى، أو من أظهره عليها الباري عز وجل فقـد يكون هنالك عبـد لله عز وجل لا ينفذ أمره في الناس رغم وجاهته، أو لا يعتني الناس به وهو لو أقسم على الله لأبرَّ الله قسمه، ولكن الله أخفاه في عباده(3).

إذن لا غرابـة أن ترى الـدنيا منصـبَّة على قوم لا خلاق لهم في الآخرة، يحكمون فيها بأهوائهم، ويأخذونها باسم الدين وربّه، ولو كانت الدنيا تساوي عنـد الله مقـدار جناح بعوضـة لما شـرب منها كافر شـربة ماء، بينما ترى أهل بيت النبوة تضـيق عليهم الـدنيا بما رحبت، والغرض الإشارة إلى عدم الملازمة بين المكانة الاجتماعية والشأن الرباني.

ومكانة السيد وإن تربَّعت في ذروة المراتب الاجتماعية وما تفرزه من وهاجة إلاَّ أنَّ شأنه الرباني له ذروته التي لا تضاهى.

1- بحار الأنوار 69: 64/ ح 11.

2- الزخرف: 31.

3- روى الصدوق عن أمير المؤمنين عليه السلام: ((إن الله أخفى وليه في عباده فلا تستصغروا شيئاً من عباده)) بحار الأنوار 72: 55.

قرب الباري ونعوت الأولياء:

إنَّ درك لون إيمان السيد وتصوُّر مدى قربه من الباري عز وجل هو الغرض من هذه الأسطر التي تشير ـ بنظرة إجمالية ـ إلى درجات الإيمان وموجباته ودرجات القرب من الباري تبارك وتعالى ومراتبه، ولا حاجة إلى بيان المفردات لوضوحها، ولأن الموضوع ليس من صميم البحث المنظور، وإنما هو توطئة من أجل تكوين صورة إجمالية عن الأجواء التي يعيشها الولي، والتعرَّف ولو بشكل مقتضب على لون إيمان السيد ومدى قربه من الباري.

ولعلَّ المستقر في نفس الإنسان أن حقيقة الإيمان ومكوناته وأكوانه سهلة المنال، بسيطة التناول، لا تحتاج لبذل جهد أو إتعاب نفس كما هو شأن تعريفه ولكن.. أجد الحديث عن درجات الإيمان ومراتب القرب من الباري تبارك وتعالى حديثاً شائكاً، رغم أنه ممتع في نفس الوقت، فللإسلام مراتب أدناها التلفظ بالشهادتين، وتتدرَّج المراتب لتصل إلى منحى يتطلَّبه الأنبياء، فهم على علو درجاتهم وسموّ مقامهم يتوسَّلون إلى الله كي يبلّغهم إلى تلكم المراتب، فهذا أبو الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل يدعوان الله: ((رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ))(1) وكذا الإيمان له مراتب يبدأ أوّلها بالإقرار بالوحدانية، ويتبعه الإقرار للرسول بالرسالة وأنَّ طاعتهما ومعرفتهما مقرونتان(2)، وتتدرَّج مراتب الإيمان إلى ما شاء الله،

1- البقرة: 128.

2- وسائل الشيعة 5: 419/ ح 6975.

وفي بعضها يمتحن المؤمن ليصبح قرين مَلَك مقرب أو نبي مرسل، ولكل مرتبة اسم يحكيها وقسمة تحويها، فاليقين _ مثلاً _ أقل المراتب انتشارا(1).

إذن من المهم معرفة ما جاء من الحديث عن الإيمان بالنحو الذي يبرز سماته وعلاماته وآثاره وخصائصه وخصاله فضلاً عن بيان حدوده، إذ له حقيقة بل حقائق، وأركان، ودعائم، وعرى، ومن أوثق عراه الحبّ في الله والسعي في قضاء الحوائج، وفي جملة من النصوص عُدَّ الحبّ في الله هو الدين، وبعض ملابسات الحبّ يعدُّ تقوية للحبّ والإيمان كتعظيم شعائر المحبوب وبعضها بالإضافة إلى تقويتها للإيمان تنمُّ عن صلابته بل وتنميه كالثقة بالله، ورجائه، وخوفه، وحسن الظن به، ومراقبته، واتّباعه، بل والتوكّل عليه، فلا شيء يفوق ما يختاره المحبوب، وهو ما يستدعي الرضا باختياره والتسليم لأمره.

وهذه المعاني جملة ما توجب للإنسان نيل الدرجات العلى، فمن أحبَّ في الله وكذلك من أبغض وأعطى ومنع في الله فهو من أصفياء الله(2).

وهذا المعنى سارٍ بكل ملابس مذكور أو غير مذكور، فمثل الثقة بالله ثمن لكل غال وسلّم لكل عال كما ورد عن الإمام الجواد عليه السلام(3)، والتوكّل على الله أحد أركان الإيمان التي لا يستقر إيمان بدونها، فبعض

1- بين الإسلام والإيمان تداخل في المراتب فالإيمان يدخل كشرطٍ أو كجزء في بعض مراتب الإسلام وكذا العكس، ومثلهما لفظ التقوى واليقين وما شابه فهذه الألفاظ بالإضافة إلى كونها مشكّكة هي متداخلة.

2- هذا مضمون حديث يذكره الحر العاملي في وسائل الشيعة 16: 166/ ح 21251.

3- بحار الأنوار 75: 364.

الصـفات تكون ركناً في مرتبة من مراتب الإيمان وعاملاً مقوياً ومنمّياً في مرتبة أخرى، وبعضـها يُعدُّ أساساً لأصل الإيمان سارياً في جميع مراتبه ولك الرجوع إلى أحاديث الإيمان ودرجات الإسلام للإطلاع على ذلك.

وبالإضافـة إلى التعرّف على الإيمان ودرجاته ينبغي معرفـة درجات المؤمنين؛ إذ لكل درجة متطلّبات فحسـنات الأبرار سـيئات المقربين، وكل ما ذُكِر من مراتب له درجات، ويتفاوت أهل الإيمان قوة وضـعفاً في حيازتهم لهـذه الصـفات(1)، وكثيراً مـا تتأثّر تلك الحيازة بالعلم والعمـل، قال تعالى: ((يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ))(2) فالعلم والعمل أساسان للإيمان والترقي، وإن كان لبيئة الإنسان مدخلية فهي بشكل جزئي ومحدود.

نعم في الجانب الإيجابي لبيئة الإنسان ومنبته يصّرح القرآن بتأثير الإيمان، قال تعالى: ((وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمـا وَكـانَ أَبُوهُمـا صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً))(3) وبعـد حصول هذه المعرفة الإجمالية تدرك أنَّ من آثار المودّة والحبّ الأولوية بالدنو والقرب، ومعنى ذلك أن الولي هو المستحق دون غيره،

1- تحسن الإشارة إلى أن للكفر مراتب، وهي تتفاوت، وفي بعضـها قـد يكون الإنسان مسـلماً لكن له كفر دون كفر، وهو غير المخرج من دائر الإسلام ما لم يؤدِ إلى إنكار النبوة أعاذنا الله وإيّاكم.

2- المجادلة: 11.

3- الكهف: 82 .

إذ هو الأقرب للباري دون سواه، وأنَّ الأولياء تتفاوت درجاتهم بحسب ما تحتويه قلوبهم وتصرف فيه أعمارهم وما يجتازون من امتحان.

إلى هنا يمكن القول: بأنَّ هنالك تناسباً طردياً بين الإيمان والقرب من الله تبارك وتعالى، فمع ازدياد الإيمان يزداد الإنسان قرباً من الباري عز وجل وأنَّ لكل مرتبة إيمانية بناءها الخاص، وأنَّ لأهلها شأناً وابتلاء يعكس تلك المرتبة، وتتلخَّص أسباب علوّ المرتبة في العلم والمعرفة وحبّ الله سبحانه وتعالى، وهي أمور ينبثق منها الكثير من الفضائل، منها: الثقة بالله والتوكل عليه وخوفه ورجاؤه وطاعته، ومشرعة هذه الميزات تقوى الله ومراقبته والتسليم لأمره، وهي معانٍ تستبطن خصائص تنمّي الذات الإنسانية فتجد الأنا نفسها من دون أن يشوّهها جهل أو يمسَّها طائف من الشيطان.

هذا هو الإيمان، وهذا هو أثره بشكل مختزل بحسب طبيعة موضوع البحث، ويكاد من شدّة إجماله أن يكون مختل البيان(1).

وبعد ما تقدَّم تدرك أن شخص السيد سبع الدجيل _ بالإضافة إلى وفور عقله وعلمه _ قد حوى جملة خلال الإيمان(2)، بل وتسنَّم درجاته الرفيعة بالنظر إلى كونه محلاً للبداء، وقد تقدَّم ما يشير إلى أنه لا يكون كذلك لو لم يحل في منزلة رفيعة، وقد أسعفه على ذلك أنه من

1- ولا يخفى أنَّ لكل صفة مراتب، ولكل مرتبة مطالب، فقد تتطلَّب مرتبة من مراتب التوكّل درجة إيمانية معيَّنة، وفي عين الحال تتطلَّب تلك الدرجة الإيمانية لوناً معيَّناً من ألوان التوكّل، فالتوكّل والإيمان وغيرهما مما تقدَّم طالب ومطلوب في تدرجه، وقد تقدَّمت الإشارة إليه وهو شيء مهم ينبغي العناية به.

2- لان الإيمان فرع الالتفات و المعرفة، وهما يحتاجان لعقل رزين وعلم نقي.

آل إبراهيم المصطفين بحسب النصّ القرآني المتقدّم، فصفاته إذن نموذجية كشفت عنها آثارها وأخبار البداء، وسيأتي في البحث التالي الكلام حول آثار القرب وكيفية كشفه عن الولي ومنزلته بشكل إجمالي؛ إذ أنَّ الله أخفى أولياءه بين الناس فلا يستخفنَّ أحدٌ بأحد، وبذا يتمُّ الكلام عن موجبات القرب وصفات المقرّبين.

***

ص: 23

الفصل الأوّل: الهوية الشخصية

اشارة

قرون الصراع بين قريش والإسلام.

الأصل والمنبت.

سبع الدجيل في التاريخ والوجدان.

السيد في وجدان الأمّة وعند قادتها.

كرامات سبع الدجيل.

ص: 25

المحور الأوّل: قرون الصراع بين قريش والإسلام

اشارة

عنوان يختصر الكلام وهو وإن كان بسطه وشرحه يطول لكن مضمونه من الواضحات لدى القارئ الواعي لتاريخ الإسلام والمسلمين، فالقرآن الكريم يحتوي على عشرات الآيات التي تكشف ستر النفاق والمنافقين، ولبُّ حركة المنافقين _ على اختلاف اتّجاهاتهم وتنوّع مشاربهم _ يرتكز على رفض ما جاء به الدين والأخذ بنظرتهم أو مصلحتهم الخاصة تحت أيّ مسمى كان، وأسفار التاريخ مشبعة بأقاصيص تكذّب بما ورد في القرآن الكريم أو تموّه الحق الذي لا ريب فيه، وما يمسُّ البحث من هذا العنوان هو الإشارة إلى أساليب المؤرّخين في دولة بني العبّاس، ولفت الأنظار إلى الوضع الديني العام آنذاك، وإلى ما نال أهل البيت عليهم السلام إذ كانوا المصدر الطبيعي للدين وملجأ الإسلام على مرور الأيام، وبذا تظهر بعض القيم المهمّة والتي تحدِّد موقعية السيد سبع الدجيل.

مقامات تاريخية وأخرى أسطورية:

جرت عادة الكتّاب أن يرسموا مقام العظام بالتركيز على مكمن رفعتهم، وقد تعزُّ المصادر على الباحث فيخبو ضوء الرفعة عنه، كما النجم كلما ازداد بعداً كلما خبا نوره وندر العثور على شيء من

خصائصه، بيـد أنَّ جولات الفكر تسـتطيع أن تفصح عن مقام عظيم ما، بالكشف عن المحل الذي تبوَّأه، وهذا المنحى له ميزاته الشـيّقة؛ إذ يبتعـد عن سـطر الأحداث أو اسـتنطاقها موجهة بما يعتقد كاتبها، فهي الكائن الذي يحمل بين طيَّاته رغبات المؤرّخ ونزعاته، وبهذا الداعي وذاك التجـأت المعـاني إلى قلم عَلِمَ معـالمَ الفكر وحرَّر محبرته من سواد الأنا، فالسـيد أبو جعفر وإن لـم أظفر بشـيء يحكي عنه حـدثاً أو يصـنع له جـدثاً في مـدوَّنات التاريـخ إلاَّ أن له مَعْلَماً حياً في النفوس لم تصـنعه كلمات المتاجرين ولا تمتمات المريـدين، بل فرضه ربُّ العالمين على من ناوأه وسـقاه بمن والاه، فسـبع الدجيل ـ على صـغر سـنه ـ خاض لباب المعترك، فلقد صبَّت الدولة العبّاسية كل نصب ووصب على بيت الإمامـة، وحاكت حولهم رصداً يمنع الناس من الدنو لرشدهم، فصار الناس بأشدّ ظلمة، وبات أهل البيت وقد تفرَّد بهم البلاء، وتحمَّلوا الأذى من حين خُرّب بيت النبوة ورُدِمَ بابه ونُقِضَ سـقفه وأُلحقت سـماؤه بأرضه وعاليه بسافله وظاهره بباطنه واستأصل أهله وأُبيـدت أنصـاره وقُتلت أطفـاله وأُخلي منبره من وصـيه ووارثه، وهم ـ ورغم ذلـك كلّه ـ يبثُّون لطـائف الفكر ودلائل الإيمان كي يخرجوا الناس من طيف الوهم والضلال.

وقـد جرت العادة بين ذوي القلم على الالتجاء إلى قصاصات تاريخيـة كي يصـفوا شـخصاً ما، فقصاصـة تحكي طوله، وأخرى تحكي لونه، وثالثـة شـكله و... حتّى تملَّ العين من ملاحقـة كلماتٍ يكثر خطوها في أسـطر التاريـخ، وهي تجترُّ وتجترُّ، وقـد شاخت ولم تتقاعد بعد، يلتمس كاتبها معالم شخصية ما، ويحكي سماتٍ ماديةً أو أخرى معنوية

قد تشرق في مسطورات التاريخ أو ترسم أسطوراته التي يعمدها ذاك المؤرّخ أو هذا الباحث بمخيالٍ طبعه التزويق، فيزاوج بينها وبين الواقع، فيبدأ بوصف الخليفة، ويحكي سكنه، ويضفي عليه جملة أصباغ بغداد وكريمات الشام إذ لم تكن باريس آنذاك! ويروّج لها ألحان معبد ومخنث المدنية فيضطر الإنسان إلى ترك ما في التاريخ من أمجاد وبطولات، ويهجر القلم وما خط؛ إذ لم يكن فيه روح الصدق وعاطفة الحقيقة، ويسعى نحو وشائج عصت على المؤرّخ فلا المؤرّخ ينكرها، ولا العالم يذكرها، وإنما تخرج من بين أنامله برغم منه، كما شردت عن أعين الراصدين وشائج النبوة ودلائل الصدق.

ومن الأمثال التي تتجلّى في طياتها مثل هذه القضايا.. دولة بني العبّاس، فقد صالوا وجالوا في كل حقل جاهدين في إطفاء نور الله عز وجل، وتراهم متفنّنين في غيّهم، فمن تغييبٍ للعقول المنورة.. إلى قتلٍ للقلوب الواعية كابن السكيت، وحبسٍ للأنفس الطاهرة كابن أبي عمير، ومنع للنفوس العطشى عن الورود للمنهل العذب بتزوير ملامح الهداة ونشر الأفكار المشوّهة، الأمر الذي صدر عنه حيرة شديدة ألمَّت بأغلب المسلمين المتطلّعين إلى نور النبوة والمشتاقين إلى رؤية أبناء الرسول الأكرم والأخذ من هديهم، وتمَّ ذلك بتشعيب طرق المعرفة الدينية ما يعسر معه الوصول إلى المنهل العذب الذي نصبه ودلَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله والتمويه بأشباه الرجال، فأبدعوا المذاهب وحصروا الفتيا في أناس معدودين مما ظاهرهم على إطفاء نور الله، ولكن يأبى الله أن يخبو نور الحق، وأهله أهل بيت النبوة، فخلَّد ذكرهم الحكيم وأغنى الناس عن تكلُّف ما قيل وما يقال حولهم بما أنبأ عن منبتهم وأفصح من طهارتهم،

وظهرت للنـاس آثار الاصـطفاء، وشاعت علائم الاجتباء، فنقشت أحوالهم كرامات لهم تنبئ الموافق والمخالف بأنه ((لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله من هـذه الأمّة أحد))(1) إذ ليست مصادفـة أن تجري خوارق العـادات بما يقيم أود طلابهم، فمن كان مع الله كان الله معه، وإذا أراد الله عز وجل إظهار فضيلة أمّة أو هتك لمة لا يعييه شيء؛ إذ هو القادر لا تعييه المذاهب ولا يفوته طالب.

وخلاصـة القول: أنَّ الدولـة العبّاسـية صـرفت الناس عن باب بيت النبوة، واسـتطاعت أن تشـتّت الانتماء الـديني بما أبـدعت من مـذاهب واتجاهات في مختلف فروع المعارف الدينية، وعمَّقت ما أحدثه رجالات قريش إبَّان فجر الإسـلام، بيد أن العناية الإلهية حالت بينهم وبين شهوات أنفسهم.

نظرة على الحياة العامة آنذاك:

كان شـعار الحركـة العبّاسـية (الرضا من آل محمّـد) فوافق هوى الناس؛ إذ القابع في أذهانهم والمرتكز في نفوسـهم تمثُّل الحق والعدل في محمّد وآله، سـيّما وأنهم لم يصابوا بذلّةٍ في جوارهم، ولم ينتقص حقٌّ في سـلطانهم، وبدينهم ودين جدّهم دان الناس، ومن سيرتهم تعرَّف الخلق على معاني الكرامة والحياة النبيلة، ولذا ترى الناس وقد سارعوا إلى تفتيت بني أمية، خصوصاً وأنهم ذاقوا وبال صولتهم وشؤم دولتهم وسـرعان ما تكشَّف قناع بني العبّاس وأُطرح شعار (الرضا من آل محمّد) فمن بدء أمرهم مكنَّوا السيف من رفاق الأمس، وطاشت أحلامهم حتّى

1- نهج البلاغة 1: 30/ من خطبة له بعد انصرافه من صفين.

خالط نشوة الظفر شـهوة الاسـتبداد وسـلطان الغدر، فطُلّت دماء الخراسانيين وهي دماء طالما تدفَّقت في شرايينهم، فلم يتربَّع المنصور إلاّ على جماجم أنصاره الذين التهموا دولة بني أمية، وعمد بنو العبّاس إلى التخلُّص ممن يخشونه من أعوانهم، وبعد موجة عاتية من التصفيات شرعوا في تأسيس فكرٍ يقوّي سلطانهم ويربط الدين بمصالحهم مستفيدين من طلاب الرئاسة والشهرة(1) ومنافقي الأمّة، فحصروا الفتيا في فئـة معينـة، وأوكلوا الحـديث لأخرى، ولم يتركوا العقيـدة في حالها، بل كوَّنوا لهم أندية جمعوا فيها المتكلّمين على اختلاف مشاربهم(2)، وبلغت هذه الأندية أوجها في زمن المأمون، فلقد جمع متكلّمي الأديان من أقطار الأرض على اختلاف مشاربهم، وقذف بهم في سجالات مع أهل البيت طمعاً منه في أن تبهت أنوار آل محمّد، ولم تفلح هذه المحاولات على كثرتها، هذا على صعيد علّية القوم، وأما على مستوى عموم الناس فلقد وظَّف بنو العبّاس الشعراء(3) والمفتين وطبقات من

1- هنـاك مكاتبـة مشـهورة بين الإمـام الصادق عليه السـلام و المنصور الـدوانيقي يطلب فيها الثاني من الإمام أن يغشاه كما يغشاه الناس فأجـابه عليه السـلام: ((ليس عنـدنا ما نخافك عليه، وليس عنـدك ما نطمع فيه، ولست في نعمـة فنهنيك، ولا في مصـيبة فنعزيك)) فقال له: تغشانا لتنصـحنا؟! فأجابه: ((من يطلب الآخرة لا يصـحبك، ومن يطلب الـدنيا لا ينصـحك)). وكان تعليق المنصور على هذه المقولة أنها ميَّزت منازل الناس لديه. بحار الأنوار 47: 184.

2- من أبرز أنديتهم نادي البرامكة الذي يحضره بين الفينة والأخرى هارون نفسه.

3- يعدُّ الشعر آنذاك أقوى وسيلة إعلامية.

طلاب العلوم _ سيّما طلاب علم الكلام(1) ممن حفظ طرفاً من هنا وهناك _ من أجل بثّ معانٍ جـدد في مختلف أطياف المجتمع، وقد بدأوا في تكوين الغطاء الديني في وقت مبكر من عمر الدولة العبّاسية، ومؤسس هذه الحركة في زمن بني العبّاس هو المنصور الدوانيقي(2) بعـد وقعـة الحرة، وأطلقها بكلمـةٍ معروفـة (لأعلونَّ كعب تيم وعـدي وإن رغم أنفه)(3)، ومنها انطلقت آيات التقـديس للشـيخين وبدأت الشياطين توحي إلى أوليائها زخرفاً من القول وزوراً.

ولا يعني ذلك أنَّ الناس تجاوبوا مع بني العبّاس أو أنهم نجحوا بقول مطلق في تحقيق بغيتهم؛ إذ وقفت ثُلّـة من الغيارى على الـدين وأهله، وهم ((مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضـى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً))(4) فها هو السيد الحميري يصدح بحقائق التاريخ ويوثّقها سيّما ما صدر من الشيخين، وبنو العبّاس لا يلقون بالاً لما يفعل إذ كانوا في شغل عنه..

1- لمعرفـة أهميـة أهل الكلام وتأثيرهم في الوضع في تلك الفترة لاحظ قول هارون الرشـيد في خطابه ليحيى البرمكي، بعدما سـمع كلام هشام بن الحكم: (مثل هـذا حي ويبقى لي ملكي ساعـة واحـدة، فوالله للسان هذا أبلغ في قلوب الناس العامة من مائة ألف سـيف). بحار الأنوار 48: 202.

2- قـد سـبقه في ذلك الحكّام المتقـدّمون عليه، لكن محاولاتهم لم تكن مؤثّرة كما كانت حركة بني العبّاس، ولعلَّ السـبب يرجع إلى فقد عنصر الانتماء للبيت الهاشمي.

3- ذكرها في خطبة الجمعة، ولها صـيغ متعدّدة، ومنع على إثرها من ذكر فضائل أهل البيت عليهم السـلام ومنع من رواية ما لا يصب مع حربه على أهل البيت من تاريـخ أبي بكر وعمر، راجع (ج 3/ص 204) من الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم للشيخ زين الدين علي بن يونس العاملي النباطي.

4- الأحزاب: 23.

وما إن انتشـر فكر العبّاسـيين ونشط رجال البلاط لذلك الفكر حتّى بدأ الخناق يضـيق على السـيد وذلك بتحريك العامة، وقد اسـتفادوا من الشراة كثيراً في هذا الباب.

وقد انتقي مكان عاصـمة العبّاسـيين بعناية، وتمَّت هندسـتها وفق حاجات الملك والسـلطنة، وبشـكل يضمن السيطرة عليها وعلى قاطنيها، برغم أنَّ ساكنيها قـد اختيروا بدرايـة تضـمن الولاء للدولـة، وقد أعطى بناؤها المؤسّسـين الأوائل المدى الزمني الكافي لكنس رفاق الدرب ومحو آثار الحروب، فقد استغرق العمل فيها عقداً من الزمن أو أكثر حتّى أنشئت كدار للسلطنة وعاصمة للملك يدين أهلها للحاكم بالولاء ولكن رغم كل تلك التـدابير إلاَّ أنه سـرعان ما ارتسم على وجهها ملامح تضاد، فبغداد العاصـمة كانت من وجهة دينية همُّها الشاغل طُرف دينية يحلم بها العامة، وتجلب الألقاب أو الأرزاق من جيب هذا الوزير وذاك الخليفة.

ومن وجهة ثانية حلَّ بها جيش يفعل ما يشاء، وكأنَّ الدين أنزل لغيرهم والأخلاق ليست بثوبٍ لهم.

ومن وجهة ثالثة خليفة يرفع الله سيفاً ويغنّي النبي وا لإسلاما، يصلّي في الجامع ويأمر بتقوى الله ويدلّل الجيش بما لا يرضي الله.

وبلغ الأمر أن جنـد الخليفـة يعتـدون على المرأة المسـلمة في شوارع بغداد وتسـحق خيلهم الشـيوخ والأطفال من غير اكتراث(1) ولا من منكر، ولمَّا احتج المتدرّعون بالمواهب الدينية طلبوا من الخليفة إبعاد جنده عنهم فانبثقت..

سامراء: بلدٌ يقطنها الخليفة وجنده، وتحوي أركان المملكة

1- ذكرها جملة من المؤرّخين كالطبراني وابن الأثير وابن خلدون.. وغيرهم.

ويحجز فيها من يخشى منه، وقد كانت سامراء لوناً جديداً في العالم لا يمسّ ها معروف ولا يهجرها منكر، لم يقطنها عالم باختياره، ولم يبارحها جاهل إلاَّ من قيَّض الله له أمره.

هذا إجمال الصورة العامة للبلاط وأهله، وقد غلب عليه الترك وهم قوم أولوا قوة فتمكّنوا من كل شيء حتّى من سلاطين بني العبّاس ومن أعراض السلاطين(1).

ولك أن تقدّر حال الناس إذا كان أميرهم يسوسهم بالظلم والجور ويقوده في ذلك الجهل والبغي، تُرى كيف يكون حالهم وخليفتهم جاهل بأهمية القراءة والكتابة، بل وفيهم من لا يقرأ ولا يكتب، وهي أبسط الكمالات التي يحتاجها مثله(2) آنذاك، وأصبح السائد المعروف البغي والظلم والجور حتّى قال القائل:

1- سُمِعت أُمّ المعتز العبّاسي تدعو بمكّة على صالح بن وصيف وتقول: هتك ستري، وقتل ولدي، وأخذ مالي، وغرّبني عن بلدي، وركب الفاحشة منّي..! (تاريخ أبي الفتوح أحداث سنة 255ه-).

2- كان هارون العبّاسي قد ترك ابنه المعتصم من دون تربية أو تعليم لمجرَّد أنَّه تذَّمر من الكتاب.. فنشأ لا يقرأ ولا يكتب حتّى تولّى الملك وأمر الناس، ووافاه حتفه وهو على حاله، وهذا المعنى مشهور في التاريخ، وقد كان سبب بزوغ نجم ابن الزيّات... وللمعتصم كلمة ردَّد مضمونها في عدّة مجالس حتّى اشتهرت وخلّدته: (خليفة أُمّي وكاتب عامي لا يجتمعان) قالها حينما سئل عن معنى الكلأ الوارد في كتاب الوالي، وقالها يوم حار قصر بني العبّاس في جواب قيصر الروم، فراجع أخبار الدول ووفيات الأعيان وغيرهما، وتاريخ ملوك المسلمين وخلفائهم مشحون بنماذج هذه الظاهرة منذ البدء، فالحاكم الأوّل حار في ميراث الجدّ، والأوّل والثاني لم يعرفا معنى كلمة الأبّ.. وغيرهما الكثير من الوقائع والأحداث، وليست غريبة هذه الحالة، فلقد ألهاهم الصفق بالأسواق عن طلب الفقه في الدين، وضعفت همّتهم عن السؤال حتّى كانوا يتمنّون أن يأتي الأعرابي فيسأل النبي، الأمر الذي أوجب تعدُّد مشاربهم فظهر المتهوّكون الذين واجههم رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى بان على وجهه الغضب وهو نبي الرحمة، الأمر الذي يفصح عن شدّة الانحراف عمّا جاء به النبي صلى الله عليه وآله..

يا ليت ظلم بني مروان دام لنا

وليت عدل بني العبّاس في النار

ولو عملتَ مسـرداً للحوادث التي منيَ بها الناس في دولة بني العبّاس لرأيت الأمن من جملة الأحلام والأمنيات التي تسكن خواطر الناس، ولرأيت أنَّ تفشـي الفقر وتوهين الحق من أقوى الأسـباب الداعيـة لقيام العلَّويين في دفع الظلم عن الناس(1) وبلغ الظلم حـدّاً وكثرة أنَّه لا تكاد تعثر على صنف من المسلمين لم يجرّد السيف في وجه بني العبّاس.

* * *

1- يذكر التاريخ قضية لأحد الطالبيين أمر المعتصم بإلقائه في بركة السباع لحادثة يصفها التاريخ أنَّه غضب لله ورسوله، إذ كان والي منطقته يفعل المنكرات وينصر الباطل، فسرى ذلك في فساد الشريعة وهدم التوحيد، فعمد إليه بعد انعدام الناصر وقتله. (بحار الأنوار 50: 219).

المحور الثاني: الأصل والمنبت

أهل البيت عليهم السلام:

قـد تنتفي الحاجـة إلى الاطلاع على جـذور الرجال وأصول الأنساب في دنيا العلوم وعالـم المعرفة، وقد يحتاج الباحث في مجال معيّن إلى الإلمام بأحوال الرجال ويسـتغني عن فصـلهم وأصـلهم، فيُعـدُّ التعرّض للأصل والفصل ضـرباً من الترف العلمي، لكن الأخـذ بهذه النظرة بشـكل مطلق غير صحيح، لأهمية جذور الإنسان وأصوله في معرفة سمته وسماته وتأثيرها في تكوينه الاجتماعي والنفسي والثقافي، فحينما يسـتعرض الإنسان خواطر النسب والأصل ينتشـي فخراً أمام كلمات أرباب القلم، ويستشـعر الرفعـة والأصالـة في ذاته حينما يسـجّل طيب معـدن الإنسان أو يرصد مجد آباء البشـرية، وتخشع الأنفس وتندهش العقول عندما يكون وصفُ المنبتِ محل عناية الباري تبارك وتعالى، فكلامه سـبحانه بعيـد عن المبالغات المتحارفـة عن الواقع، بعيد عن المجاملات ولو لـم تكن تلك المجاملات خاوية، وأصل السـيد وشأن آبائه يفصح عنه صنع الله بهم، فهلمَّ نستنطق كتاب الله في شأنهم.

آباؤه:

يكفي تعريفاً لهم أنهم أولئك المصطفون الأخيار، فقد قال تعالى فيهم: ((إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ

عَلَى الْعـالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُـها مِنْ بَعْضٍ وَاللّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ))(1) وهـم الـذين دانت العباد بـدينهم الـذي اختصَّهم الله به، فقـد نطق الذكر الحكيـم عـن لسـان أبيهـم إبراهيم الخليـل: ((وَوَصَّى بِهـا إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُـوبُ يـا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْـطَفى لَكُمُ الـدِّينَ فَلاـ تَمُـوتُنَّ إِلاـَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ))(2) وهـم أمّـة جنَّبهم الله عبادة الأصـنام بـدعوة أبيهم إبراهيم: ((وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنامَ))(3) وقـد كانوا كما شاء الله من قبل أن يبرأهم، فـ–كانوا السبيل إلى الله والدعاة إليه والأدلاء عليه اقترن ذكرهم بذكره، وشـكرهم بشكره، فأكرم به من مقام فقال تبارك وتعالى: ((قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى))(4).

أُمّه:

لم أظفر بشيء يمكن أن ينمَّ عن مقام أُمّه، ويكفيها شرفاً وسمواً أن كانت وعاءً لمثله، فالولد غرسة أبيه ونبتة أُمّه، يحكي فضائلهما وفواضلهما ويعكس سيرتهما بشكل ما إلاَّ ما شذ وندر، ولا يشذ شاذ إلاَّ لعلَّة عارضة.

ويظهر من كلمات بعض النسّابة أنَّ أولاد الإمام علي الهادي عليه السـلام لأُمّهات شتّى ففي كتاب السيد ضامن بن شدقم في تحفة الأزهار ما نصّه:

1- آل عمران: 33 و34.

2- البقرة: 132.

3- إبراهيم: 35.

4- النمل: 59.

قال السيد: (فأبو الحسن علي النقي عليه السلام خلّف أربعة بنين: أبا محمّد الحسن العسكري أُمّه أُمّ ولد، والحسين، وأبا علي محمّداً، وأبا كرين جعفراً الكذّاب، وعايشة أُمّهاتهما أُمّهات أولاد)(1).

أعمامه وعمّاته:

ذكر السيد ضامن بن شدقم أنَّ للإمام الجواد أربعة بنين هم: الإمام الهادي وموسى المبرقع والحسين وعمران، وأربع بنات هنَّ: فاطمة وخديجة وأُمّ كلثوم وحكيمة أُمّهم أُمّ ولد(2).

ونصَّ الشيخ المفيد على ابنين: الإمام علي الهادي وموسى، وفاطمة وأمامة ابنتيه(3).

واستظهر الشيخ عبّاس القمي من تاريخ قم أنَّ للإمام الجواد بناتاً غير ما ذكرت.

وحكيمة لها فضل مميَّز، وقد أدركت أربعة من الأئمّة وأودع عندها الإمام الهادي السيدة نرجس أُمّ صاحب الزمان، وكان لها منصب السفارة بعد استشهاد الإمام العسكري، بالإضافة إلى خصائص ومهام أُخر، والملفت للنظر إهمال ذكرها فلم تثبت سيرتها(4).

والقول: بأنها ولدت بسامراء.. من سهو القلم؛ لأن المعتصم شرع في عمارة سامراء سنة (220ه-) وهي السنة التي قبض فيها الإمام الجواد على ما هو مشهور، وقيل توفي سنة (219ه-) أو (226ه-).

1- تحفة الأزهار وزلال الأنهار 2: 461.

2- تحفة الأزهار وزلال الأنهار 3: 429.

3- الإرشاد: 295.

4- منتهى الآمال 2: 569 و575.

إخوته:

أبو (م ح م د) الحسن العسكري وهو الإمام بعد أبيه عليهما السلام.

والحسين، ولقد كان ممتازاً في الديانة عن سائر أقرانه وأمثاله، تابعاً لأخيه الحسن عليه السلام معتقداً بإمامته، ودفن في حرم العسكريين عليهما السلام تحت قدميهما.

وجعفر المعروف بالكذّاب، ذكر عنه السيد ابن شدقم جملة من الفضائع، وأشار إلى رسالة قد صنّفت في توبته، وعلّق عليها قائلاً: (هذا خلاف للنسّابين وأهل التواريخ والسير، فإن مناصفتهم قد اتفقت على أكثر أخبار جعفر وما كان مصرّاً على ارتكابه، وأفعاله مشهورة عند الخاصة والعامة فنستعيذ بالله من ذلك)(1) وللدكتور جودت القزويني موقف وتأمّل حول هذا الموضوع في دراسته وتحقيقه لكتاب سبع الدجيل تأليف السيد موسى الموسوي فراجعه.

وله أخت واحدة اسمها علية أو عائشة(2) وقيل: فاطمة.

1- تحفة الأزهار 3: 463.

2- بحار الأنوار 50: 231، أقول: من المستبعد جدّاً أن يكون اسمها هذا؛ لاقتران هذا الاسم بشخصية نادت يوم منعت من دفن الحسن عند جدّه.. بقولتها المشهورة: (لا تدفنوا في بيتي من لا أحبّ) رغم أنَّها عاشت بينهم ورتعت في مراحهم، شخصيةٌ تظاهرت على رسوله، فنزل بشأنها آي من الذكر، ولها وقائع وأيام جرَّت الويلات على المسلمين. ولو فرض صدور هذا الاسم عن مثل أهل بيت العصمة فهو يدلُّ على شدّة الوقت الذي كانوا فيه، أو أنَّ سبيله سبيل اسم بعض أولاد أمير المؤمنين عليه السلام فقد سُمّي أحدهم باسم من وجدت عليه الزهراء عليها السلام ولكن لم يسمّه بذلك الاسم أمير المؤمنين عليه السلام بل سمَّاه بذلك الحاكم الثاني نفسه، فلعلَّ هذا الاسم سمّيت به من غير أهل البيت عليهم السلام وعرفت به من دون أن يكونوا هم الذين سمَّوها به.

عقبه :

عقبه (1):

الاعتناء بالنسب في ثقافة المسلم له مساس بمقامات دينية وأحكام تشريعية، ففي صوره الأوّلية يكون موضوعاً للتشريع، فبنو هاشم تحرم عليهم الزكاة، ويرجَّح الهاشمي في إمامة المصلّين على غيره، فمثل حديث: ((الأئمّة من قريش))(2) لفت نظر قريش وعلماءها، فجعلوا الانتساب إلى قريش أحد الشروط المطلوبة في الساعي لنيل الإمرة العظمى للمسلمين، رغم أن النبي صلى الله عليه وآله عيَّن المراد من هذه الكلمة ونصَّ على أسماء الأئمّة، لكن القوم تلاقفوها وحرَّفوها عن مواضعها والغرض من هذه الكلمات الإشارة إلى أن الاعتناء بالنسب له دواع دينية، كما أن له دواعيَ اجتماعية، وقد عنيَ النسَّابون بذكر أعقاب السادة الأشراف، وظاهر كلماتهم لملمة شتات الذرية في مختلف البلدان والأزمان، وهم يراعون في ذلك تشابه الأسماء وتداخلها حتّى حاكم بعضهم البعض فيما يقول وتكاد تدين بقولهم، وتترفَّع عن اتهامهم بالتقصير أو التوهّم لشدّة ما ترى من محاكمات وتتبّع(3)، ولكن الالتفات إلى بعض الملابسات التاريخية يريك أنَّ إغفالهم بعض الروابط الاجتماعية الماثلة في حياة البيوتات والأسر في ذلك الوقت قد أثّر في نتاجهم واستنتاجهم.

1- الكلام حول عقب السيد بالشكل الذي تراه يدخل ضمن السياق العام لترجمة السيد، ويفيد في معرفة ما جرى على البيت العلوي، فإنَّه وإن جرت العادة بذكر أعقاب المترجم له بعد ترجمته، إلاّ أنَّ المقام ليس مقام ترجمة بالمعنى الحرفي لها وإنما الغرض التعرّف على ملابسات المترجم له قبل الدخول في ترجمته.

2- وهو حديث متواتر.

3- سيأتي قريباً طرف من التهافت فيما يقرّرون.

فمثل الأيتام لا يذكرون من تكفّل بهم واعتنى بشأنهم، وهل ثَمّة تداخل في الانتساب نتيجة لذلك التكفّل أو لا؟

قد تكون الأصول العقلائية نافية لمثل هذه الاحتمالات، وبعض الشواهد التاريخية تدفع تأثير الرعاية والتكفُّل في تداخل الأنساب فمحمّد بن أبي بكر ربيب أمير المؤمنين عليه السلام ودرج بين يديه، ومع ذلك لم يعرف به، ولكن هناك أيضاً شواهد تاريخية تثبت هذا التداخل والتأثير أيضاً كما في نسب بني أمية لعنهم الله.

إذن ينبغي الاعتناء بهذا اللون من الروابط الاجتماعية من أجل بيان ما عليه حال الأعقاب، خصوصاً في الأسر التي لا يتصوَّر فيها إهمال كبرائها لأيتامهم وصغارهم، فهم المحسنون لأعدائهم فضلاً عن أوليائهم فكيف بأولادهم(1).

والعيِّنة التاريخية لهذه النظرة أعقاب السيد محمّد، فإن هذا السيد الجليل له إخوة منهم من أعقب ومنهم من لم يعقب، وتاريخياً كلّهم لقوا حتفهم في عنفوان شبابهم سوى جعفر المعروف ب- (أبو كرين) وهو شخص تنسب له ذرية تزيد على المائة.

فهل جعفر هذا كان ممن تحمَّل ثقل إخوته، سيّما وأنَّهم عاشوا ظرفاً قاسياً جدّاً، أو كان الرجل _ كما هو مبثوث في كتب التاريخ _ منشغلاً بالجوسق يلهو ويلعب وكان عوناً للزمن على أهل بيته؟!

المعروف عند أهل النسب والتاريخ الثاني، بل يكاد أن يلحق بالضروريات عندهم ومجانبة كلماتهم تفرض لنا احتمالين:

1- كمثال على ذلك لاحظ قصة تكفّل ابنة حمزة عمّ النبي صلى الله عليه وآله وكيف هبَّ لها عدّة أفراد من قراباتها.

الأـوّل: كونه الكبير الوحيـد الـذي بقي من أهـل بيته، وطبقـاً للأخلاقيـات العقلائيـة يصـير هو المحتضن لأبنـاء إخوته، وبه يعرفون، وعليه يحسبون، لكن التاريخ يصف كلبه عليهم.

الثاني: أنَّ له ذرية أثقلت الأرض ب- (لا إله إلاَّ الله) ولسوء ما كتب في التاريخ تواروا بين أغصان المشـجرات، فعرفوا بعمومتهم دون أبيهم سيّما مع مخالفة سيرتهم لسيرته.

والـداعي لطرح مثل هـذا التساؤل أنَّ جماعة من السادة ينتسـبون إلى سـبع الدجيل، وجملة من كتب في الأنساب سـكتوا عن عقب الإمام الهادي من ابنه أبي جعفر، وعدّة منهم ذكروا أنه مئناث، وقال آخرون: إنَّ له عقباً.

فأبو النصر البخاري في سرّ الأنساب العلوية وابن طباطبا في أبناء الإمام في مصر والشام لم يذكراه أصلاً.

والمحكي عن العمري في المجـدي أنه يـذكر: أنَّ الإمام الهادي أعقب ثلاثـة: الإمام الحسن العسـكري الثاني المـدفون مع أبيه في سامراء ولقبه الرضـي وأُمّه أُمّ ولـد، والثاني أخوه محمّـد أراد النهضة إلى الحجاز فسافر في حياة أخيه حتّى بلغ بلد وهي قريبة... فمات بالسواد وقبره هناك مشهور وقد زرته ولم يذكر له عقب.

وعلَّق الجلالي في جريـدة النسب بقوله: (ومرقـد السـيد محمّد هذا مزار معروف تزوره الشـيعة والسُّـنّة زرافات، ويعرف عند أهالي المنطقة بسبع الدجيل، يبعد عن (بلد) خمسة كيلومترات، وزرته وذكرته في كتاب مزارات أهل البيت عليهم السلام).

وأقول: قال باسل الأتاسي: يجدر بالذكر أن الجلالي يصحّح

أنساب الجعافرة بمصر المنسوبين إلى المهدي بن الحسن العسكري عن طريق إرجاعهم إلى علي بن محمّد سيد الدجيل بن علي الهادي فلاحظ المفارقة بين النسبتين.

وفي المحكي عن الأصيلي لابن الطقطقي عن الإمام الهادي: (وله خمسة أولاد: الإمام الحسن العسكري، وجعفر الكذّاب، ومحمّد، والحسين لا عقب له، وموسى لأُمّ ولد لا عقب له)، ثمّ قال في موضع آخر: (وأما محمّد بن علي فينتهي عقبه إلى جعفر بن علي النازوك بن محمّد الأصفر بن عبد الله بن جعفر بن محمّد) واكتفى بذلك في ذكر أعقاب محمّد بن علي.

والمحكي عن ابن عنبة في عمدة الطالب أنه ذكر أن الإمام الهادي أعقب من رجلين ولم يذكر السيد محمّد بشيء.

ويحكى عن السيد المخزومي الرفاعي في صحاح الأخبار متحدّثاً عن الإمام الهادي: (وكان له خمسة أولاد: الإمام الحسن العسكري، والحسين، ومحمّد، وجعفر، وعائشة، فالحسن العسكري أعقب صاحب السرداب الحجة المنتظر ولي الله الإمام (م ح م د) المهدي، وأما محمّد فلم يذكر له ذيل طويل، ويقال ـ وهو الصحيح ـ بعدم العقب في آل علي الهادي إلاّ من جعفر، والحسن العسكري ليس له إلاّ الإمام (م ح م د) المهدي عليه السلام). انتهى مجمل محكي باسل وهو في سنبله.

وأما السيد ضامن بن شدقم فقال في تحفة الأزهار:

(فالإمام أبو الحسن علي الهادي عليه السلام خلَّف أربعة بنين: الإمام أبا (م ح م د) الحسن العسكري أُمّه أُمّ ولد، والحسين، وأبا علي محمّداً، وأبا كرين جعفراً... وعقبهم أربعة أصول.

الأصل الأوّل:

عقب أبي علي محمّد: فأبو علي محمّد خلّف علياً، ثمّ علي خلّف محمّداً، ثمّ محمّد خلّف حسيناً، ثمّ حسين خلّف محمّداً، ثمّ محمّد خلّف علياً، ثمّ علي خلّف شمس الدين محمّداً الشهير بمير سلطان البخاري، ولد ونشأ في بخارى ويقال لأولاده البخاريون وكان شمس الدين سيداً ورعاً عابداً صالحاً زاهداً صاحب العلماء الكبار واقتبس من فضائلهم وذهب من بخارى إلى الروم وسكن في مدينة (بروساء)، وحكيت عنه كرامات كثيرة وتوفي في تلك المدينة سنة (832هـ) أو (833هـ) وقبره معروف هناك ومزار للناس ومحل نذورهم)(1).

وحكي عن السيد حسن البرقي قوله: (إنَّ عقب السيد محمّد من شمس الدين، وله سلالة وذرية منتشرة في الأطراف والأكناف، ومن أولاده علاء الدين إبراهيم، وابنه علي، وابنه يوسف، وابنه حمزة، وابنه السيد محمّد البعّاج)(2) وبه تعرف (آل البعاج) في العراق، وهم يرجعون بنسبهم إلى المؤيّد بالله يحيى بن محمّد البعّاج، وكان من أكابر سادات العراق وأعيانهم في القرن الحادي عشر الهجري(3)، وقد يذكر هذا اللقب لنفس السيد محمّد سبع الدجيل.

وفي كتاب تاريخ المشاهد المشرّفة للسيد حسين أبو سعيدة انتهاء آل البعّاج إليه، وتابعه على ذلك الجلالي في جريدة النسب.

وقال أبو سعيدة: إنَّ أحمد بن المهنا العبيدلي المتوفى (632هـ)

1- تحفة الأزهار وزلال الأنهار 2: 461.

2- منتهى الآمال: 639.

3- راجع: سبع الدجيل للسيد موسى الهندي/ ودراسة وتحقيق د. جودت القزويني: 56.

ذكر في تذكرة الأنساب المعروف بشجرة ابن المهنا أن لمحمّد بن علي الهادي عقباً.

وهـذا مخالف لما ذكره الدكتور الحوت في الدرر البهية، حيث قال: وقال أحمد بن علي بن المهنا: محمّد الثاني أبو جعفر بن الإمام الهادي لا عقب له.

وحكي عن كتاب (النفحـة العنبريـة في انساب خير البرية للعلامة النسّابة محمّد كاظم الموسوي): ذكر ولد علي بن محمّد النقي، قال: (وله من الولد... وأبو جعفر محمّد... وقال أحمد بن علي المهنا: قد زرته، فقال: لا عقب له).

وقد حكيت تعليقة على هذه العبارة للسيد مهدي الرجائي قائلاً: (لم أعثر على هذه العبارة في عمدة الطالب).

ومحكي في تذكرة الأنساب طبعة المرعشي ذكر بنتين فقط للسيد محمّد بن علي الهادي ولم يذكر له بنين.

وقيل: ذكر ابن فندق البيهقي في كتابه لباب الأنساب عقباً للرضوية فقال: (ومن هذا الرهط سادات مرو، ومنهم إسحاق بن أحمد بن علي بن محمّد بن علي بن زيد بن الحسين بن محمّد بن علي النقي بن محمّد التقي بن علي بن موسى الرضا).

وعلَّق السـيد الرجائي محقّق الكتاب على ذلك أنَّه سأل السـيد النسّابـة عن عقب محمّد فكان ردّه: (الحق عندي أنه معقّب)، ثمّ ذكر جمعاً من أعقابه..

والمنقول عن الرجائي: أنَّ الأنساب المنتهية للسيد محمّد بالتحقيق تنتهي إلى جعفر الزكي.

هذا إجمال المحكي في المقام وليست غربلته محلاً للبحث.

وإلى هنا يتّضح:

1 ـ أنَّ الأنساب لها أهمية في الشريعة سيّما نسب البيت النبوي.

2 ـ أنَّ هنالك ظروفاً قاهرة وقاسية جعلت الأنساب متوارية عن نظارها.

3 ـ أنَّ أهل الأنساب ليست لهم تلك الدقة وذاك التحري في إثبات ما تصدّوا له سيّما المتأخّرون منهم.

4 ـ تلقيب محمّد بن علي الهادي بلقب سبع الدجيل لم يكن في حياته أو لا أقل لا أثر له في الكتب السابقة فضامن ابن شدقم لم يعرّفه ولم يذكره بهذا اللقب، ولم يذكر في ضمن ألقابه (البعّاج).

5 – قيل: إنَّ السيد مئناث ولم يكن له ولد.

***

ص: 47

المحور الثالث: سبع الدجيل في التاريخ والوجدان

اسمه وكنيته:

سيد محمّد بن الإمام علي الهادي بن الإمام محمّد الجواد بن الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمّد الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين السبط الشهيد بن أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليهما وآلهما الحوراء الإنسية التي أجلَّها الله في كتابه العزيز ونصَّ على طهارتها وباهلت النصارى مع أبيها وبعلها وبنيها دفاعاً عن التوحيد فكانت مظهر الحق وحجته دون نساء العالمين(1).

ويكنّى بأبي جعفر، ويعرف بالبعّاج(2)، ومُشْتَهر بسبع الدُّجَيْل.

1- تمَّ ذلك في يوم المباهلة، وأصلها في اللغة من البهلة وهو التضرّع والخلوص في الدعاء وتقريب معناها: أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيلعنوا ويدعوا على المبطل منهم ولها صفة خاصة تؤخذ من مظانها، ومن مباهلة الرسول الأكرم بعترته دون سواهم يعلم أن لا يدانيهم في الفضل والشرف والمنزلة عند الله أحد من الخليقة، مهما تقمَّص من أوصاف إذ برز بخاصته دفاعاً عن التوحيد وصار المسلمون وغيرهم إلى موقف المتفرّج ينظرون إلى مظاهر عزّة الله ورسوله.

2- مراقد المعارف في تعيين مراقد العلويين والصحابة والتابعين والرواة والعلماء والأدباء والشعراء للشيخ محمّد حرز الدين 2: 262.

ويذكر له عدّة ألقاب معروفة في نواحيه منها:

السيد، أبو جاسم، أبو البرهان، أبو الشارة، سبع الدجيل، أسد الدجيل، البعّاج، سبع الجزيرة، أخو العبّاس، البطّاش، اليصيح بالرأس، الطفاي(1).

تحليل الكنى:

اشارة

اشتهرت الكنى بين العرب حتّى قيل: إنَّها مما اختصَّ به العرب وشاعت الألقاب بين العجم حتّى قيل: إنَّها مما اختصَّ بها العجم.

ولكل من الكنية واللقب مجاله وخصائصه وفلسفة توظيفه ودلائله التي تجمّل منهج التخاطب وتلطّف أسلوب الحوار، وهذه الفلسفة بعمومها تحتوي على منظور مدرك مشوب بمعرفة وثقافة المستعمل لتلك الكنية أو هذا اللقب، فهما ينمّان عن عدّة أمور، وما يرتبط منها بالمقام:

أوّلاً: ما يحمل المتكلّم تجاه الشخص الموصوف ولو بمستوى الأحلام والآمال عند الإنسان.

وثانياً: لفت الانتباه لجنبة في الموصوف تمنَّاها أو ارتضاها الواصف.

وإذا صدرت تلك الصفة من الباري تبارك وتعالى فلا بدَّ وأن تكون كاشفة ومبينة لشيء في الموصوف؛ لأن الحكيم العالم لا يطلق الكلام جزافاً.

وإذا صدرت من الإنسان فلا بدَّ من تحديد حيثية صدورها لنعرف هل هي أمنية وحلم أو هي وصف لواقع أو هي مجرد لفظ أريد به تفريغ ما يجيش في صدر المتكلّم تجاه المتكلّم عنه.

1- شعراء سبع الدجيل لحسين البلداوي: 40؛ وسبع الدجيل لبرهان البلداوي: 34 - 38.

وإذا شاع الوصف بين الناس وبلغ حدَّ الاشـتهار والشيوع وتسليم الناس بمضمونه فالأمر يدور بين احتمالين، إما أن شيوعه بين الناس بسبب الإعلام ومسايرة بعضـهم البعض من دون رويّة أو تأمّل، وهذا يفقد اللقب والكنية اعتبارهما، أو أنَّ شيوعه وتسليم الناس به ناشئان عن درك وتصـديق بواقعية ذلك الوصف، وهذا الفرض له اعتبار كبير ويعدّ منجماً من الذكريات الثرّة ومنبعاً متدفّقاً لسـيرة الموصوف وتاريخه، وعلى هـذا السبيل تشـرق الكلمات في هـذا البحث حاكيـة عن معاني الكنى والألقاب والتي تكشف عمّا يتحلّى به صاحبها، فيتمكّن القارئ من خلالها معرفة بعض جوانب شخصية صاحب الكنية واللقب، وإليك إطلالة سريعة على سمات السيد من خلال الأسماء(1) التي عرّفته بها الأجيال والتي بقيت مناشدة لوجدانهم وماثلة في حياتهم:

1 _ سبع الدجيل:

أشهر ألقابه، ولا يعرف غيره به، فمرقده الشريف في برية قفرة تعرف بالدجيل، وقبل مئات السنين كان السائرون فيها يتزلزلون خوفاً ووجلاً من قطّاع الطرق، إلاَّ أن زوّاره كانوا يشاهدون سـبعاً ضارياً يجوب الأرض التي حول القبر الشريف ولا يدع معتدياً يدنو لزائريه، فلا ترى في ذاكرة الأجيـال أو عنـد نقـل الأحـداث أيّ ذكر لحادثـة اعتـداء في تلـك الأيـام، ولهـذا السـبع ذكر ووجود حتّى أربعينـات القرن العشـرين، قال الشاعر(2):

1- تطلق (الأسماء) ويراد بها الأعم من الكنى والألقاب وأسماء الأعلام.

2- نسبها برهان البلداوي في كتابه سبع الدجيل للشيخ محمّد حسين المظفر المولود (1312ه-).

ينام قريراً عندك الوفد إنَّه

يهاب فلا يدنو إلى ضيفك اللص

لعمرك قد خافوك حياً وميتاً

وهل قبل هذا خيف في رمسه شخص

وقد يعبَّر عنه ب- (سبع الجزيرة)، وأهالي المنطقة يكسرون الجيم، والجزيرة عندهم: أرض مقفرة.

أو ب- (أسد الدجيل) قال عبد الغني الخضري:

يا أسد الدجيل كم حسرة

تعبث بالأحشاء والترائب

وقال السيد مير علي طبيخ النجفي:

أسد أطلَّ على الدجيل فأقعصت

منه ليوث تهائم ونجاد

وهذه الأسماء مترادفات.

2 _ البعّاج:

القتّال لمن تجاوز الحدَّ على زائريه وعليه كرامة من الله عز وجل له، ويشابهه لقب البطّاش، وقد نسب السيد ضامن بن شدقم هذا اللقب إلى أحد أحفاده عند ذكره أعقاب السيد.

3 _ أبو جاسم:

المعروف عند أهل العراق وغيرهم أن من اسمه محمّد فكنيته (أبو جاسم) وهنا وجه آخر لتسميته بهذا وهو كثرة من قصم، حيث يوجد في اللفظ تحارف وظيفي ببركة لهجة العراقيين، فقصم = كصم = جسم وهذه الكنية من المشهورات في محيط مدينة بلد، وربما اشتهر القسم والحلف به.

4 _ أبو البرهان:

وقد يطلق لفظ الأب في لهجة العراق الدارجة على أصل الشيء كما هو حال لفظ الأُمّ في اللغة، فهذه الكنية تدلُّ على أنَّه راع للبرهان وأصله وقت

التحاكم إليه، وسيأتي حكاية مشهد عام لأثره في حياة الناس اليومية تحت عنوان _ وصف عام لمكانة السيد سبع الدجيل عند الأجيال _ اعتماد بعض المحاكم المحلية للقسم به في حل بعض الخلافات.

5 _ أبو الشارة:

فسّرت الشارة بالعلامة الواضحة الدالّة على سرعة استجابة الدعاء عنده، فهي مرادف قريب من الكنية المتقدّمة.

وهنا معنى آخر خلاصته: أنَّ اللفظ أصله من شوَّر به: فعل به فعلاً يستحيى منه فتشوَّر، يقال: شوَّرت الرجل وبالرجل فتشوَّر إذا خجَّلته فخجل، أي أنَّه أصل وسبب يسم المبطل بما يستحي منه. وهذا فيه جمع بين المعنيين لاسيّما وأنَّ الشارة بمعنى الحُسْن والهيأة، ويمكن إرجاعها إلى أصل الشَّوْر وهو عرض الشيء وإظهاره، فكأنَّها أُخذت منه(1).

6 _ أخو العبّاس:

آخى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بين أصحابه، واتخذ علياً أخاً له في الدنيا والآخرة، وأثبت له صفاته كلَّها ما عدا النبوة بقوله: ((أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاَّ أنه لا نبي بعدي))(2) فارتسمت معاني الأخوّة في وجدان المتديّن، فكلّما تشاكل شخصان في الخصائص والمميزات تجلَّت بينهما الأخوّة.

ولأبي الفضل _ وهو البطل الذي خط الوفاء والنبل في جبين البشرية _ مكانة سامية في القلوب ومنزلة عالية في السماء، حباه الله بكرامات تظهر فضله، فجعله باباً من أبواب رحمته، يقصده المؤمّل

1- راجع لسان العرب والقاموس المحيط.

2- الخصال: 311؛ بحار الأنوار 5: 69.

والمضـطر فتقضـى الحوائج وتحقّق الأماني، ووجد الناس السـيد سبع الدجيل عديل العبّاس في هذه السمة فسمَّوه بأخي العبّاس تثبيتاً لما حبي من الباري تبارك وتعالى.

وأمَّا لقب اليصيح بالرأس، والطفّاي، فلم أظفر بما يؤكّد شيوع استعمالهما في حق السيد.

حياته ومماته في سطور:

لم تحـدّد المصادر تاريـخ ولادته ولا مكانها، والظاهر أنَّه ولـد بالحجاز، وخلّفه أبو الحسن عليه السـلام بالحجاز طفلاً، فقـدم عليه مشـيداً، فلازم أخاه لا يفارقه على ما وصفه الكلاني في المحكي عنه.

وبالنظر إلى سنة وفاته وعمره يمكن القول بأنه ولد حوالي سنة (236هـ-) أو (238هـ-).

وقد رآهما غير واحد وهما يدخلان على أبيهما معاً حتّى أنَّ بعض أصحاب الإمام الهادي عليه السلام أشكل عليهم أمر الإمامة.

والذي يكشف عن العلاقة الوطيدة بين الإمام العسكري وبين أخيه أبي جعفر شقه ثوبه عليه حين وفاته.

حكي عن الكلاني ما نصّه: (صحبت أبا جعفر محمّد بن علي الرضا وهو حدث السن، فما رأيت أوقر ولا أزكى ولا أجلّ منه، وكان خلّفه أبو الحسن العسكري بالحجاز طفلاً فقدم عليه مشيداً، وكان ملازماً لأخيه أبي محمّد عليه السلام لا يفارقه)(1).

وفي بعض المدوّنات قول مفاده: أنَّ المهدي هو محمّد بن علي

1- حكاه عنه الشيخ محمّد جواد الطبسي في حياة الإمام العسكري عليه السلام: 69.

الهادي، وهو حي باقٍ لم يمت على ما بُثَّ في مدوّنات الفِرَق والأديان، واندثار هذا القول ـ لو كان موجوداً ـ شاهدٌ على زيفه وضلاله.

مماته:

كانت وفاته في حدود سنة (252) للهجرة(1)، وقيل: إنَّها في آخر جمادى الآخرة، والظاهر أنَّها ليست خارجة عن طرائق موت آبائه عليهم السلام فلم يكن مماته حتف الأنف إن صحَّ التعبير.

ومن المهم هنا الالتفات إلى أنَّ بني العبّاس على علم بتسلسل الإمامة، فكانوا يسعون في القضاء على الأئمّة ورجالات أهل البيت وهم بعد في ريعان الشباب، فمن المثير للاهتمام قصر أعمار أبناء الرضا عليه السلام:

فالإمام الجواد توفي وعمره بحدود (24) سنة.

والإمام الهادي توفي وعمره بحدود (40) سنة.

والإمام الحسن العسكري توفي وعمره بحدود (28) سنة.

قال الشيخ الطوسي: (إنَّ النبي والأئمّة ما ماتوا إلاَّ بالسيف أو السم وقد ذكر عن الرضا عليه السلام أنه سُم، وكذلك ولده وولد ولده)(2).

وكذا حال السيد محمّد سبع الدجيل فقد توفي وعمره بحدود (24) سنة.

وقد ذكر خبر موته دون التعرّض لكيفية الوفاة، قال في المجدي عند ذكر أبي محمّد العسكري عليه السلام: (وأخوه محمّد أبو جعفر أراد النهضة إلى الحجاز فسافر في حياة أخيه حتّى بلغ

1- أعيان الشيعة 10: 5.

2- الغيبة: 388.

بلداً وهي قرية فوق الموصل بسبعة فراسخ(1)، فمات بالسواد، فقبره هناك عليه مشهد يزار)(2).

ويروى أنَّ للإمام أبي الحسن الثالث عليه السلام صدقات ووقوفاً من ضياع وأراضٍ بمقربة من بلد، وكان الذي يتولّى أمرها ابنه أبو جعفر وفي إحدى وفداته للنظر في شؤونها فاجأه المرض واشتدَّ به الحال.

وعوداً على بدء أقول: الميل إلى القول بقتله لا أتفرَّد به، فلغيري كلمات في المقام، قال الشيخ القرشي: (... ومرض أبو جعفر مرضاً شديداً واشتدَّت به العلّة، ولا نعلم سبب مرضه، هل أنَّه سقي سماً من قبل أعدائه وحسَّاده من العبّاسيين الذين عزَّ عليهم أن يروا تعظيم الجماهير وإكبارهم إيّاه...)(3).

وقال السيد محمّد كاظم القزويني: (... لا نعلم سبب وفاة السيد محمّد في تلك السن، ونعتبر موته حتف أنفه مشكوكاً فيه؛ لأن الأعداء كانوا ينتهزون كل فرصة لقطع خط الإمامة في أهل البيت عليهم السلام فلعلَّهم لما عرفوا أن السيد محمّد هو أكبر أولاد أبيه وهو المرشح للإمامة بعد أبيه قتلوه كما قتلوا أسلافه من قبل...)(4).

قرائن تستبعد الموت الطبيعي:

1 _ صغر سنه وعنفوان شبابه؛ إذ عمره الشريف (24) سنة.

2 _ صحة بدنه وقوة جسده، فقد زار أباه وقد اشتدّ بدنه وخرج من عند

1- في أعيان الشيعة أنَّها على بعد تسعة فراسخ من سامراء 10: 5، وفيها أنَّه مرض.

2- حاشية في منتهى الآمال 2: 637.

3- عن حياة الإمام الحسن العسكري: 24 - 26.

4- عن الإمام العسكري من المهد إلى اللحد: 23.

أبيه معافىً وبعد قطع مسافة قصيرة وعلى مقربة من دار أبيه مرض واشتدَّت به العلّة، ولا خبر يذكر عن علم أهل بيته بحاله إلاّ بعد موته؟!

3 ـ انصراف وجوه الناس إلى أهل البيت وقول شطر الأمّة بإمامتهم وشيوع أنَّه الإمام بعد أبيه مع علم بني العبّاس بذلك، الأمر الذي يهدُّ كيان دولتهم وصولتهم.

4 ـ اضطراب الوضع العام في مختلف أرجاء الدولة العبّاسية سيّما منطقة الحجاز.

5 ـ كثرة حركات العلَّويين والشيعة بما أقضَّ مضجع سلاطين البلاط العبّاسي وقادته.

6 ـ ظهور جيوب في كيان الدولة العبّاسية يوالي أهل البيت ويعظِّمونهم، ويقفون سدّاً مانعاً في بعض الأحيان من إيذائهم.

وحيث إنَّ المقدم والمعروف من ولد الإمام الهادي هو أبو جعفر فاتجهت الأنظار إليه، كما سيأتي ذكره في بحث البداء أنَّ التقية لم تكن تجدي نفعاً ولا تدفع ضيراً عن ولي الله في مسألة تعيين الإمام لعلم بني العبّاس بمسالكها، وأيضاً هم يعلمون أن لا تقية في الإمامة بمعنى أنَّه ليس للإمام أن ينفي الإمامة عن نفسه ولا محيص من النصّ على خليفته، وهذا لا يتقاطع مع استعمال التقية في النصّ على الإمام بنحو يعرف الحقَّ أهله.

7 ـ الإقامة الجبرية المفروضة على أهل البيت آنذاك والتي لم يكن ليجرؤ أحد معها على الالتقاء بهم حتّى النصارى فإنهم كانوا يخشون من أعين السلطان، لاحظ قضية الطبيب النصراني لترى شدّة البلاء ووطأته وشمول الرصد لجميع وجملة رجالات أهل البيت الطاهر، وإلاَّ لتمكّن طلابهم من لقياهم، ولا أقل من تمكّن النصارى من الالتقاء

بهم حيث لا تخشاهم الدولة، وهذا الأمر ابتلي به أهل البيت من بدايات الدولة العبّاسية.

والرصد ـ بطبيعة الحال ـ يوجب اطلاع الدولة بشكل جيد على مقام سبع الدجيل بين الناس، فإذا رأت اتّجاه الأنظار إليه وإلى أبيه في معسكرهم وهو بعد في عنفوان شبابه فلا بدَّ وأن تأخذ بالشدّة كي لا تذهب ليالي السمر من أيامها.

ولاسيّما وأنهم يرون تمسُّك الشيعة بمسألة البداء ـ وهي تقتضي التغيير في النظم الكونية وعدم ثباتها القهري ـ ولعلَّهم في غفلة من عدم مساس البداء بقضية الإمامة، الأمر الذي جعل بني العبّاس قلقين من شأن الخلافة.

وببالي أنَّ دعوى موته بالسم مبثوثة في مدوَّنات التاريخ.

هذا مجمل القرائن التي تقف في صف احتمال الاغتيال.

ومقابل هذا الاحتمال هنالك احتمال آخر وهو احتمال الموت الطبيعي، وله مجموعة من التصوّرات والشواهد التي تقف إلى جنبه، ويمكن تلخيصها في أمرين:

الأوّل: علم بني العبّاس بأنَّه ليس الإمام من بعد أبيه لعدم توافره على خصائص الإمام؛ إذ لم يكن سمته سمت الأئمّة ولم يكن منطقه منطقهم وإن كان عالماً قد التفَّ الناس حوله، فلقد كان بنو العبّاس يرصدون أهل البيت في كل مكان وزمان حتّى أنَّهم عرَّضوهم للتفتيش الشخصي من أجل الاطلاع على ختم الإمامة.

الثاني: عدم تعرّضه للسجن مع أبيه وإن تعرَّض للمضايقة من قبل السلطة لكنها مضايقة بعيدة من حيث الشكل والمضمون بالنظر لما تعرَّض له أئمّة الهدى.

المحور الرابع: السيد في وجدان الأمّة وعند قادته

اشارة

المحور الرابع: السيد في وجدان الأمّة وعند قادته (1)

بانوراما سبع الدجيل:

تسري لفظة (سبع الدجيل) في عروق الناس، ويحمل استعمالها تاريخ صاحبها ومآثره ومواعظه وإرشاده وحمَّيته على الناس وأخلاقهم، فهي كلمة رأى الملأ بين جوانبها سلطة الحق ومجده وظلال الانتماء ونسائمه.

وهذه كلمة رأيتها تشير إلى تاريخ حيّ وفاعل بين ظهراني الناس فآثرت قرآءتها معك عزيزي القارئ(2):

لستُ أشكّ بأنَّك سمعت أو ستسمع الحلف ب- (سبع الدجيل) في بعض مناطق العراق كأيّ واحد من الأيمان الغليظة التي يلجأ إليها صاحب الحق لإثبات (حقه) عند خصمه، فاليمين على ضريح (سبع الدجيل) بين المتخاصمين _ مهما بلغت درجة الخصومة _ كفيلة بأن تمحو كلَّ الشبهات، وتمحق كلَّ الإحن، وتغسل القلوب من أوضار الأحقاد والكراهية بين العشائر المتخاصمة والقبائل المتعادية، فالحلف عند مرقده الشريف هو القول الفصل والحكم العدل الذي ترتضيه

1- وصف عام لمكانة سبع الدجيل عند الأجيال.

2- أخذت هذه الكلمة الواصفة لمقام وشخص السيد من كتاب سبع الدجيل للسيد موسى الموسوي الهندي: 29/ بيروت/ دار الرافدين (1427ه-)، وهي تاريخ غير مدوَّن؛ إذ كان المؤرِّخ آنذاك لا يعقل هكذا صفحات وإن مثلت بين يديه، وهي شاهد صدق على ما أدّعي في عنوان متقدّم.

الأطراف المتنازعة، حتّى أقرَّته بعض المحاكم الرسمية في تلك المناطق كحل للخصومات التي يمكن حلّها عن هذه الطريق.

وحتّى الشعراء في الأزمنة المتأخّرة _ الذين مدحوا هذا الشخص الجليل بقصائدهم وأثنوا عليه _ وصفوه بسبع الدجيل لشيوع ذلك بين العامة والخاصة.

و(محروسة سبع الدجيل) جملة تعارف عليها سائقو سيارات النقل حتّى أصبحت مألوفة لا في منطقة دجيل أو بغداد، ولكن في معظم مناطق العراق، فكتبوها على سياراتهم بحروف بارزة وملوّنة تيمّناً بها وتبرّكاً، ولتكون لهم حرزاً من طوارق الطرق وحوادث الزمان.

فمن هو هذا الأسد الضرغام الذي يهيمن عرينه على صحارى (دجيل) وبواديه لا في الآكام والآجام؟

إنَّه أبو جعفر...

ولهذا السيد الجليل من القدسية والعظمة ما بلغ به منتهى مدارج الكمال، فليس هناك أحد من المسلمين الذين يؤمُّون مرقده ويزورون مشهده إلاَّ وهو موقن بجلالة قدره ومؤمن بسمو مقامه.

وأستطيع الجزم بأنَّ قبره الشريف كان عرضة لغارات الأعراب ونهبهم وسلبهم لما فيه من نفائس وتحف لو لم يكن له في قلوبهم رغبة ورهبة برغم أنَّ معظم العشائر المتوطّنة حوالي مرقده ليست من المؤمنة بمذهب آبائه وأجداده الطاهرين(1).

1- بمعنى أنهم لا يأخذون عن آل البيت أمور دينهم، وغير ملتفتين إلى مقامهم عند الله عز وجل ومع ذلك لهم رغبة قوية بحب أهل البيت، يرونهم الملجأ الآمن والكهف الحصين، وهم كذلك، لذا ترى العالم والجاهل والمثقّف يلوذون بهم وفي قلوبهم جلالة وتعظيم لأهل بيت النبوة صلوات الله عليهم أجمعين.

من شهادات الأعلام والكتّاب في حقّ سبع الدجيل:

قال السيد محسن الأمين:

(جليل القدر عظيم الشأن كانت الشيعة تظن أنَّه الإمام بعد أبيه عليه السلام فلمّا توفي نصَّ أبوه على أخيه أبي (م ح م د) الحسن الزكي عليه السلام)(1).

وقال الشيخ عبّاس القمي:

(وأمّا السيد محمّد المكنّى بأبي جعفر فهو المعروف بجلالة القدر وعظم الشأن، وكفى في فضله قابليته وصلاحه للإمامة وكونه أكبر ولد الإمام علي الهادي عليه السلام وزعم الشيعة أنَّه الإمام بعد أبيه لكنّه توفي قبل أبيه)(2).

وحكى شيخنا القمي عن كتاب النجم الثاقب:

(ومزار السيد محمّد في ثمان فراسخ عن سر من رأى قرب قرية بلد، وهو من أجلاء السادة وصاحب كرامات متواترة حتّى عند أهل السُّنّة والأعراب، فهم يخشونه كثيراً، ولا يحلفون به يميناً كاذبة، ويجلبون النذور إلى قبره، بل يقسم الناس بحقّه في سامراء لفصل الدعاوي والشكايات، ولقد رأينا مراراً أنَّ المنكر لأموال شخص _ مثلاً _ إذا طلبوا منه القسم بأبي جعفر كان يرد المال ولا يقسم، وذلك لتجربتهم أنَّ الكاذب لو حلف به يصيبه الضرّ، ورأينا منه في أيامنا هذه كرامات باهرة ولقد عزم بعض العلماء أن يجمع تلك الكرامات ويدوّنها حتّى تصير كتاباً يحتوي على فضائله)(3).

وقال محمّد رضا سيبويه:

1- أعيان الشيعة 10: 5.

2- منتهى الآمال 2: 637، وله كلمات أخرى في جلالة شأنه وكراماته.

3- منتهى الآمال 2: 639.

(جلالته وعظم شأنه أكثر من أن يذكر، وقد ذكروا في باب النصوص على إمامة أبي (م ح م د) عليهما السلام ما ينبئ عن علوّ مقامه وترشيحه لمقام الإمامـة، وقبره مزار معروف في بلـد. والعامّـة والخاصة يعظّمون مشـهده الشـريف، ويقطعون خصوماتهم التي تقع بينهم بالحلف به والحضور في مشهده، ويعبّرون عنه ب- (سبع الدجيل) ويقومون إليه بالنذورات الكثيرة عندما تقضى حوائجهم)(1).

وقال محمّد رضا عبّاس الدبّاغ:

(وكان فقيهاً عالماً عابـداً زكياً، أراد النهضة إلى الحجاز فسافر في حياة أخيه حتّى بلغ (بلد).. فمات بالسواد، فدفن هناك، وعليه مشـهد، وهو الذي يعرف ب- (السيد) و(سبع الدجيل))(2).

واقع مقام السيد وشأنه:

بين بغـداد وسامراء تقع (بلـد)، وبين الجوادين والنقيين يرقدُ سـيدٌ دنا من مرتبة الإمامة وكاد أن يصل إلى مقامها؛ وهو ذلك المقام الذي لم يصل إليه الكثير ممن فضَّل الله عز وجل واجتبى، مقامٌ لم ينحّه عنه ظلم، ولم يقف دونه سوى القـدر الذي لا مردَّ له، ولم يقيله عن الإمامة قصور في سيرته أو تقصير من همّته، لكنه وعاء.. دون أمر الله، وأيضاً الإمامة وعاء لا يُوضع فيه أحدٌ دون أمر الله، وما كان لمؤمنٍ الخيرة في ذلك.

إنَّه سيّدٌ تميَّز بين أهل بيته _ ممن بدا لله عز وجل فيهم _ بشيءٍ لم

1- لمحات من حياة الإمام الهادي عليه السلام/ محمّد رضا سيبويه/ نشر مجمع البحوث الإسلاميّة. مشهد/ إيران.
2- محكي عن عمدة الطالب هامش 199 عن المجدي.

يكن له فيه مطمع، حيث تطاولت إليه الأعناق بالإمامة من بعد أبيه عليه السلام ولم يكن صيت تقلّده الإمامة يقف عند مستوى الاعتقاد والظن، بل تجاوز ذلك إلى دعوى تهمس الشفاه بها وتدلُّ عليه، فمنَّ الله عليه بأن لم يجعله مثار اختلافٍ بين المؤمنين، بل كشف الحق وأظهر رفيع مقامه وسمو رتبته، فالبداء أزاح الغطاء عن مقامين: مقام الإمامة حيث تبيّن لمن تكون الإمامة، ومقام سبع الدجيل؛ إذ أنَّه بمحل رأى فيه المؤمنون أهلية الإمامة ورأى أعداء الله فيه ذلك، فكانوا ناظرين إليه، حائمين حوله، ذاهلين عمّن سواه، فكان به حفظ الإمام وحفظ الدين(1) كل ذلك بما لابسه من أمر الإمامة.

وكي يُظْفَر ببعض جوانب عظمة هذا الفتى لا بدَّ من كلمات مستندة إلى مسألة الإمامة ومسألة البداء علَّه يتّضح في طيَّات البحث نبأ عن هذا السيد الجليل.

ولك القول: إنَّ الهبات الربانية أعطت السيد أبا جعفر ما فتح له أبواب القرب من المراتب العلى التي لا يقترب من سوحها إلاَّ النادر من المُخْلَصِين، فنال من شرفها مكانة غير متشابهة، وقد صُيّر بمكانة أخيه الإمام الحسن العسكري عليه السلام في أعين المؤمنين، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

1- قد يشعر بذلك خبر دسّ السم إليه وهو في ريعان شبابه ومعاجلته بمجرد خروجه عن سامراء.

المحور الخامس: كرامات سبع الدجيل

اشارة

قال المحدّث القمي: (مزار مشهور هناك، مطاف للفريقين، وتجبى إليه النذور والهدايا، وله ما لا يحصى كثرة من الكرامات وخوارق العادات...) وإحدى كراماته سبَّبت خطَّ هذه الأسطر عن حياته، ولقد سمعت الكثير كما سمع غيري عن كراماته، وشاهد أهل بلد منها ما صيَّر الأمر كالشمس في رابعة النهار، ومن تلك الأحداث دفع الضرّ والبلاء عن المستجيرين به من دون تفريق بين معتنق الحق القائل بإمامة أهل البيت عليهم السلام وبين منكرها، فالكل لديه ضيوف وجيران لهم حق الضيافة والجوار، فكم من كرامة أعادت الضالَّ إلى رشده، وتركت الظالم يعضُّ على يديه، وكم من كرامة جعلت الموالي فرحاً جذلاً بما نال من مراد وممّا رأى من تحف الكرامة لأولياء الله تبارك وتعالى.

وبين يديَّ الكثير من القصص الحق التي تنبئ عن سموّ ورفعة السيد، منها ما سمعته من ذي العلاقة بلا واسطة، ومنها ما نقله الثقة الثبت، وهي هبات لمحبٍ تارة، ولمجاور تارة أخرى، ولمستجير ثالثة، ومن بينها قضية لرجل أرمني قضى شطراً من حياته في مدينة (بلد) اسمه (سيمون) أصابه الفلج، ولم يكن يملك شيئاً من متاع الدنيا، وقد عجز من حوله من أطباء وأقرباء عن مدّ يد العون له، وفي عصر يوم، وهو جالس أمام مسكنه كان يرقب قبّة سبع الدجيل فتمتم بآهات اللوعة التي أثارت

دموع عينه وصارت نظراته تحمل الرجاء والأمل صوب الحرم الشـريف، فما ارتـدَّ إليه طرفه إلاّ بسـلامةِ البدن، فقفز فرحاً وتعجَّب من حوله والمارة، فسعى إليه أهله قائلين: ما بك يا سيمون؟!.

فأجابهم بكلماته المندهشة ودموع الفرح تعرب عن امتنانه وهو يلوّح نحو القبّة الشريفة.

فببركة هذه البقعة المباركة تلاشى الضرّ والبلاء، ولا أدري اهتدى أم بقي على سابق معتقده.

وسوى هـذه القضـية الكثير... الكثير من الكرامات التي تتناقلها الأجيال، وقـد اتّفقت كلمـة النقلة من بلدان ودول مختلفة أن لا أحد يجرؤ على خلسة أو سـرقة في محضره، ومن كثرة ما ينذر له من ذبائح يوجد في الصحن الشريف زاوية خاصة لذبح الذبائح التي يوزَّع لحمها على زوّاره والفقراء، ويصل ما يذبح إلى عشـر ذبائح يومياً، وآثرت عدم ذكر كل ما سمعت، وأن لا أذكر إلاَّ ما هو مثبت في الكتب لأمر يعرفه من زاول روايات الفضائل، وكابد رواتها ومستمعيها المحبّ منهم، والمبغض ومن هذه الكرامات(1):

الأولى: تبرئة امرأة من التهمة:

اشارة

عن العلامة الكبير السيد إسماعيل البهبهاني أنَّه قال:

كنت مع جماعـة من أصـدقائي عنـد مرقد السـيد محمّد عليه السـلام جالسـين قبال بعض الحجرات المقابلة للروضة البهية، فإذا بامرأة من الأعراب، صارخـة، باكيـة، تركض بشـدّة، ومن ورائهـا إخوتها، ومعهم الخناجر، يريـدون قتلها، فسألنا عن الخبر؟! قيل لنا: إنَّ هـذه المرأة الصارخة، اتهمتها زوجة أخيها، بأنَّها تراود فتى

1- النصوص مذكورة في كتاب مآثر الكبراء في تاريخ سامراء 2: 321.

من فتيان الحي، وقالت: والشاهد لذلك أنّي غسلت منديل أخيها، من الإبريسم له قيمة، وعلّقته على خشبة لا يمرُّ عليها أحد إلاّ هذه المرأة، فهي أخذته وأعطته لمن تراوده، ومن عادة العرب أنَّه إذا علم أحد بفساد أخته أو ابنته يقتلها لا محالة.

فدخلت المرأة، وأخذت الشباك بأنين وبكاء يصدع القلوب، وتقول: يا سيدي يا سبع الدجيل، أنت أعلم بحالي وبرائتي من هذه التهمة.

قال: فبينما نحن متألّمون، من حال المرأة، فإذا بثور يعدو بشدّة، ودخل الصحن الشريف، فجاء قبال البهو وراث، فسقط في خلال روثه المنديل، فلمّا رأوا ذلك إخوة المرأة فرحوا بذلك، وعلموا أنَّ أختهم مصونة من هذه التهمة، وكانت المكيدة من زوجة الأخ، والمنديل ابتلعه الثور فسقط منه ببركة مولانا السيد محمّد عليه السلام.

أنَّة الشرف:

يرى الكرامة من يؤمن، ويعمى عنها الفاسق، ولا يذهب بك الوهم إلى كلمة النصارى آمن لتعقل، بل العكس هو الصحيح فأعقل لتؤمن.

نعم هنالك أشياء لا تكون إلاَّ بعد الإيمان، إذ بناؤها أساسه الإيمان ولا يسع البحث الغور بها.

والآيات التي يصاحب دركها الإيمان وتنتج عنه ليست ملغية للعقل ولا مشكّكة لمحتواه، وإنَّما هي نسمة ينتعش بها الحبُّ وينشط بها العقل، فهذه إطلالة سماوية لحظها اللاحظ ـ وهو في رواقٍ عند سبع الدجيل ـ قبال جوهرةٍ جنانيةٍ، فتعال معي نعاين المعاني والكلمات لحظة بلحظة، وبدء سرد الكرامة:

أنَّ امرأة عاشت مع فطرتها، تحكَّم في عيشـها طباع البـدو!!! وهي طبايع لها هيمنـة مشـبوبة برائحة الفطرة التي فطرت عليها... تلك المرأة ـ وهي الرحمـة المساقـة لأبيها والمجاورة لإخوتها ـ عَدَتْ تستصـرخ ملجأها الذي تألف، وتطرق شـرفها الذي لا تجرأ على تكذيبه الظنون، ومن خلفها خناجر الغضب المسـتنفر، تسوقها غيرة مؤجَّجـة بكيـد النساء وهنَّ يرمن إذكاء أو دفع غائلـة الرجل، وقـد أخـذها(1) الحمس والحميَّة كما تدّعيه قريش إبان بعثة النبي صـلى الله عليه وآله وكأن لم يتغيَّر شـيء من ذهن الأعراب، وإن تعجب فعجب وقوف الدين على باب قلوبهم مئات السـنين ينتظر لفتـة يبعث بها النور إلى تلك القلوب المتصـحّرة، ولولا الإحسان والفيض النابع من المراقـد المقدّسة لما أدركت تلك العقول نوراً سماوياً، ولما شمَّت تلك القلوب رائحة الود.

فقد يسمع الإنسان أنَّةَ مظلوم تحرق قلبه أو تصدّع نفسه لكنَّها تبقى أنَّةً عابرة تأخذ مجالها وتنتقل إلى صفحات الذكرى.

وقد يسـمع أنَّة تقف في وجدانه.. تُفَتت صمت النسيان ولا يغيب دمعها عن العقل، ككلمات عليٍ عليه السلام أو كمناجاته لربّه التي تذوّب الدرن وتجلو القلوب كما تجلّي الحقائق.

تلك الماثلة في وجدانك هي أنّة المرأة وهي تنافح عن عفتها ورَوح عشيرها.

تقول:

أين ستري وهاؤم يدنّسون عبائتي؟!

1- الخناجر.

أين لبّي الذي يدرك لوعتي؟!

وكيف بي إن تقاصرت فزاعات الكرام عن نجدتي؟!...

هيمنت الأنّة.. على مجامع الزوّار.. وكلّما توحَّش البغي كلّما قرب فرج المظلوم، وأنَّة الشرف تهزُّ وجدان الشريف ولو كان بين أطباق الثرى، وهو لا شأن له ولا قرى، فكيف بمن كان من سادات الورى، وبينما تزّفها الأنّة نحو الرحمة الإلهية إذ وقعت في ظلالها لائذةً عائذة بمن يعلم مخلص ورطتها ويملك سبيل عزّتها...

سيدي.. أولئك الأعراب رأوا أنوار منزلتك، تراهم مقبلين... حمَّشهم الشيطان فنسوا أنَّك اللجأ... والملاذ... وهذا أنين الفطرة يستبقيك من عقولٍ لا تفهم لغة الحياة ولا تدرك للتفكير معنى... فإذا بثور يعدو تقوده الأرض وتسوقه السماء حتّى قرب قبال البهو وراث فسقط في خلال روثه علامة البراءة ودلائل الحق وآية الصدق ((بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ))(1).

الثانية: شفاء امرأة مفلوجة خرساء:

اشارة

عن العلامة الميرزا هادي قال: أخبرني عبد الصاحب _ وكان من أوثق سدنة روضة السيد محمّد _ قال:كانت في بلد امرأة شابة معقود عليها، فعرضها فلج فصارت مفلوجة خرساء، وشاع خبرها في تمام بلد، فجاءوا بها إلى الروضة البهية وأدخلوها وأغلقوا الأبواب عليها، فلمّا مضى من الليل نصفه فإذا بالمرأة تصرخ في وسط الصحن المطهَّر سالمة

1- العنكبوت: 49.

ناطقـة، فهجم عليها الناس من كل جانب وسألوها عن القصـة، وقال بعض السدنة: أنا أغلقت الأبواب ومفاتيحها عندي فكيف خرجت من الحرم؟

قالت: رأيت شـخصاً جليلاً ضرب برجله عليَّ وقال: قومي ليس عليك شيء، فخرجت من الروضة سالمة، وشاع الخبر في بلد وعرفها كل برّ وفاجر.

شرف الخدمة:

هناك من يتشرَّف بخدمة الأولياء كما الأولياء يُشرَّفون بالقرب والعبادة لله عز وجل(1)، فمن الخَدَمَة من يقوم بحقِّها، ومنهم من ينكص على عقبيه، لاحـظ خـدم رسول الله صـلى الله عليه وآله تجـد أنَّ منهم من كان إلباً على رسول الله صـلى الله عليه وآله ومنهم من فـداه بروحه، وقارن بين خدمة قنبر رضوان الله عليه لأمير المؤمنين عليه السـلام حتّى نال الشهادة وسامَ ختم وبدء، وبين خدمة أنس بن مالك لرسول الله صلى الله عليه وآله، فالأوّل تفانى في الخدمة حتّى بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام والثاني توانى عن الخدمة في حياة النبي وبمرأى منه صلى الله عليه وآله(2).

1- فخر سادات الخلق يكمن في عبوديتهم للباري تبارك وتعالى لاحظ قصة مريم ونذر امرأة عمران وتذكّر قول أمير المؤمنين عليه السلام: ((كفاني فخراً أنَّك ربّي وكفاني عزّاً أنّي عبدك)).

2- مـا فعله أنس ممضٌّ وشديـد، ففي حياة رسول الله صـلى الله عليه وآله يرد من يحب الله ورسوله، رجاء أمنيات، وعلاوة على ذلك كان هواه مع زمر النفاق، وبعـد زمن من رحلـة النبي الأكرم صـلى الله عليه وآله يتنكّر لنبيه ويخفي حـديثه. حتّى علاه برص لا تواريه العمامـة. ويسئل أنس عن ذلك.. فيقول: لحقتني دعوة العبد الصالح علي بن أبي طالب عليهما السلام. يبكي فيقال له: أنت صحابي وممن رأى رسول الله صلى الله عليه وآله فمم بكاؤك؟! فيقول: لا تدرون ما أحدثنا بعده؟! لمعرفة المزيد عن حال أنس راجع: الغدير للعلامة الأميني.

ومن هـذه الأمثلة ترى أنَّ مكانة الخدم تعطيهم القدرة على الاسـتفادة من موقعيَّة مخدومهم، فكم خادم نال الدرجات العلى بخدمته، وكم منهم من حلَّ به وبال عمله(1).

إذن مِن الخَدَمَة من يحبى بآثار الصحبة، ومنهم من يحرم من نعمها التي تجب لذي الحق، ومنهم من ينشر ما يرى إقامة لسنن الحق ودلالةً على طرق الهداية، ومنهم من لا يبلغ حظّه نيل شـرف شهود الكرامة(2) فضـلاً عن تبليغها للناس، فذا قعد به حظه وتقاعست به عن الرفعة همَّته، وذاك حالفه التوفيق وقوَّمه التسديـد فأصـبح قنطرة للحق والحقيقة وجسـراً بين الطالب والمطلوب، جسـراً مصوغاً من الخُلُق والمحبة وهما وجها التديّن والدين.

ولا يتوهَّم متوهّم: أنَّه إذا كان أثر الخدم شديداً فلماذا قبل الرسول أن يخدمه منافق، ولماذا تزوَّج بمن لا يأمنها على دينه الذي جاء به؟ وهلاّ اقتدى بصنع ربه حيث لم يجعل ولياً له دون دين وخلق وأمانة؟!

لأنَّ النبي بُعث رحمة للعالمين، وسالكاً في تبليغه للرسالة سبيل العقلاء، ومن الحكمة تمكين المكلَّف من القرب من منبع الرسالة كي

1- خـدم الملوك والحكّـام أوضـح الأمثلـة على مـا أقول لكن مصبُّ البحث عن أوليـاء الباري فلـذا أعرضت عن ذكر أمثلـة من غير وادي الموضوع.

2- قد يرى الكافر ومن دونه كرامة أولياء الله، لكنها - لكفره أو لقلَّة يقينه - تكون حجّة عليه، أو مؤثّرة في يقينه بشـكل ما، وهكذا راءٍ ليسـت له أيّـة صـلة مؤنسـة بها، إذ ليست الكرامة لمن يتبَّع حتّى يشـعر بفخر، بل قد يمتلئ غيظاً، أو تذهب نفسه حسـرة مما يرى، وأما المؤمن فإن شُرّف برؤيـة الكرامـة، فإنَّ فخر الانتماء وعزة الإيمان، يظهران بين جوانبه، فالكرامة وإن لم تكن له، لكن لها مساس به؛ إذ هي كرامة من إليه ينتمي، فهي ملابسة له، تنعش يقينه، وتقي نفسه وهج الحرمان، فشرف الشهود لمن أقرَّ، وذلُّ الإلزام لمن جحد.

يرى بنفسه دلائل النبوة، فيـذهب عنه سوءة الفكر ووسوسـة الشـيطان، فيؤمن بمحض إرادته أو يكفر بمحض اختياره، إذ لا إكراه في الـدين، وهو بـذلك يتحمّل نتيجـة عمله؛ إذ أنَّه تمكَّن من معاينة الحق واختار، إذن من الرحمة واللطف الإلهي التعامل مع مرضـى القلوب والقرب منهم علَّهم يفيقون مما هم فيه، هذه بعض الدواعي لاتخاذ خدم فيهم حسـيكة النفاق ومن ذلك تتّضح بعض الأسـباب في اتخاذ زوج غير مأمونـة، على أنَّ في المرأة من الصـفات الصالحـة والطالحة ما تتطلَّب الحكمة ترشـيده ليتّضح الحسن أو يقلّ السوء، وفي قراءة قصة المرأة المفلوجة ما يفيد.

أمّا صـنع الباري تبارك وتعالى فليس في طريقـة العقلاء ما يضادُّه لأنَّ الولي المُتَّخَذ يحكي اتخاذ الربّ وحكمته، والولي بقربه يكون محل تجلّي آثار الـدين والتـديّن، فلا يعقل أن يكون مرآة لآثار الدين وفضائل الأخلاق وهو خلو منها، بينما العقلاء في اتخاذهم للخدم والموالي لا يجعلونهم محطَّ آثار قربهم، وإن رأى العرف أنَّ لهم مكانـة خاصـة لشـرف الخدمـة، لكن هذه المكانة غير منظورة عند العقلاء، لذا ترى الحكمـاء من الناس يشـدّدون على المنتمي بدرجـة انتمائه ((يا شـقراني إنَّ الحسن من كلّ أحـد حسن وإنَّه منك أحسن لمكانك منّا، وإنَّ القبيح من كلّ أحد قبيح وإنَّه منك أقبح لمكانك منّا))(1) وهذا القدر كافٍ في معرفة مكانة الخدم والنساء وعظيم خطرهنَّ بحسب خطر من يقترنون به.

مكنون الحدث:

منذ قليل اتّضح أنَّ المصاحب اللصيق يَسْعَد ويُسْعَد به إذا وجدت نفسه وجهي التديّن والدين: الخُلُق والمحبة، إذ هما قوامان إن وجدا في

1- بحار الأنوار 47: 349.

امرأة وجـدت السـعادة بقربها، وإن فقـد إحـداهما فلك أن ترى في المرأة تجلّيات العـذاب الأدنى، تلك هي المرأة تطلع في الـدنيا رحمةً، وتترعرع نسـمةً، وتحلم بليلة دخولها عالما تكون فيه وعاء الإمكان الذي يمخض عن خَلقٍ له أُنزلت الملائكة وبه تربَّصت الشياطين، فإمّا أن تكون مكمن العابـد الزاهـد، أو مخبأ الكائن المتمرّد، وبينهما صور مختزلة ومراتب ليس المقام مقام ذكرها، ولعلَّ صون المرأة عن تطلُّعات الرجال من أجل خطر عطائها وسـلامة ودائعها، ولعلَّه سرّ توصيفها بالرحمة والعناية بشأنها ولعلَّك تدرك كم هي مالكة للقلوب، والقول بأنَّ وجودها رَوح عالم الـدنيا قـد يجاوز المبالغـة وليس منها، فكل عارضٍ يلمُّ بها يزلزل حلمها وقـد يكفئ وعاءها، فكأنَّ ما ألمَّ بها ألمَّ بالدنيا، هـذا حال الشابـة وهي على مشارف ليلـة زفافها، فإذا خرست وفلجت ـ لولا الدين ووجهه ـ يصـبح حلمها عذاباً، ويكفي غبار الفطرة كي يزيل يأسـها أو ومضة من بارقة الحق وأهله، فالشـيطان وإن حاول غمسـها في حباله وشباكه بما أصابها لكن لجأها بليلة تحكي ستر السماء وهي تئنُّ أنّةً حيرى تذكّر بليلة حلمها، وتوسلها برَوح الأولياء والأبواب موصدة أماط عنها أمنيات الشيطان وشماتة الأعداء.

حبست نفسـها في بيت أذن الله أن يرفع ويـذكر فيه اسـمه تنتظر لحظة الفرج، تلك اللحظة التي يبدأ رَوح اللقاء بالانتشار في أرجاء الأرض كي يلاقي أهله ـ وأهله من تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربَّهم خوفاً وطمعاً ـ وإذا نطقت المرأة بعد خرسـها ونهضت بعد قعودها سالمة معافاة قد أبدلت قواها التي وهنت بقوى شعَّت من جوهرة جنانية مطهّرة سالمة ناطقة بآيات ربّها فهجم عليها الناس من كل جانب.

تُرى إذا ساجل النور ظلمة أيبقى البصـرٌ ساكناً أو يبتعد؟! والسؤال عن حدقة البصـيرة التي تنفد من خلاله.. نحو الحق والحقيقة، سألوها عن القصة.. وكيف خرجت.. والأبواب موصدة؟!

أوَ يبتعـد الجـواب عن البهو المقـدَّس.. أوَ يمتلـك أقفـال القـدر سوى وسـيلة جعلهـا الله من مهبـط رحمته ومظهر قـدرته وآيـاته ولو كره المشركون؟!

الثالثة: داء الاستسقاء :

اشارة

الثالثة: داء الاستسقاء(1):

قال: رأيت بعيني أنَّ الأسـتاذ محمود المعمار الكاظمي كانت له زوجـة صالحـة ابتلت بمرض الاستسـقاء، وعجز الأطباء عن معالجتها في الكـاظمين ويئسوا عن العلاـج، وأشـرفت المرأة على الهلاـك، ولم تتمكّن على القعود أصـلاً، وصـارت كالقربـة المنفوخـة، فوضـعوها في المحمل وجيء بها إلى الروضـة البهيـة للسـيد محمّـد سـلام الله عليه، فلم تنقض الأيام والليالي إلاَّ وبرئت من ذلك المرض المزمن بغير دواء.

هلع الماء:

تصوَّر أنَّك تفقد دركك للأشياء؛ هي حولك تعلم بها وتشعر بوجودها(2) ولكن لا تـدركها بأكثر من تصوُّرك لها، أو لا يلائمها وجودك، أو لا تلتئم معك هويتها، تطلبها وتجدها قريبة بعيدة عنك، كشبح يتخفَّى بين ضفائر الضياء أو أطباق الظلام، أو كنور القمر يساجل سيلَ ظلام متهرئ، ذلك الداء الذي يعجز

1- الاستسقاء: ماء أصفر يكون بالبطن، راجع: مادة سقي في لسان العرب.

2- والدرك شيء يقرب من العلم فقد تعلم بالشيء ولكن درك جوهره شيء آخر تماماً.

عنه أرباب الطبابـة وسدنـة البـدن، وكم هو صـعب أن تمـدَّ يدك للحياة وتلمس أناملها ويجلّلك التصديق بها وأنت لاهث مجهد من داء لا تـدرك.. معه لون المـاء ولاـ تعلم أفي شـربك الماء نجاتك أم الإمساك عنه حياتك.. وأنت حائر لا تسـتطيع التفاعل مع الماء الـذي به قوام الكائن بل هو الروح السارية في التراب.

حقاً أنَّها حيرة الحياة، وقد قيل: الماء أعزُّ مفقود وأهون موجود، وعن سادات العلم والمعرفة أنَّ طعم الماء هو طعم الحياة.

هـذا وصف داءٍ ألمَّ بصالحة يعدل وجودها وجود عوالم كثيرة وتفوق قيمتها قيمة آلاف الرجال، اسـتوحشت هذه المرأة من انكماش حياتها فسارعت نحو سـبع الدجيل، ذلك المَنْجَى الذي يعلم أنَّ الحيرة أمام الماء أمر لا يحتمل، ولا حيلة ترتجى عند إنسان الأرض، وبتوأدٍ استلَّ منها الـداء علَّها تقنع بالشـفاء، فلقـد عاشت أياماً أفقدتها استيعاب الفُجْأة، أو أنَّ للماء خصوصـية لا يروّى الظامئ اللهفان دفعة واحدة إبقاءً لنفسه.. وكأنَّ صـفرة الماء بقايا هلعه حينما شـرد من كربلاء، ماءٌ لم يحتمل أنَّهُ الحسـين فجاء لهـذه الصالحـة ناعياً: إنّي تركت حسـيناً وقد تفتَّتت كبـده من الظمأ، ولا أظنُّ كائناً شـيعياً يعيش لحظـة مع الماء ولا يذكر كربلاء، فللّه قلب الحسـين عليه السـلام وصبره كيف احتمل الظمأ وبين يديه المنهل العذب.

الرابعة: كرامة والبنت من كربلاء:

اشارة

قال دام وجوده: رأيت بعيني حين كنت عند روضة السـيد محمّد عليه السلام وكنت مشتغلاً بعمارة الصحن الشريف أنَّ بنتاً من أهل كربلاء دخلت الصـحن الشـريف ومعها أقربائها وأُمّها وأبوها، وكانت في صـرع شديد تشـقّق ثيابها، وأُمُّها من ورائها تصرخ صرخة الوالهة الثكلى، وكان أبوها لازماً خمارها لئلاّ تبدو

معاصـمها. قـال: فلمّـا رأيت ذلك تغيَّر حالي وجرت دمعتي، فخاطبت السـيد محمّـد وقلت: يا سـيدي، بعيـد عن كرمك وأفضالك الجم وإنعامك العام أن ترد هذه المرأة المسكينة خائبة، فأدخلوها الروضة البهية، فلمّا أصبحنا رأينا البنت سالمة ليس لها أثر أصلاً.

فعل الحكيم ونخوة الكريم:

تغلب الدهشة ويأخذ الاسـتغراب قارئ هذه القضية كما تأخذه الوحشة من الحادثة السابقة، إذ كيف التجأ هؤلاء المحبون إلى بلد وهم في فناء كربلاء محطِّ الآمال وملجأ العمَّال؟! وكيف ذهب أهل المرأة الصالحة إلى بلد وهم بجوار باب الحوائج الإمام موسـى بن جعفر عليهما السلام وباب المراد محمّد بن علي الجواد عليهما السلام؟! أترى يئسوا من الفرج وهم بين ثرى كربلاء وفي ظلال القبّة التي يستجاب تحتها الدعاء؟! أوَلم يسمع باب الحوائج حاجها؟! أم هنالك سرٌّ دعاهم إلى طرق باب آخر من أبواب الرحمة؟

لا ـ شـكّ أنَّ محـطَّ الرحمـة الإلهيـة بكربلاء، ولا ريب في تجلي اللطف الإلهي بباب الحوائـج، ولا ضـير في التطواف بين نسـمات الفيض الرباني، فقد يحيل الغنيُّ المحتاج إلى مورد إكراماً للمحال عليه، وتنبيهاً إلى مقامه، وقد تركن وتشـتاق نفس في ما ألمَّ بها إلى نسـمة تحكي الصدى إذا ما أبعدتها عن المنهل عثرتها، فكوكبة من الأهل والأقرباء تشيِّع والهةً ثكلى، و دموعٌ مؤمنةٌ تستقبل مفجوعةً بريحانةٍ سماويةٍ يكاد سترها أن ينهتك، وهمسٌ يطرق أبواب الكرام طرق المستجير، كل أولئك تظاهروا أمام باب الفضل والجود أتراهم يخيبون؟!

أيحسن ردُّ جيران الشهيد وقد أهمَّهم أمرٌ همّاً ينمُّ عن تجذّر أصيل لمظاهر العفة ومحاسن الغيرة؟!

أوَ يقدم الكريم على سحق بشائر الرحمة وهو يراها تهمل من عيون أهل المعرفة؟! أوَ يحجم ذو الفضل والدين عن إنقاذ أنفسٍ أخزت الشيطان باستجارتها وأطاعت ربَّها باتخاذها الوسيلة إلى الله عز وجل وشارك المؤمنون في مصائبهم وسارعوا في عونهم والدعاء لهم؟!

لا ـ يكون من ذوي النعم إلاّ ـ الحسن الجميل، ولا ـ يجمل بهم إلاّ ـ الإحسان والكرم، فلمّا دخلوا الروضة البهية أصبحوا فرحين بما نالوا مستبشرين بما وهبوا من سلامة البنت وإكرام الوفد وكرامة الرب.

الخامسة: قضاء حاجة مهمّة:

اشارة

قال دام وجوده: أخبرني السيد الجليل العابد المتهجّد الحاج ساعد السلطان الطهراني، قال: كانت لي بنت زوَّجتها لبعض أقاربها، فبقيت منذ عشر سنين عاقراً لم تلد، فحزنت أُمّها حزناً شديداً بعد أن يئست عن المعالجة، فجئنا بها إلى السيد محمّد عليه السلام ونذرت لله إن حملت وولدت أبعث أربعين روبية إلى السيد محمّد لتصرف في العمارة، فقضى الله حاجتها سريعاً ببركة مولانا أبي جعفر السيد محمّد عليه السلام فحملت وولدت. قال: فبعثت بالمبلغ فجعلناه في مصارف العمارة.

تجديد معنى الحياة:

الولد اشراقة الرجل المتجدّدة، ووجدان المرأة الذي تبحث عنه، فقلب الأُمومة إيقاعٌ ينبض من بدء التكوين رحمة وشوقاً لجنين يُظهِر تجلّيات الجنّة في عالمنا، وحينما يستحوذ اليأس وينقطع الرجاء من الظفر بنسمة رحمانية أو

نعمة سماوية يفقد الرجال قرارهم، وتذبل النساء حيث لا يروّي ظمأهنَّ الدنيا و ما فيها، ولو ترى حزن النساء جرَّاء الحرمان من الولد لتلاشى صبرك أمام انقطاع الأمل والرجاء، تُرى أيسطيع رجل التجمُّل أمام مرآته وهو يقف على مشارف النهاية لذريته، أيستطيع أن يمسك أنفاسه عن اللهث وراء وجوده الذي يكاد أن يذهب نسياً منسياً، هنا لا مجال لتصوَّر الصمت، ولا معنى لكلمة اليأس، فقد تنقطع كل السبل أمامنا ولكن يبقى لنا شعاع أملٍ ينبض بوجداننا، منه ندرك أنَّ هناك من لديه القدرة على هبة الحياة، وله القدرة على مطّها ومدّها ونشعر بأنَّ بين أيدينا وسيلة تمكّننا من نيل الأمنيات، بل وتهب لنا ظلاً تستريح فيه آمالنا التي لم تولد بعد.

هذا لسان العبد الذي انقطعت به السفينة حيث لا منجى ولا ملجى غير الباري تبارك وتعالى، فكيف يكون لسان العابد الذي لم يقنط من رحمة ربّه، ولم يجفَّ لسانه من ذكره وعبادته، ولم تخل لياليه وأيامه من مناجاته ودعائه، يتضرّع إليه بأحبّ الخلق إليه، ويتنوق في طلباته، ويسأل ربَّه مِلَحَ الدنيا وأطايب الآخرة، ويتذلَّل في خشوع، ويتدلّل في الأمنيات، يقدّم القرابين، ويعقد النذر من أجل دفع غوائل الشيطان أو من أجل نيل لطائف السلطان، وبنذر يظهر به مقام الشفاعة والوسيلة وترفع به الشعائر، حلَّت الألطاف الإلهية بساحة بيته فقرَّ واستقرَّ، إذ تجلَّت الرحمة الإلهية ببركة السيد محمّد عليه السلام.

السادسة: شفاء امرأة من سنقر:

اشارة

قال: أخبرني العلامة الخبير الشيخ محمّد علي الحائري السنقري صاحب التصانيف الجيّدة، في الثاني عشر من شهر جمادى الثانية من سنة (1361ه-) في منزلي بسامراء قال: إنّي لما كنت في بلدة سنقر مشتغلاً

بالوظائف الشرعية رأيت في مدّة إقامتي بها أنَّ ولد إمام الجمعة اشتغل بالتجارة، وكان اسمه حاجي سيد آقا، ولأجل معاملته مع الأجانب والفجَّار انحرف عن دين الإسلام والمجالسة مؤثّرة، وصار لا يعتني بالشرع ولا بأهله، وكنت منقطعاً عنه لأجل هذا، فاتفق أنّي سافرت إلى زيارة العتبات المقدّسة فرأيته في الكاظمين عليهما السلام، فقلت له: ما أنت وذاك؟ جنابك لا تعتقد الزيارة ولا تعتني بأمثال ذلك؟!

فقال لي: كان الأمر على ما وصفت، وما جئت للزيارة، وإنّما جئت لأمر دهمني، وهو أنَّ زوجتي حدث في رحمها ما عجز الأطباء عن معالجتها، وما تركت طبيباً لا في همدان ولا في كرمانشاهان إلاَّ وعالجتها عنده... واتّفقت كلمتهم على مباشرتها عند أطباء سوريا، وإنّي عازم إلى سوريا وما أدري ما يصير إليه مآل أمري هذا.

قال: فاختلج في صدري كأنّي أُلهمت بذلك فقلت له: اسمع منّي ما أقول لك، إنَّ سفرك هذا فيه نصب وتعب شديد، وما تدري هل تنال مقصدك أم لا، فأرى أنَّك تسافر إلى مرقد السيد محمّد عليه السلام وتوسَّل به، فأرجو أن لا ترجع إلاَّ مقضيَّ المرام.

فقال: السيد محمّد من هو؟ فعرَّفته مقامه وفضله، فوقع في قلبه ما قلت له، وكنت مضطرباً مما ذكرت له وقلت في نفسي: لعلَّ المصلحة الإلهية تقتضي خلاف ما ذكرت له، فسافر إلى مرقد السيد محمّد، وأنا رجعت إلى سنقر، فلم تنقض الأيام والليالي إلاَّ ورجع مع عياله فرحاً مسروراً، فسألته عن القصة فقال: بحمد الله رجعنا عن مرقد السيد محمّد بعدما توسَّلنا به وقد شفى الله زوجتي بعد أن كنت آيساً عن المعالجة.

قال: فحملت المرأة وولدت ذكراً سوياً، وجاء بالطفل وأنا رأيته،

وقال: هذا من كرامة سيدنا أبي جعفر السيد محمّد، فهداه الله فصار من المؤمنين المخلصين لولاء أهل بيت العصمة سلام الله عليهم.

يحفظ المرء في ولده:

أرسل الله عز وجل نبياً من أنبيائه و رسولاً من أولي العزم في حفظ كنز ليتيمين من أجل صلاح أبويهما، وهناك روايات مضمونها أنَّ من أراد أن يحفظه الله في ولده وولد ولده إلى سبعة أبطن فليتّق الله، فكيف يكون حال من يحمي أهل الدين ويحمل لواء الدعوة إلى الله ويكابد مردة الجن والإنس من أجل الذود عن يتامى آل محمّد، يسوقه إلى ذلك كلمات ربّانية وحقائق إلهية، فعلماء الشيعة وأمثالهم مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس وعفاريته، يمنعونهم عن الخروج على ضعفاء المؤمنين ويحفظون شيعة الحق من أن يتسلَّط عليهم إبليس وشيعته والنواصب، ففقيه واحد يتفقَّد يتيماً من أيتام آل محمدّ المنقطعين عن مشاهدتهم والتعلّم من علومهم أشدُّ على إبليس من ألف عابد، بل خير من أمّة من العُبَّاد، فمثل هؤلاء الربانيين يحبّبون الباري تبارك وتعالى إلى خلقه، يذكِّرونهم آلاءه ونعماءه، ويدلُّونهم على الوسيلة التي جعلها لعباده، والباب الذي يرد إليه الآبق من خلقه، والفناء الذي يحطُّ به السائر إذ أضلَّت عنه المسالك، فينقذون أنفساً من لهب النيران، أو يخمدون فتنة أطلقها الشيطان وجمَّلها لمن يتطلَّب السعي بين أحراش الدنيا؛ وهمّ الشيطان وهمَّته مصروفة إلى المؤمنين وأبنائهم، قد أقلقه النور الذي يتدفَّق في ضلوعهم، وأقضَّ مضجعه النبض الخافق بين جوانبهم والذي ترتع فيه معاني الخلود في دار البقاء؛ فتبقى نافذة الأمل مشرقة وأبواب

الأوبة مشـرعة، فذا رجل أحكم عليه فوج من مكائد الشـيطان وحزبه قبضته حتّى صدَّته عن شرع الله عز وجل فانقطع عن إخوانه المؤمنين، فتحارف سـيره لسبل شتّى حتّى دهمه أمر أفزعه من مقّره، وقذفه بقرب الرحمة الموصولة، مشتغلاً بنفسه وأهله متأرجحاً بين همّه وغمّه وبين باب المراد وباب الحوائـج، ناجاه مؤمن موغل في كفالة أيتام آل محمّد صـلى الله عليه وآله.. قد سدَّد خطاه رجال الغيب.. رأى تأرجح ابن عالم مرشـد.. فأشـفق عليه، مما هو فيه فدلَّه على طريق يكفيه مؤنة السـفر وأرق الاحتمالات.. وجَّهه إلى مرقد ألهم أنَّه الزعيم بإنجاز مطلبه والكفيل بصلاح حاله، فصار إليه زائراً متوسّلاً به إلى الباري تبارك وتعالى، فلم تمض الأيام حتّى ظفر ببغيته وفاز بآخرته ببركة المرقد الطاهر والسيد الباهر سبع الدجيل عليه السلام.

ويكفي هذا القدر من الكرامات، ومن أراد المزيد فعليه بكتاب الشيخ محمّد علي الأوردبادي عن كرامات سبع الدجيل.

***

ص: 81

الفصل الثاني: كلمات في الكرامة وخوارق العادات

اشارة

ص: 83

نظرة مجرّدة:

نادراً ما تظفر بشخصٍ ينكر وجود أفعالٍ خارقة للعادة في هذا الكون، فمن لم يشاهدها سمع أخبارها بنحو لا يرقى إليه الشكّ، نعم يختلف الأفراد في مدى تقبُّلهم وتحليلهم لمثل هذه الظواهر، فمنهم من تأخذ بمجامع قلبه وتلبس هالة قدسية في ذهنه، ومنهم من يفلسفها ويرسم تصوراً ما لنشأتها وذلك حسب نسيجه الفكري وتراثه الثقافي.

ويعدُّ وقوعُ أمورٍ خارقةٍ للعادة من الضروريات القرآنية، وهي تدلُّ على تصرف (ما وراء الطبيعة) في عالم الطبيعة ونشأة المادة من دون إبطالٍ لبديهيات العقل، وسيأتي عند البحث عن الكرامة في القرآن ما تستبين به السبيل.

فجملة من الوقائع والتي لا يساعد على جريانها نظام العلّية قد حيَّرت عقول الباحثين ولعلَّ من أبرز ما يحيّرهم هو تلك الفروق بين ما جرت عليه العادة وبين ما يخرقها؛ ومن أبرزها أنَّ الأسباب المشهودة والتي تجري عليها العادة يظهر أثرها بالتدرُّج ضمن ظرفٍ وكيفيةٍ مخصوصة، بخلاف حالة خرق العادة فإنَّ الأسباب المؤثّرة والتدرّج في الظهور ليسا بجليين فيها، بل الظاهر فيها إرادة مريدٍ، ولعلَّ عدم معرفة الأسباب هي التي ألجأت باحثي الآثار الروحيّة في عصرنا إلى تعليلها بطاقة مجهولة تنتج من رياضات شاقة، وهذا المعنى فيه شيء من الحق، وسيأتي ما يؤيّده من الكتاب العزيز وإن لم تتشخّص العلَّة الطبيعية لجري العادة وخرقها وبين العادة المطّردة في الممكنات وخوارقها يقف العقل ضاحكاً متعجّباً من واقع لا يدري كيف يفسّره، ويغالب وجدانه في الأخذ به من

دون لمسات عقلانيـة تمهّد لتشـييد الأسـس التي ينبغي أن يكون عليها الحال، فقد يناجي العبد ربَّه ويقول: ((يا سـبب من لا سـبب له، يا سبب كلَّ ذي سـبب، يا مسبّب الأسباب من غير سبب سبّب لي سبباً صل على محمّد وآل محمّد...))(1)، وفطرته تدرك أنَّ الكون أوجد من عـدم فلتكن الخوارق كـذلك، وهكـذا يجيب على مكنونات نفسه وعقله، يفتّش عن التقدير الإلهي ويبحث عن تفسـيرٍ للفعل الخوارقي يتلائم مع نسقية الكون.

وركون العقل دائر بين أوجه واحتمالات:

الأوّل: أن كون الحدث الخوارقي ووجوده من غير اسـتناد إلى سـبب مادي وعلّة طبيعية يرجع إلى مشيئة الله عز وجل وإرادته، فيكون حال الأمر الحادث كحال أوّل الخلق في بدء النشأة.

الثاني: أن هنالك سبباً طبيعياً مستوراً عن علمنا _ جعله الله _ هو الوسيلة إلى أمره.

الثالث: أن تكون هنالك خاصـية التسبيب، وهي آليَّة تحكم جملة العلاقة بين الأسـباب والمسـببات من دون حاجة لإخفاء سبب و ادّخاره من أجل خرق العادة، فمحرّك السـيارة مشـتغل والسيارة جاهزة للتحرُّك ولكن إنجاز التحرُّك يحتاج لتفعيل وإذن من قائدها، وهذا يعني أنَّ الإذن في التسبيب هو محور وروح الأسباب ونبض آلية الكون.

الرابع: أن يكون لليقين والاعتقاد خاصـية التفوُّق على جملة الأسـباب من دون أن يكون هنالك سـبب مسـتور، بمعنى أن قانون السـببية في الكائنات محيكاً باليقين والاعتقاد، وبذا يكون اليقين والاعتقاد جزءً من العلل الكونية، أو ظرفاً

1- مصباح الكفعمي: 226.

يلابس مجرى التسبيب من دون تدخّل في السببية، مثل التنور (المكان) فإنَّ له ملابسة لعملية إنضاج الخبز من دون تدخّل في عملية الإنضاج.

الخامس: أن تكون للنفس الإنسانية خاصية التفوُّق على جملة الأسباب لاحتوائها ما يقتضي التأثير في سلسلة العلل الكونية، وحينئذٍ تكون النفس من جملة العلل ذات السيادة.

السادس: مجموع الأمر الرابع والخامس؛ بمعنى أن للنفس تفوّقها وللاعتقاد أثره، وهما معاً جزء من نسيج العلل الكونية من دون أن يكون وراءهما سبب مستور.

وهذه الاحتمالات تنطوي على لبّ الوسائط والوسائل بين الخالق والمخلوق.

وحاصل الكلام: أن العلم بخوارق العادة يُعدُّ من ألف باء المعارف الإنسانية، وأن العاقل بفطرته يسلّم بالقدرة الإلهية على إحداث الفعل الخوارقي سواء بواسطة الأسباب الكونية الموجدة من الباري تبارك وتعالى أو بدونها، وأنَّ هنالك نسقاً كونياً مراعى، وهو أمر يستدعي التأمل في آلية إيجاد الفعل الخوارقي من قبل خالق الكون.

الكرامة معنى ووجداناً:

عرّفت الكرامة: بأنها أمر خارق للعادة ولكنه لا يقترن بدعوى النبوة(1)، وهي التي تظهر على أيدي الأولياء أتباع الأنبياء.

1- هذا هو الفارق الأساس بينها وبين المعجزة ومرادهم أنَّها خرق للسنن الكونية فلا تمشي الأمور بحسب المدرك من الأسباب والمسببات التي جعلها الباري تبارك وتعالى في هذا الكون وإن تمشَّت مع مبدأ العلّية العام كما يقول العلامة الطباطبائي في تفسيره 1: 73 - 86 وقد لا تتمشّى مع واقع الأسباب التكوينية لارتباطها بالمبدأ الأعلى كما يحلو التعبير به عند البعض.

ويمكن القول بأن هـذا التعريف ـ على الرغم من اعتباره في علم الكلام ـ إطلالـة مشوّشة لا تعطينا معياراً عملياً يعتمد عليه في تشـخيص الواقع خارجـاً هل هو كرامـة أو شـيء آخر؟! لأن خرق العادة غير المقترن بـدعوى النبوة قـد يحصل للولي من حيث إنه متّبع للنبي أو لأنه بشـخصه ولي لله وبغضّ النظر عن حيثيـة الاتّباع للنبي(1)، وقـد يحـدث الولي خرقـاً للعـادة لا لأنه من أتباع الأنبياء أو لكونه ولياً لله، بل لحصوله على بعض مفاتيح الغيب التي تؤثّر في الكون أو لظفر ذاته بشيء من معرفة النفس وآثارها الغريبة الخارجة عن حومة المتعارف من الأسـباب والمسـببات المادية، فهنا يحصل خرق للعادة من دون أن يكون ذلك الخرق كرامة، بل أن مثل هذه الأمور قد تحدث من الكافر، وقـد يكون الفعل الخوارقي أثراً طبيعياً ذاتياً أو جعلياً اعتبارياً لعملٍ ما يقوم به الإنسان ويعبَّر عنه في الأدبيات الدينيـة بعنوان الإثابةٍ على فعل الخير الحسن، وأيضاً قد يكون خرق العادة من جراء الشـيطنة، فإن كان مجرد مصطلح فلا بأس به لأن المراد منه تمييز ما صدر خارقاً للعادة ملتصقاً بالأولياء ويسمى كرامة.

إذاً على مسـتوى البحث النظري التعريف تـام ولا غبار عليه وإن لـم يكن منجـداً للعامـة في مقام تمييز الكرامـة من غيرها وبرغم كل الصور المتقدّمة فإنَّه لا مجال للتشكيك في أصل وقوع الكرامات فقد نصَّ القرآن الكريم على ذلك واتَّفق المسلمون على إمكان الكرامات(2) بل

1- هذا الفرد مجرد فرض في واقعنا نحن، نعم يتصوَّر له مصداق في فرد لم تدنس فطرته وسار على نهجها؟!

2- حتّى ابن تيميـة الذي لم يبق لأولياء الله أثراً إلاَّ وقد حاول طمسه والطعن فيه ولعلَّ سارية الجبل هي التي أبت عليه إنكار هذه المسألة؟! راجع نصّ كلمته في الملاحق.

ووقوعها وأن الله يخصُّ بها بعض أوليائه وما أنكرها شاذ في فهمه إلاّ وقد أرساها في ذهنه علم متواتر ووجدان حاضر.

فخرق العادات ليس مخالفاً للعقل؟!

وليست كل الظواهر الغريبة في حياتنا ومجتمعنا هي ناتج كرامات بل ثمّة أسباب وعوامل أخر تتظافر لتشكل ظواهر غريبة؟!

ولا يغيب عن بال امرئ أن الفعل الخوارقي موجود لدى العوالم الأخرى ولا يختصُّ به المسلمون وأهل الكتب السماوية هذا ما يختلج في وجدان العاقل وتبقى معه مجموعة من الأسئلة تحتاج لجوابٍ يأتي إن شاء الله من تلك الأسئلة:

ما الداعي لإظهار الكرامات؟! وهل ثمّة ضرورة تدعو إليها؟!

كيف تفسّر الظواهر الغريبة للنفس الإنسانية والسلطة العجيبة لها؟!

وكيف يتلقّى الكافر جواب هذه الإشكالية؟!

وكيف يأخذ بها المسلم كمنتم لدين سماوي؟!

ولمن تكون المعجزة و الكرامة؟ ومن قبلهما ما محل الإرهاصات من الإعراب؟!

وسيأتي مزيد بيان في الجواب عن أسئلة أخرى تعاضد ما تقدّم مثل:

هل خوارق العادات تختصُّ بالأحياء من الأولياء أم أنَّها تصدر من الأموات منهم أيضاً؟!

وقبل كل ذلك لا بـدَّ من الالتفات إلى كلمات تقـدَّم الإشارة إليها وتعنى بتفسـير الظواهر الغريبة بكونها خارقة للعادة وأنها لا تلغي ما أثبته القرآن الكريم وقرّره من نظم كوني سواء في ذلك السنن الكونية والاجتماعية؟!

وفي البحث القرآني سترى ما الذي طرحه الدين في هذا المضمار وكيف عالج خوارق التكوين؟!

والتوفيق بين النسق الكوني وخوارق العادات يُعدُّ من الوقفات المضنية لإنسان اليوم؟!

وأمَّا السؤال عن الآثار السلبية والإيجابية للكرامة على صعيد التديّن والتربية؟!

فهو سؤال ناتج فيض المعرفة الإنسانية وتمرّد شيطانها على بوازغ الإيمان في وجدان العاقل ولعلَّ مجراه على مفترق طرق أحدها التديّن عن وعي والآخر موجة الانفتاح على مشارب الآخرين، وهو أمر يستوجب لوثة نفاق لضعاف العقول و((وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالآياتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَما نُرْسِلُ بِالآياتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً))(1).

وأمَّا تحديد سمات أهل الكرامة؟! فيعرف من قراءة موجبات القرب المتقدّم.

وسيأتي الكلام عن مثبتات الكرامات عند الشاهد والغائب؟!

ومع تكوين صورة شاملة من هذه الأسئلة يأتي دور سؤال لبّه: هل سار الناس بحسب مقتضيات الدلائل أم أنَّ الكرامات جُيِّرَت لخدمة مصالح المتسلّطين كما جُيِّرَت الكثير من المفردات الدينية فضلاً عن مظاهره؟!

هذه مجمل التساؤلات التي تحوم حول الكرامة الماثلة في وجدان إنسان اليوم وهنا سؤال يلحُّ على ذهن المسلم والدين والشريعة الذي يعمل بها.

ومفاد السؤال: على ماذا ينبغي أن تجري الأمّة في سلوكها وتربيتها؟!

أعَلى الإيمان بالكرامات وما ينسج حولها من إسقاطات المؤرّخين وأوهام

1- الإسراء: 59.

العامة أم يؤمن بالكرامات بعقلانية أدركت قدرة الباري ولمست هبات إكرامه لأوليائه كما في إحياء عيسى للموتى وكما في صيرورة النار برداً وسلاماً على إبراهيم ومثل دعوته للطير بعد تقطيعه، وستأتي المباحث لتعرّف بكل ذلك فإليك الكرامة في القرآن وبعد راجع الكرامة الإلهية لترصد حركة الفعل الخوارقي.

الكرامة في القرآن :

الكرامة في القرآن(1):

تقـدَّم القول: بأنَّ وقوعَ أمورٍ خارقةٍ للعادة يُعدُّ من الضـروريات القرآنية وهي تدلُّ على تصـرّف ما وراء الطبيعة في عالم الطبيعة ونشأة المادة من دون إبطالٍ لبديهيات العقل، فالقارئ لمسـردات القرآن في الموت والحياة والرزق والحوادث السـماوية منها والأرضـية يرى إثباتاً لقانون العلّيـة العامـة كما هو موجود في الفطرة الإنسانيـة ومعتمد في البحث العلمي وإن كان يسـندها في النتيجة للباري سـبحانه وتعالى لفرض التوحيـد، وبين تلك المسـردات تجـد القرآن الكريم يخبر بجملـة من الوقائع لا يساعد على جريانها نظام العلّية كما في معاجز الأنبياء(2) والفرق بين ما جرت عليه العادة وبين ما يخرقها، أن الأسـباب المشـهودة والتي تجري عليها العادة يظهر أثرها بالتـدرّج ضـمن ظرفٍ وكيفيةٍ مخصوصة بخلاف حالة خرق العادة فإن التدرّج والأسـباب المؤثّرة ليسا بظاهرين فيها بل الظاهر فيها إرادة مريدٍ ولعلَّ عدم معرفة الأسـباب هي

1- هذا العنوان لبُّ بحث للعلامة الطباطبائي في تفسيره 1: 73 - 82؛ وبحوثه حول آية 100 من سورة البقرة وآية 50 من سورة طه.

2- هذه المعاجز وإن خالفت نظام العلّية المعروف إلاَّ أنَّها ليست مسـتحيلة في ذاتها بنحو يكذّبها العقل الضـروري كما يكذّب قول القائل بأن الواحد ليس نصف الاثنين.

التي ألجأت باحثي الآثار الروحية في عصرنا إلى تعليلها بطاقة مجهولة تنتج من رياضات شاقة، وهذا المعنى فيه شيء من الحقّ، فالقرآن وإن لم يشخّص العلّة الطبيعية لجري العادة وخرقها(1) إلاّ أنّه يثبت أنّ لكلّ حادث مادي مجرى مادياً وطريقاً طبيعياً به يجري فيض الوجود من الباري تبارك وتعالى، وإليه يومي قوله عزّ من قائل: ((وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً))(2) فإن مفاد الآية بحسب إطلاقها أنّ كلّ من اتّقى الله وتوكّل عليه سبحانه وتعالى فإنّ الله حسبه في أموره ولا تقهره الأسباب الظاهرة على سطح الممكن، ويدلُّ على هذا المعنى عدّة آيات منها: ((وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ))(3)، وقوله: ((وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ))(4)، وقوله: ((أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ))(5) ولو رجعنا إلى الآية الأولى لوجدنا تعليلاً لإطلاق صدرها ((إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً)) وهذا المعنى مؤيّد في القرآن الكريم بآيات أخرى منها قوله تعالى: ((وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ))(6) وبحسب إطلاق الآية فإن لله

1- كل هذا تقدَّمت الإشارة إليه وإنما أعيد ذكره لأهميته ولربط الكلام.

2- الطلاق: 2 و3.

3- البقرة: 186.

4- غافر: 60.

5- الزمر: 36.

6- يوسف: 21.

سبيلاً إلى كل شيء حادث تعلّقت به مشيئته وإرادته وإن كانت السبل المألوفة مقطوعة ومنتفية عن الشيء المنظور.

وركون العقل لهذا الأمر دائر بين وجهين أساسيين واحتمالات ترجع إليهما بشكل ما:

الأوّل: أن كون الحدث ووجوده من غير استناد إلى سبب مادي وعلّة طبيعية يرجع إلى مشيئته وإرادته تبارك وتعالى فيكون حال الأمر الحادث كحال أوّل الخلق في بدء النشأة.

الثاني: أن يكون هنالك سبب طبيعي مستور عن علمنا _ جعله الله _ هو الوسيلة إلى أمره وفي قوله تعالى: ((قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْ ءٍ قَدْراً)) ما يؤيّد هذا الوجه ولعلَّه يعضدها الحديث المروي: ((خلق الله المشيئة بنفسها ثمّ خلق الأشياء بالمشيئة))(1) فإنَّ الحديث يثبت بإطلاقه واسطة ووسيلة بين الخالق والمخلوق وهي المشيئة غاية ما يقال: إن هذه التسبيبية ليست مملوكة للأشياء بل هي منقادة إليه تبارك وتعالى وعلى العموم آيات القدر تدلُّ على ذلك(2) وفي الوقت الذي يؤكّد القرآن قانون العلّية فإنَّه يثبت عدم استقلالية الأسباب الموجودة في التأثير وإنما المؤثّر الحقيقي وبتمام معنى الكلمة هو الله عزَّ سلطانه ((أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ))(3) ، وقال تعالى: ((قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً))(4)، وقوله تعالى: ((قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْ ءٍ خَلْقَهُ

1- الكافي 1: 110.

2- الميزان 1: 77.

3- الأعراف: 54.

4- النساء: 78.

ثُمَّ هَدى))(1) فإذاً الأسباب تملّكت السببية بتملكيه وهي غير مستقلة في التصرّف في عين أنَّها مالكة وهذا المعنى المعبّر عنه بالشفاعة والإذن، فإنَّه لا معنى لأن يؤذن لمن لم يعط قدرة على التصرّف، فإذنه تبارك وتعالى رافع للمانع عن تأثير السببية المودعة في الأسباب.

ومع تأكيد القرآن لقانون العلّية وتأثير العلل في معلولاتها يشير إلى أنَّ من جملة المسبِّبات ـ بل هي أقوى من الأسباب الطبيعية ـ نفوس الأنبياء وهي أنفس يصدر عنها أفعال خارقة للعادة قال تعالى: ((وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ))(2) ظاهر الآية المباركة أنَّ معاجز الأنبياء وصدورها عنهم إنما هو ناتج مبدأ مؤثّر موجود في نفوسهم متوقّف في تأثيره على الإذن منه تبارك وتعالى وهذا المعنى سارٍ حتّى في السحر والكرامة فخرقها للعادة ناتج عن مبدأ موجود في نفوسهم، غاية ما في البين أنَّ المبدأ الموجود في الأنبياء غالب وفائق، والشيء غير الطبيعي في نبوة الأنبياء اتصالهم بالمبدأ الأعلى عن طريق الوحي أو التكليم وهو اتصال لم تجر العادة به.

ولك القول: بأنَّ الوحي والنبوة تصرف من ما وراء الطبيعة في نفوس أفرادٍ لا يختلفون عن غيرهم من الناس، لذا ترى هذا الأمر الخارق للعادة، مدعماً بآيات خارقة للعادة؛ إذاً الكرامات إذا اقترنت بدعوى الاتصال بالمبدأ الأعلى فهي دليل على صحتها، ولأنَّ النبوة والوحي خارقان للعادة، وغير منسجمين مع المدرك من الأسباب، احتاج مدّعيها إلى التأييد بقوة إلهية تخرق العادة أيضاً،

1- طه: 50.

2- غافر: 78.

لتكون دليلاً على صحة دعوى النبوة والرسالة، فمن يأت قوماً بما يصلحهم ويعلمون أنَّ صلاحهم فيما أتى به، لا يكتفون في تصديق نسبة ما أتى به إلى سيدهم ما لم يأت بما يدلُّ على تلك النسبة.

وهذه الحقيقة برمتها تثير في الذهن طيفاً من الاستفهامات:

كيف يتسنّى لنا معرفة الكرامة(1) من غيرها؟!

وهل ثمّة طريق سماوي لمعرفة واقع الحال؟!

وهل يجب الاعتقاد بالكرامات؟!

وإذا وجب:

ما هي حدود ذلك الاعتقاد؟!

وما حكم المنكر لها(2)؟!

وبالرغم من أهمية معاني الكرامة في القرآن، لا تكاد تظفر بما يغنيها بحثاً عند فلاسفة التفسير، وإن ساقوا أحاديث الكرامات، وفلسفوا واقعها، وصوّروا حقيقتها، مع أن القرآن قد أشار إلى بعض خوارق العادات التي وقعت للأنبياء والأولياء، فهذا إبراهيم يدعو الطير الميت فيأتيه طوعاً، وذاك النبي يشهد إعادة الخلق خطوة.. خطوة، وتلك مريم تهزُّ بجذع النخل فتساقط عليها رطباً جنياً، وهنالك غيرهم ممن وقع محلاً لعناية الباري تبارك وتعالى، وقد عدّتها بعض الأقلام لوناً من ألوان الكرامة، كنوم أهل الكهف وجلب عرش بلقيس من قبل وصي سليمان، وهذا تسامح في تشخيص الكرامة من غيرها، وهو يوجب الخلط في

1- لا بدَّ من التجاوز عن كيفية معرفة المعجزة لأنها مقترنة بدعوى النبوة وهي ليست من صميم البحث.
2- راجع الملاحق.

المصاديق والمفاهيم، الأمر الـذي يبعد العقول عن مصاف الحقائق والوقائع فأصل إعطاء العلم لوصـي سـليمان كرامة وفضـلاً، ولكن نفس جلب العرش بما علمه وإن كان كرامـة بالمعنى العام إلاّ أنه ليس بكرامـة بالمعنى المنظور من الاصـطلاح(1) وعطفاً على ما تقـدم من أنَّ عموم الفعل الخوارقي مشار إليه في الكتاب العزيز منه ما كان على شـكل كرامـة وآيـة، ومنه ما كان على غير شـكل، لاحظ قصـة السامري المحكيـة في الكتاب العزيز فإنّها تعرض هـذا الأمر الخطير وتبيّن الطريق الناصع والـدواء الناجع لدفع مثل هذه الضـلال ودرء هكذا فتنة، فـذلك المنـافق ومن خلال أخـذه لقبضـة من أثر الرسول، أخرج لقومه عجلاً جسـداً له خوار، فإنَّ موسـى عاتب قومه على ضـلالتهم تلك، فتعـذّروا بما حصل من خرق للعادة على يـد السامري، ولم يعـذروا لكون الاعتذار لا عقل ولا تعقّل فيه، ولأن الحجة ـ وهو هارون خليفة موسـى بالنصّ ـ بين ظهرانيهم يدعوهم إلى الحق ويحذّرهم الفتنة ((قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسـى فَنَسِيَ * أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً * وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي))(2) وموسى لم يكن ليدع السامري، من دون أن يدحض باطله، ويستبين ما جاء به،

1- لدعوى أنَّ قدرته على المجيء به حاصلة من علمه فلو حصل ذلك العلم عند من لا يؤمن لتمكَّن من الإتيان بالعرش أيضاً وهو لا كرامة له لاحظ عفريت الجن فلقد كانت له القدرة بالإتيان بالعرش وهذه القدرة لا تنم عن كرامة وإن كانت خارقة للعادة.

2- طه: 87 - 90.

ومن أين أتتهم الفتنة ((قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ * قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي))(1) والتأمل في الآية المباركة يفيد أن خارق العادة التي تحصل من أمثال السامري لا واقعية لها، وإنما تشابه الواقع ((فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ))(2) عجلاً جسداً له خوار أمَّا أنَّه ذو حياة لا دلالة واضحة في البين، وسيأتي مكر الراهب المستسقي بعظم نبي، هذه حالة لخرق العادة من منافق قد ظفر بشجنة ربانية.

وهنا يأتي ما تقدَّم:

كيف يتسنّى لنا معرفة الكرامة من غيرها؟!

وهل ثمّة طريق سماوي لمعرفة واقع الحال؟!

وسيوافيك شرح حالها في طي النظرات الآتية.

الكرامة الإلهية:

كل ما تقدَّم يبحث حول فاعل الخوارق، ومن أين تأتي القدرة على إحداث خرق العادة، واحتمالات نشأة الفعل الخوارقي، وهذا العنوان يتكفّل بالإطلالة على الفعل الخوارقي ذاته، عله تستبين خصائص الكرامة، وتمتاز عن مشابهاتها، ولم يدر بخلدي أن أكتب شيئاً عن خوارق العادات وأشكالها، وإنما العزم كلّه على سرد بعض الكرامات التي تكشف عن نبل صاحبها، ونيله مقاماً سامياً عند الله عز وجل دون عرض شيءٍ من معانيها، إذ الكرامة أمر مألوف معروف لا يحتاج إلى بيان أو

1- طه: 95 و96.

2- طه: 88 .

تبيين، حبوة تعطى لأهلها وكسوة تزيّن الـدنيا وقاطنيها، هي خلعة التقوى تكشف عن زين المؤمنين وسـيماء الصالحين، بل هي رونق آيات التكوين، ومسـفر الحقيقـة، وتحفـة الحق تبارك وتعالى، ولولا أن هنالك لَبس يكتنف مصـداقها _ بل خلط بين الكرامة وبين الآثار الطبيعية للشـيء، ولولا ـ أنَّ هنالك ضـبابية تريـد أن تفتعل بين الكرامـة وتأثيراتها من جهـة وبين المعاني الاعتباريـة ما لها وما يرتَّب عليها من جهة أخرى، وانتشار حُلكـة ظلام بين آثار الاعتقاد(1) التي تصاحب بعض المعتقـدات وبين وجه الكرامة الناصع وسـماتها _ لما سـطرت هذه الأحرف الساعية لكشف بعض ما لها، وما عليها وبتوفيق الله أخط الكلمات:

إذ لكـل شـيء أثر في الوجود يتحـدّد ذلـك الأـثر بقـدره، وبنحو وجوده فالوجود الاعتباري له أثر اعتباري في هـذه الحياة، وله أثر أقوى من الاعتبـار المجرد في عـالم آخر، هـذا واقع، وواقع آخر هو تجاوب تصـرفات الإنسان مع ما حوله، وتأثير فعله فيما حوله، بل وتأثير سـجاياه ورؤاه بشكل أو بآخر في الكون، وبالبناء على هذه الفكرة يمكن لحظ المعاني على صور ثلاث:

الأولى:

معـانٍ وآثـار ترتبـط بالعنوان المتلبّس به، وببركـة التلبّس بالعنوان تثبت للمعنون خصائص وآثار نيطت بـذلك العنوان، ومثاله عنوان العالم، وعنوان المؤمن، والكرم، واللؤم، وعنوان الزوجيـة، ومـا شاكـل من المعـاني الاعتباريـة التي يرتّب عليهـا العقلاء بعض الآثار الخارجيـة أو المعنوية، وبعض الاعتبارات مهلكة دنيا وآخرة، ولعلَّ مبلغ الشيطان هذه الأوهام وما ينسجم معها.

1- هناك أثر مضمونه: من اعتقد في شيء أثر فيه.

لاحظ آثار بعض العناوين، والتي لا ربط لها بالـذوات، كالضـيف له حق من الإكرام، بغضّ النظر عمّن هو هذا الضـيف، والرسول له حرمة بغضّ النظر عمّن هو هـذا المرسل، ولـذا جرت العادة بعدم قتل الرُسُل حتّى لو كانوا مهدوري الدم، وهذا المعنى يعتني به العرب وغيرهم، ولاـ يمكن أن أجلب مثالاً ملموساً إذ العناوين ليس لها وجود خارجي ملموس، وأقرب شـيء لها هو آثار الماضـين وتركاتهم، ومن بعـدها الرموز والنصب التي تملأـ المـدن والميـادين، وكالأمانـة أيضاً لها أثرها واعتبارها من دون اعتبارٍ بمن له الأمانـة، لاحظ ما رواه الثمالي عن الإمام زين العابدين عليه السـلام قال: سمعته يقول لشيعته: ((عليكم بأداء الأمانة فوالذي بعث محمّداً بالحق نبياً لو أن قاتل أبي الحسين بن علي عليهمـا السـلام ائتمنني على السـيف الـذي قتله به لأديته إليه))(1) وتكريمـاً للأمانـة ورد أن (الأـمين محسن ومـا على المحسن من سبيل)(2).

الثانية:

معانٍ وآثار ترتبط بالذات، دون العناوين التي تتلبّس بها، أي ليس للعنوان أيّ دخالة في ما يحصل للمعنونات.

وإن شـئت قلت: إن الآثار ظاهرة من حاق تلك الذات ومنبثقة عن صـميمها، فلا تنفك عنها، حتّى لو تقلّبت حالاً بعد حال، كما في اللوازم الذاتيـة للأشـياء. لاحظ رطوبـة الماء مثلاً، فليس لعنوان الماء دخالـة في تحقيق معنى الرطوبة، وهكذا خصائص بعض العناوين الاعتبارية خصائص قهرياً لا يتحقّق اعتبار دونه.

1- بحار الأنوار 72: 114.

2- قال تعالى في سورة (التوبة: 91): ((ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ)).

لاحظ التبعات في عنوان البيع مثلاً، فلا يتحقّق بيع إذا لم يكن لمالكي الثمن والمثمن حق التصرّف فيما انتقل إليهما.

الثالثة:

آثار ترتبط بالمعنون ظاهراً، ولكنها ليست نابعة منه، وليس له أيّ دخالة في آثارها، فيكون المعنون كالعنوان المشير إلى الاستحقاق إفاضةً وتفضلاً، وهذه الآثار تشبه المعجزة من جهة أن الآثار تكوينية، وتشبه الآثار المصاحبة للعناوين من جهة أن لها منشأ يبعد عن عالم الماديات، من دون أن تكون سمة عنوانٍ، أو لازمُ ذاتٍ، بل هي ناتج صفة نالها إنسان ما، أضفت عليه خصيصةٍ ذات قرار ومعين، لاحظ ما حبي به إبراهيم عليه السلام حينما جعل إماماً، فقد حبي بأمرٍ أولى قَسَمَاتِهِ مكّنه من إحياء الموتى.

إذاً هنا شيئان بينهما مشاكلة ينبغي التأمل فيهما هما: الصفة والخصائص(1).

فالصفة التي ينالها أهل الأديان، تارة تكون ناتج عنوان ديني تقمّصوه، وأخرى حبوة وفضلاً من الله نالوه، وثالثة ناتج مقام حقيقي بلغوه، ورابعة ظواهر شيطنةٍ ابتدعوها، فإذاً لا محيص من التمييز بين المعجزة وبين الكرامة(2)، وبين آثار العنوان المتلبّس به، والمقام الذي يبلغه الولي، والشيطنة المبتدعة _ ولا أقل من التأمل في هذه الأقسام بما يمليه عقل إنسان اليوم، لذا فإن جلَّ البحث تنظر عقلي صرف، قد يطعّم بشيء من الأخبار التي تعين على معرفة الواقع، إذ النبوة عقل ظاهر ومدرك باهر.

1- مصب الكلام في كرامة الأولياء ولذا ينحصر الكلام على خصائص وصفات ذي الدين بشكل عام سواء كان من أولياء الحقّ أو من أولياء الباطل.

2- قد تقدَّم أنَّ الفارق بينهما أن المعجزة تسبق بدعوى النبوة وتلحق بها ومقامها مقام تحدٍ، أما الكرامة فليس مقامها مقام تحدٍ ولا تلحق بدعوى، كذا ذكروا لكن الملاحظ أن بعض الكرامات صادرة في مقام تحدٍ أو تصديق دعوى الولي دون دعوى النبوة.

فالقول بعـد الاسـتعانة بالله والتوكّل عليه والتوسل بأحبائه وسادة خلقه محمّد وآله صـلى الله عليهم أجمعين والتقرّب بلعن أعدائهم إلى يوم الدين:

إن دعوى شـيءٍ ما على الباري عز وجل تسـتوجب عقلاً أن يكون لها شاهـد مصدّق، أو مكّذب من قبل الباري عز وجل، فالصادق يؤتى ما يـدلُّ على صدقه، والكاذب يؤتى ما يدلُّ على كذبه _ سواء كان ذلك الدال مجرداً أو محسوساً _ وهذه تتكفّل بها معاجز الأنبياء والمرسـلين ومنطقهم، إذ هؤلاء مجابوا الـدعوة عنـد الله، كي لا يكـذَّبوا، ودائماً ترى تعاضـد العقل والكرامة(1) في نصـرة رسـل الله عز وجل وأوليائه، فمنطق الرسل معجزة يشاهدها العاقل والحكيم فيذعن بالنبوة والرسالة من قبل أن يرى آية ملموسة.

والكرامة كما تكون دليلاً عقلياً لدى شـريحة كبيرة من الناس، تكون منطق القلب الذي يهوى، ويحب أن يرى عجائب الحبّ والاجتباء، لذا تراه يطلبها ولو كان موقناً، ويسعى خلفها لهفاً ولا يقنع، أترى نسائم الود تمل أو تستكثر؟!

وأيضـاً الولي للبـاري له حرمـة ومنزلـة، تكشف عن صـحة مـا حوى، وجمال ما احتوى، وهو الغرض من هـذه الكلمات، فلنرجئه إلى آخر المطاف، إذ البحث يستدعي كلاماً في كل حالة على حدة وليكن على البال جملة من المعاني:

1 _ أن الكرامة: حالة تصدر لذي التكليف خارقة للعادة، لا يؤمر بإظهارها، وبهذا القيد يظهر الفرق بينها وبين المعجز(2).

1- بمعناها الأعم الشامل.

2- نقلها الحاج حسين الشاكري في كتابه من سيرة الإمام علي عليه السلام عن ابن طلحة الشافعي (ص 116) وتقدَّم ما يفيد في تمييزها.

2 ـ أن الكرامة تشترك مع المعجز في جملة الشرائط والخصائص، سوى ما يمليه مقام النبوة وطبيعة الرسالة، وعمدة الشرائط والخصائص:

أ ـ أن يعجز عن مثلها أو ما يشاكلها الأمّة التي تحدث فيها، إذ لو كانت مقدورة للكل لما كشفت عن فضل صاحبها، فهي ناشئة عن سبب غير مغلوب.

ب ـ أن تكون من قبل الله تعالى أو بأمره(1).

ت ـ لا يشترط أن تكون في زمان التكليف، لأن الكرامة مظهر عناية الباري بوليه وعنايته بوليه لا تختص بزمان أو مكان.

ج ـ أن تظهر بنحوٍ مكتنفٍ بالولي كي تدلّ على منزلته، وإن شئت قلت: أن يكون الولي هو سببها الظاهر، وموضوعها المنظور، فلا تكون كرامة للشخص فيما لو صدرت ولم يكن نفسه سببها الظاهر.

ح ـ لا تخلُّ بموازين العقل والدين، إذ قوام الولاية لله ربّ العالمين بهما، فلا يعقل أن تخلَّ بهما الكرامة.

خ ـ أن لا مدخلية لحياة الولي، وللاعتقاد بولايته فقد تتحقّق من الولي حياً وميتاً بل ولو كان المستفيد من الكرامة جاحداً أو معانداً(2).

1- هذا الشرط مستدرك إذ كل شيء بأمره و الكرامة هبة منه تبارك وتعالى ((بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)) (الأنبياء: 26 و27) وإنما حسن ذكره دفعاً لخوارق العادات والتي تكون آثاراً طبيعية للشيء.

2- هنالك من الكرامات ما يكون فيها مقام الولي جزء سبب والاعتقاد به الجزء المتم الفائدة، لاحظ الشفاء بتربة الحسين عليه السلام في بعض حالات الأشخاص يرتفع عنهم الضر ولا يعرفون إلاَّ اسم الحسين عليه السلام وبعض الحالات تتحقّق الأماني ببركة تربته الشريفة إذ كانوا ممن يرى مقام الحسين عليه السلام عند الباري تبارك وتعالى فالكرامة قد يخلقها الباري إظهاراً لمقام وليه وإن لم يكن محلّها أهلاً لها.

وصفوة القول:

أن الكرامـة لاـ تقترن بـدعوى، ولا تحتاج لمقام تحـدٍ كي تظهر، ولا تختص بالنبي والإمام بل تحصل حتّى للصالحين، وهي ذات مراتب، وليست الكرامة حتمية الوقوع بخلاف المعجز فإن وقوعها حتمي.

ولصاحبها أيضاً شروط وخصائص، تقدَّم الحديث عنها في قرب الباري ونعوت الأولياء وخلاصتها:

العلم، التقوى، محبـة أولياء الله عز وجل، البراءة من أعـداء الله عز وجل، أن يكون همّه وهواه في رضا الله تبارك وتعالى، الحكمة، التحلّي بالكمالات والفضائل الخلقية، العدل والإنصاف.

والأوّل والثاني متلازمان إذ لا تقوى بغير علم، ولا علم بغير تقوى، والثالث والرابع هما سائق القلب وقائـده إلى الهـدى، والخامس وسـيلته التي يعرج بها إلى المراتب العليا، والأربع الأخيرة زاده الذي يتزوّد(1).

إلى هذا الحدّ تميَّزت الكرامة وخصائصها، وظهرت الحالات التي تمسُّ بالموضوع وصاحبه، وحلَّ الكلام حول الصور:

فالأولى: آثار العنوان وما يرتبط به.

والثانية: معانٍ وآثار ترتبط بالذات، دون العناوين التي تتلبّس بها.

ويمكن القول عنهما: أن هاتين الحالتين يستوي فيها المؤمن وغيره، بمعنى أن الآثار مرتبطة بعنوان ما، أو ذات ما، فكلٌّ من حصل

1- لاحظ أن بين مصاديق هذه الأمور تداخلاً. وليس الغرض بيان ما لها وما عليها، ولكل منها أثر فإذا اجتمعت حلَّ الإنسان محل الكرامة وله ظهرت آثـار السـلامة في الـدارين وصـار محـط الآمـال ومنتهى الأمنيات، به يتوسل إلى الله عز وجل وعزبت عنه الشدائـد بعـد دنوها واحلولت له الأمور بعد مرارتها... وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها... وتحدبت عليه الرحمة بعد نفورها.

على العنوان، حصـل على خصـائصه، ومـا اعتبر له، وكل ما صار ذا ذات ثبتت له ميزاتها ولوازمها، ولا توجـد ميزة في هـذه الحالـة توجب التوقف عنـدها، وغايـة ما يقال: إن قليلاً من التـدبّر يمكّن العاقل من معرفـة ما اعتبر، فيقف عند حدّه دون أن يتجاوز، نعم اعتبار الباري عز وجل، لعناوين معيَّنة يكسـبها خصائص قدسية لا يقاس بها اعتبار الآخرين، من هنا ترى أن الاعتبارات التي حبي بها الأنبياء والأولياء، وإن شاكلتها الاعتبارات الأخرى، إلاّ أنَّ لها مناشئ، ومبررات، وآثاراً تتناسب والمعتبِر، ويراعي ذلك الاعتبار حال المعتبَر.

ولكن معرفـة الـذات ومـا تكتنز، تختلف من مصـداقٍ لآخر، إذ الناس معادن كمعادن الـذهب والفضـة، منها ما هو طيب المنبت والمنشأ، ومنها ما هو خبيث رديء، وحينئذٍ يتوقّف العقل بالقول بأن ذات الولي وخلقه، كذات بقية الناس فالنبت المسقي بالماء الأجاج المزروع في الأرض السـبخة، لا يـداني النبت المسـقي بالماء العذب في الأرض الكريمة رشداً وقوة وثمرة، وكذا من اعتاد أكل الرديء لا يكون جسـمه كمن اعتاد أكل الطيب، فهما وإن كانا نوعاً واحداً إلاَّ أنَّ جوهرهما مختلف، وبهذا تتّضح الحكمة في حرص الشارع واعتنائه، بما به بناء بدن المؤمن(1)، وكي يتّضـح الأمر أكثر، لاحظ المأثور في أكل الأنبياء والأولياء ترى أنهم يتميّزون عن غيرهم؛ ويوجد أفراد هنا وهناك يسـعون للكشف عن قدرات البشر الكامنة(2)، فنسجوا على منوال سيرة الأنبياء ما

1- لا تختص المسألة بالأكل والشـرب الماديين بل تشـمل حتّى التغذية الثقافية، فبداهة تأثير العلم، والمعرفة، في سلوك الإنسان، وتكوين شخصيته، لا يتنكر لها أحد حتّى الجهل وأهله.

2- سيأتي التمييز بينها وبين الكرامة الربانية.

تمليه عليه أنفسهم، وما استفادوه مما سبقهم حتّى نمت طرائقهم وشاعت أخزافهم، وكثر استعمال الناس لها في مأكلهم ومشربهم، إذ صادف نسج أولئك، هوى في الفؤاد، وسبيلاً سهلاً لنيل الدنيا.

ميسم الكرامة:

وصف لحال من يؤمن بالكرامة ومن لا يؤمن بها:

النظر إلى الكرامة يولد شعوراً بقدرة نابضة، ويفعّل في النفس الإنسانية طموحاً متقادماً، وهو الطموح بالهيمنة على الكون، ويدغدغ مكامن قدرة الإنسان وإرادته فيرمح بهمّته كفارس متمرّد على المألوف والعادة، ولعلَّ هكذا أحاسيس تحرّك الذهن، فتكون بمنزلة الإيقاع الذي يموسق الأحرف فيتحرك مخيال الإنسان ـ في حدود ما يدرك من قواعد تكوينية ـ وينسج ما يضفي عليه نشوة الإبداع من غير وهم بل من واقع لا ينضب، هذه النشوة، وهذا الشعور دليل على أنَّ خرق العادة أمر بسيط، ومدرك فطري يعايشه الإنسان في أدوار حياته(1).

والخواطر والأسئلة المتقدّمة تجول في ذهن الكثير ممن سار في عيشه قرب شواطئ التديّن، سيّما أولئك الذين لهم مساسٌ حذرٌ بالدين والتدين(2)، هؤلاء الناس أهل دين ولهم طبع الخوف، والحيطة على دينهم، لذا تراهم لا يقبلون من كل أحد، وعلى كل أحد، ولا يكتفون برؤيتهم، أو بنقل الناقل ما لم

1- وبعبارة حِرَفِيّة لا يجد العقل مانعاً من خرق العادة التي يعجز عنها عموم الممكنات.

2- المراد بهم أصحاب الفنون التي لها مساس بالتراث الديني سواء كانوا فقهاء أو متكلمين أو رجاليين ويشمل غيرهم من سياسيين وغيرهم.

يطمئنوا بسلامة تلقي الحدث(1)، من هنا يمكن القول وبضرس قاطع أن الكرامات وتشخيص صحيحها من سقيمها يفيد فيه علم الرجال كثيراً لما له من جنبة تطبيقية، وهذه الإشكالية هي مزال الأقدام وثباتها، فالقارئ لعلم الرجال، لا يقرأ تأريخ دول، أو تاريخ مسألة، بل يقرأ تأريخ تديّن وتعقّل، إذ الرجالي أشبه ما يكون راصداً لسلوك رواة الأحاديث الدينية، فالرجالي المعتمد إذا وثَّق إنسان مّا يركن إليه في توثيقه، وإذا طعن في آخر يؤخذ بطعنه(2)، وليس المقام مقام تقعيد قواعد علم الرجال، أو تبيين أطر تمحيص الخبر ورجاله، وإنما كل ما أودُّ الإشارة إليه أن مكنون الرجاليين(3) فيه الكثير من التحذّر في جانب نسبة الشيء للدين وأهله، لاحظ توقّفهم في من يخالف العرف والمروءة في تصرفاته، حتّى أن الضرورة وهي لا تكون محملاً عندهم ما لم يقفوا على موجبها، لذا وغيره قلت: إن مكنون الرجاليين يستبطن الحذر الشديد في تلقّي ما يرتبط بالدين وأهله؛ ولعلَّ هكذا أفذاذ هم أوّل من يطرح مثل الأسئلة المتقدّمة _ في الجملة _ ويحاولون أن يجدوا لها أجوبة معقولة يبنوا عليها رأيهم في شخص الراوي، لذا تراهم يوصمون هذا بالارتفاع وذاك بالغلو وثالث بالنصب و...

وهم في قرارة أنفسهم _ وهذا شأن كل العقلاء _ يفرّقون بين الظواهر التي تعدُّ كرامة وبين الظواهر التي تعدُّ ناتج أسباب معيّنة، لا ربط لها بالكرامة آخذين ذلك من معدن العلم والحكمة.

1- وليس البحث هنا بحثاً كلامياً كي ينظر في أصل المسألة وجوهرها، ولا فقهياً كي يحدّد الموقف الشرعي منها وليس ببحث رجالي أو تمحيص لسند حديث أو ما شابه كي نتلمّس مواطن الوثاقة والوثوق.

2- هذا التوثيق يتمُّ عبر مساجلات كلامية كثيرة هذه تؤيّد وتلك تعارض.

3- أريد الرجاليين الذين قرأت لهم وهم رجالات الشيعة ولعلَّ ذلك طبع الكثير من الرجاليين غاية ما في البين أن المسألة نسبية بحسب موازين التديّن والقدرة على التعقّل والتغلّب على الأهواء.

ويعدّون الكرامة سمات الولاء والقرب، ويحسبون المنزلة الرفيعة لأصحابها فهي فيصل في تحديد المنازل.

لاحظ قصة الراهب: حينما وقع قحط في زمن الحسن بن علي عليه السلام، في سامراء، فأمر الحاكم العبّاسي الحاجب، وأهل المملكة الخروج للاستسقاء فخرجوا ثلاثة أيام، فلم ترفع لهم دعوة، وفي اليوم الرابع، خرج الجاثليق ومعه الرهبان للصحراء، بينهم راهب ما إن يرفع يده بالدعاء حتّى تهطل السماء بالماء، يفعل ذلك ثلاثة أيام، فارتجَّ على الناس أمر دينهم وشكّ الكثير في دينهم وصبوا لدين النصارى، فأنفذ الحاكم من يخرج الزكي العسكري عليه السلام، من حبسه وقال له: أن ألحق أمّة جدّك فقد هلكت!

فقال عليه السلام: ((إنّي خارج غداً، ومزيل الشكّ))، فخرج في اليوم التالي الجاثليق، وأُمِرَ الناس بالخروج، وخرج مولانا الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، في نفر من أصحابه.. فلما بصر بالراهب، وقد مدَّ يده أمر بعض مماليكه أن يقبض على يده اليمنى، ويأخذ ما بين إصبعيه، ففعل وأخذ من بين سبابيته عظماً، فأخذه مولانا ثمّ قال عليه السلام: ((استسق الآن)) فاستسقى وكانت السماء مغيمة فانقشعت وطلعت الشمس بيضاء.

فقال الحاكم: ما هذا العظم يا أبا (م ح م د)؟

فقال عليه السلام: ((هذا عظم نبي من أنبياء الله تعالى، وهذا رجل من نسل ذلك النبي فوقع في يده هذا العظم، وما كشف عن عظم نبي إلاَّ هطلت السماء بالمطر))(1).

من هذه القضية _ وقضية السامري المتقدّمة وأشباههما _ تدرك

1- بحار الأنوار 50: 271.

أن في الأمم الأخرى أيضاً من يتطلّع إلى خرق العادة، بواسطة إلهية، ولو بالتمويه والخداع، والظواهر الغريبة الخارقة للعادة، يؤمن بها جلّ الناس والشاذ منهم يدمغه علمه ووجدانه للخوارق، نعم يختلف البشر في تفسير هذه الظواهر، وهنالك علم متكفّل بدراسة جملة من خوارق العادات(1)، هذا العلم يحاول أن يقدّم تفسيراً مادياً.

والكافر في قرارة نفسه يشعر بالقهر والعجز الذي يهيمن عليه، وهو يرى هذه الكرامات، فهو وإن تغنى بما وصل إليه من خارق للعادة، إلاّ أنه يعلم أنها ليست بحبوة مكتسبة، بل هي قناع مزيّف أبدعته نفس متمرّدة وشياطين مردة إضلالاً وتضليلاً لخلق الله.

لأنه يدرك تماماً أنَّ ما يحدثه من خرق للعادة، يتمُّ عبر قهر النفس، وتحمّل المشاق بما يخالف الفطرة، الأمر الذي يوجد في نفسه قلقاً واضطراباً، وهذا ناتج من عدم السكينة والاطمئنان وهما من لوازم الإيمان.

ويدرك أنَّ مظاهر سلوكه غير عقلانية، أو قل في سلوكه مسحات جنون فتراه مشتّت الذهن يسبح في أوهام لا شاطئ لها، وإذا سائلته عمّا يحمل؟!.. أحالك على ظلام لا ضياء فيه، وهل يكون الكذب معبراً للحق والحقيقة؟!

ومن التعريف تطل علينا خصائص ذوي الكرامة فهي حبوة لولي الله، إذ الأولياء جمع ولي، والولي مشتق من الوَلاء وهو القرب، كما أن العدو مشتق من العَدو وهو البعد.

1- هو الباراسيكولوجيا يعرفه د. روجيه شكيب الخوري في موسوعته سلسلة العلوم الباراسيكولوجية بأنه نوع من علم النفس يدرس الظاهرات التي تبدو لأوّل وهلة مستغلقة على التفسير أو فوق مستوى الفهم.

فالكرامة تنم عن قرب ما من الله سبحانه وتعالى، والمعجز تنبأ عن صدق الدعوى، والإرهاصات وهي: مقدمات تظهر تبشيراً وتنبيهاً لمقدم رسول، أو إطلالة ولي، وقد تقدَّمت صفات الأولياء وموجبات القرب من الباري.

كرامة الأحياء والأموات:

ولا تختص الكرامات بأحياء الأولياء فكما تكون للحي منهم تكون للميت أيضاً، وقد يعلَّل ذلك _ بحسب أدبيات المذهب _ بعدم الفرق بين الحي والميت في هذه المسألة، بل صريح القرآن يثبت الحياة للشهداء، ويثبت تفاعلهم مع عالمنا عالم الدنيا قال تعالى: ((وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ))(1) هذا من طرف قرآني، ومن طرف روائي، فالأخبار والآثار الدالة على حدوث الكرامات للأولياء أحياءً وأمواتاً، تبلغ حدَّ التواتر، حتّى أن ابن تيمية، وهو رأس حربة التشنيع على من يقصد قبور الأنبياء والمرسلين متوسلاً، يقرُّ بحدوث الكرامات(2)، وتحقّق الإرشاد من الشهداء والصالحين، وهم في مضاجعهم، ويعرف الكثير من كرامات القبور، وإن

1- آل عمران: 169 - 171، وهنالك آيات أخرى لا يسعها هذا المختصر.

2- يعد الإيمان بكرامات الأولياء من أصول أهل السّنّة والجماعة، ولعلَّ ذهابه لهذا الرأي ببركة سارية الجبل؟!. برغم أن سارية الجبل بحسب بعض الروايات التاريخية يرجع الفضل فيها لأمير المؤمنين عليه السلام والمشتهر أنها لعمر؟!.

كان يتفلسف بنغمة النهي عن سؤالهم أو يتغنى بسمفونية الافتتان بما لم تقم حجة عليه.

وقد لا يحسن الجري وراء ما انتشر بين الناس من طقوس وعادات في سبيل جمع الشواهد الوجدانية لكرامات القبور، بل تكفينا المأثورات الدينية التي لا يرقى إليها الشكّ، فقد ورد الحثُّ على طلب الحاجة عند قبر الوالدين(1)، وعموماً مواطن إجابة الدعاء، زماناً، ومكاناً، وصفةً، مما لا يختلف فيه اثنان، فإذا كان للزمان والمكان كرامة، فالمؤمن ميتاً كان أو حياً أولى بها.

الكرامة ولوثة الشيطان:

يوجد أشخاص تظهر عليهم آثار تشبه آثار الكرامة، فيخبرون بماضٍ كما في قصة الهندي الآتية، أو يدفعون ضراً، ويتصرّفون بما لا يقدر عليه مجموعات، ممن عاصروهم، وكأن عندهم من العلم ما لا يوجد عند غيرهم، أو نالت نفوسهم من الحبِّ ما نيط به قلب الوجود فهم يتصرّفون في الكائنات، وكأنَّ لهم سُخّرت، وعلى رضاهم دارت رحاها، وهم في قرارة واقعهم منكَّسيّ الخلقة أصابهم من الشيطان مسٌّ فكلٌّ ظاهرهم ممتع ((وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ))(2).

فكيف يعرف الصادق من الكاذب في مثل هذه المواطن؟!

هذا السؤال طالما دار في خلد الناس، فيقف أحدهم متعجباً من ظهور أمر خارق على يد من لا خلاق له، وهو لا يدري أن ما جرى

1- بحار الأنوار 10: 97.

2- البقرة: 204.

مجرد وهم زيَّنه الشيطان، ولو تأمل قليلاً، لعلم أن عقول البشرية تكاملت، حتّى قلّت الحاجة إلى الحجج الملموسة، ولك القول: كاد أن يولّي زمن الحجج المادية، فالدين احتج بالعقل، والناس دانوا بالدين بتقبّل عقلي، وعلموا صدق النبوة، بلطيف إخبار النبي، وبإقرار الباري تبارك وتعالى مدّعي النبوة وما ادّعى.

وأما الكرامة فهي آثار محبة ولتلك المحبة مراتب، يجد آثارها السائر في طاعة الله تبارك وتعالى، فأوّل شيء يركن إليه في مثل هذه المواطن، هو العقل فإن كان صاحب الكرامة، ممن هو ملتزم بشرع الله أدرك العقل ما حبي من كرامة، وهي إشراقة الاتّباع، وإطلالة المحبة والانقياد.

والشيء الذي يميّز الصادق عن الكاذب، يختلف باختلاف المصداق، فالموغل في النفاق، لا يسهل كشف زيفه، كسهولة كشف زيف من هو على أبواب النفاق وولجه للتو، الأمر الذي يتطلّب حصافة كبيرة إذ (الحق لا يميّز بالرجال)، ((اعرف الحق تعرف أهله))(1) وعليه فمن ترك زينة الدنيا، من مالٍ، ونساءٍ، وصلّى، وصام، ينظر في فعله هذا، هل هو لله، أو لأجل أمر هو عنده همّه وهمّته كالرئاسة(2) مثلاً، فإن صادف تعبّده من أجل القدرة، والشأنية، فلا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً، وحينئذٍ يكون ما تأجج حوله، من لهب الخوارق، نار الشيطان الغوي، لا ربط لها بقبس الأنبياء والمرسلين، وإلاّ فنعم ونعمت هذه حالة.

وحالة أخرى يشتدُّ عزم المرائي ويحكم نسجه، بنحو لا يكاد يبين

1- بحار الأنوار 27: 160.

2- وردت روايات عدّة تحذّر من طلاب الرئاسة وأن الرجل قد يترك كل شيء من أجلها. لاحظ باب طلب الرئاسة في كتاب الكافي ولاحظ أبواب الرياء.

منه زيغ، ولا يبـدو عليه طمع في رئاسة، فهنا لا بدَّ من النظر في نفس الكرامة التي تظهر عليه هل هو متعمد لها؟ محب لبروزها! كي يعدّ في الزاهدين، أو أنها تبدو غالبة له قاهرة قواه، فإن كان الأوّل فقد عرته لوثة شيطان، وأخلدته إلى الأرض، أو كادت تهوي به في مكان سحيق.

نعم هنالـك من المجتبين الأخيار ـ وجلَّهم سـلالة الأنبياء ـ من يُظهِر حبوته إنقاذاً لنفسٍ يحسن الرفق بها، أو تملي الإنسانيـة مكافاتها، أو تقضـي الرحمـة الإلهيـة بانتشالها، فمثل هـذا الفرد لا يتهمُّ بظهور خارق العادة على يديه، وإن تكرر ظهورها، أو صـرفها في خدمة الناس، ومثل هكذا إنسان قد يحتاج إليه البشـر لإصلاح ما أفسدوا، وتدارك ما ضيَّعوا، وقد يقتضيه اللطف بعد تقاصر قدرة الممكنات، وتخاذل قوى العقل أمام زيف الشيطان.

الفرق بين مكتسبات الإنسان والكرامة:

لعلَّ المدخل الرائق للتفريق بين الكرامة ومكتسـبات الإنسان، ما حدث لذلك الرجل الذي كان يخالف هواه، فحصلت لديه شفافية، مكنته من إخبار الناس بما عملوا وما أرادوا(1)، وبعد زمن ـ بعد عرض الإسـلام عليه وتأبّي نفسه للدين ـ من إسـلامه جرياً على عادة المخالفة، نُزّه عن التلهّي بإخبار الناس عمّا أحدثوا وما أرادوا، فجاء إلى الإمام عليه السلام متعجباً مما حدث له!!

فأجابه ـ ما مضمونه ـ أن تلك القدرة كانت ثواب(2) مخالفتك

1- هذا اللون من الأخبار في السابق يعدُّ من الخوارق والكرامات، واليوم يعدُّ من القدرات التي يمكن أن ينالها الكثير من الناس.

2- يطلق الثواب ويراد به العوض وهذا التعبير شائع ذائع في فعل من لا نصيب له في الآخرة فيما لو فعل شيئاً حسناً.

لهواك، إذ لم يكن لـك نصـيب في الآـخرة، وبعـد إسـلامك اذخر لك ثواب مخالفـة الهوى، إذاً الطبع الأولي لخفايا عمل الإنسان السوي، ظهور تلك الخفايا في عالم آخر أما أنها تبدو في عالمه، هذا فليس إلاَّ نحواً من تعجيل الثواب.

أما الكرامـة فليست ثواباً معجلاً، ولا آثاراً ذاتية للفعل يحصل لكل من كانت لديه ملكة ذلك الفعل، بل يتسـنّى القول بأنها ليس بحبوة مقام إلهي، بل هي تحفـة الباري لوليه يعطيها إيّاه بطلب منه أو بـدون طلب، لا يتـدخّل فيها في أصل حدوثها درجة إيمانه، أو علو مقام، وإن أثّر فيها بشكل ما؟!

إذن الكرامـة تحفـة البـاري تبارك وتعالى وفاكهـة الحبّ، يسـتحقّها من راقب الله وخشاه، ولم يقترح عليه ذلك؛ محلّها ذلك الـذي يرتقب الناس فيض بركاته، وتنامي عطياته التي يُعجز عن مثلها، وهو معنى بفقده تفقد الأرض نسائم الود ودلائل الحبّ.

الكرامة بين صبغتي الصدق والكذب:

كيف يعرف الصادق من الكاذب في مثل هذه المواطن؟!

تقدّم في ثنايا النظرات بعض الكلام حول المعايير التي تميّز الصادق من الكاذب وهذه أهم معايير التمييز والتي لها مساس مباشر في معرفة الكرامة(1):

1 _ السكينة والاطمئنان والوقار، فعدمهما من العلامات التي

1- لا حاجـة لبيان أهميـة العلم بالشـرع والشـريعة والعلم بسـيرة من يظهر خوارق الأفعال لمعرفـة حقيقـة ما يبـديه من خوارق لأنهما من الضروريات.

تعرّف الإنسـان نفسه، وتعرّف الناس بمقامه، فمن لم يتلبّس بهما يـدرك ويـدرك الناس معه، أنه على غير الجادة والصواب، ولعلّها تكون من أهم السمات التي تبيّن حالة ذوي الخوارق، وتكشف عن حال ما حفَّ بهم، وهل هو من نور الكليم أو نار اللئيم، وهذا أمر يستدعي الوقوف على حال السكينة وخصائصها، وهي وقفة خارج موضوع البحث، لكن تمسُّ الحاجة إليه، فالسكينة نوع خاص من الطمأنينة النفسانية ـ غير الـذي نلمسه عند الشـجاع في الحروب ـ إلى ما آمنت به فما تنساه، وهي لا تعطى إلاَّ لفئةٍ خاصة عندهم إيمان راسخ، ولا يرتكبون الكبائر قـال تعالى: ((لَقَـدْ نَصَـرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَـيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُـدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَـكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَعَـذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ))(1) بل السـكينة متفرّعـة عن الإيمـان فهي صـفة تحتـاج في وجودهـا إلى مرتبـة من مراتب الإيمان قال تعالى: ((لَقَـدْ رَضِـيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَـةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً))(2) وهي مع ذلـك توجب ازدياد الإيمان، قال تعالى: ((هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَـةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيمانـاً مَعَ إِيمـانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمـاواتِ وَالأَرْضِ وَكـانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً))(3) وما كانت كـذلك إلاَّ لكونها مصاحبة لما جاء به الأنبياء وإليه يشـير قوله تعالى: ((وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَـكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَآلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ

1- التوبة: 25 و26.

2- الفتح: 18.

3- الفتح: 4.

الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ))(1) ومن ذلك كلّه يظهر أن السكينة من السمات البارزة التي يتميّز بها صاحب الكرامة الإلهية(2)، فإذاً ظهور آثار السكينة والوقار من السمات التي يتحلّى بها أهل الكرامة والولاية.

2 ـ خلطه بين حبّ أولياء الله وحبّ أعدائهم أو عدم بغضه لأعداء الله، مع دعواه المحبة لأولياء الله؛ ويعدُّ هذا اللون من التخبط من أبرز العلامات، لأن صاحبه يخالف ما هو صريح القرآن في باب المحبة والمودة، قال تعالى: ((لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ))(3) والجمع بين محبتين محبة الحبيب ومحبة عدوه، يخالف ما عليه طقوس الفطرة في هياكل الحبّ ومعابده.

3 ـ ترى المتميّز في تدليسه منهم ـ وهو الذي يغلّف باطله بشيء من الهدى ـ عازفاً عن الدنيا وملذاتها، لكنَّه أسير التأمّر والرئاسة، وهي أنوثة الدنيا التي لا تقاوم؟!

فمن كان سلوكه طبق موازين الشريعة مخالفاً لهواه ساعياً لمرضاة ربّه ـ وإن كان رئيساً مطاعاً ـ فغير مدلّسٍ، ومن كان في سلوكه لاوياً للشريعة من أجل نفعه، فهو مدلّس سواء كان عارياً من ثوب الرئاسة، أو متقمّصاً لبعض حليها.

1- البقرة: 248.

2- هذا فيه خلاصة بيان السيد الطباطبائي في ميزانه حول السكينة وهو جدير بالمطالعة.

3- المجادلة: 22.

4 ـ ومن أهم ما يميّز الكافر واقعاً، والمسلم ظاهراً، بروز صفات النفاق فيه، تراه مظهراً للإيمان، لكن عنوان صفحته وصبغة وجهه، هي عين علامات النفاق يطلب أجر فعله عاجلاً وقد بيّنت الأحاديث النبوية الكثير من علامات النفاق وموجباته، فمن علامات النفاق بغض الوصي، ومن موجباته سماع الغناء فإنَّه ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع.

5 ـ روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في عهد الأشتر من (أنه يستدل على الصالحين بما يجري الله تعالى لهم على ألسنة عباده)(1).

وهذه من العلامات التي لا تحتاج لمزيد بيان ويكفي مراجعة ما تقدَّم من كلمات ليتّضح حال الصالحين.

فذلكة القول:

إنَّ الكرامة الربانية تظهر على يد أهل الحكمة والتقوى الذين همّهم رضا الباري تبارك وتعالى، والذين لا ينكر العقل من سيرتهم شيئاً، ولا يميل بهم الهوى عن ربهم ميلاً، وأما من تشبه من الناس بهم، فهؤلاء وإن أشكل على الجلّ معرفتهم إلاَّ أن أهل العلم والتقوى يدركون زيفهم وضلالهم، لذا تشخيص عبد الحق من عبد الضلال، يحتاج إلى علم ومعرفة بما يريد الشرع، ويحتاج لمعرفة ضلال إبليس كيف يكون؟! وأين يكمن؟! وهذا يختلف من فرد إلى فرد سواء في ذلك المميّز والمميَّز إذ كلما أوغل المرء في نفاقه، كلما صعب كشف زيفه فاحتاج إلى عالم عاقل يميط لثام جهله، بل يبلغ الأمر إلى حدٍّ لا يتمكّن معرفة واقع الشخص سوى الذي خلقه، لذا قال علماؤنا رضوان

1- نهج البلاغة (صبحي الصالح): 263/ في عهده إلى مالك الأشتر.

الله عليهم: بأنَّ تعيين الإمام لا يكون إلاّ بيد الله سبحانه وتعالى، وبذلك وردت الأخبار عن أئمّة الهدى عليهم السلام، ولك في قصة موسى واختياره من قومه سبعين رجلا(1) خير شاهد على ما يقوله علماؤنا الأبرار، فلا يعقل أن يكون ولياً لله وهو عدو لآل الله، ولا يعقل أن يكون ولياً جاهلاً، لا علم عنده ولا معرفة لديه، وأيضاً كيف يصبح ولياً لله وهو يظهر نفسه بالكرامات من دون موجب لإظهارها.

ومن طرائف طرق الكشف أن ما يخفيه الرجال يظهر على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم، ولكن هناك من يتقن إخفاء قسمات الوجه، وفي قباله هناك من يتقن كشف ما أخفي، وكلاهما يحتاج إلى علم ومعرفة، ولعلَّ هذا من المواطن التي ينبغي في تشخيصها الرجوع إلى العالم.

وأهم السمات التي يمكن الركون إليها حين القيام بالفحص عن الكرامة، النظر إلى صاحب الكرامة، فإن كانت تعلوه السكينة والوقار والاطمئنان ـ كما تقدَّم في الحديث عن فعل الكافر للخوارق ـ يحبّ أولياء الله ويبغض أعدائهم فهو ممن يرجى صلاحه وإلاَّ فلا.

كرامة العقيدة والمعتقد :

كرامة العقيدة والمعتقد(2):

في بعض الحالات لا تكون المسألة، مسألة كرامة أو لوثة شيطان، وإنما أثر لعقيدة إنسان مّا في شيءٍ مّا، وقد ورد في الأثر عن النبي صلى الله عليه وآله: ((المرء يحشر

1- قال تعالى: ((وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ)) (الأعراف: 155).
2- يفرّق بعض الباحثين بين أثر الإيمان وأثر العقيدة، وإنَّ جلّ ما في أيدي الناس أثر للعقيدة لا للإيمان.

مع من أحبّ حتّى لو أحبّ أحدكم حجراً حشر معه))(1). أن من اعتقد في شيءٍ أثّر فيه، وهذا المعنى تارة يرتبط بالحبّ، والحبُّ يشجّع الجبان ويجبّن الشجاع، وأخرى لا يرتبط بجانبٍ قلبي، أو شعورٍ وجداني، ولك القول لا يرتبط بمكامن الحبّ، وإنما يرتبط بجانبٍ نفسي وذهني، وقد يروق للبعض التعبير عنه: بأنه يرتبط بقطع الإنسان ويقينه، وكلا الصورتين لهما تحقق في الخارج، والمهم معرفة الفارق بين كرامة الولي وناتج العقيدة مع قبول التداخل بينهما؟!

وفي محاولة تلمّس الجواب ينبغي ألاّ نغفل عن حقيقة هي أنَّ أثر العقيدة ـ سواء كان منشأها القطع أو كان منشأها الحبّ ـ آني مرتبط بحياة المعتقد فيما لو لم تزل عقيدته بينما كرامة الولي غير آنية.

وأيضاً لا تُنْكَر آثار الاعتقاد في حياة الإنسان وتعقّلاته، ولا يصحُّ إهمال ما يقوم به الاعتقاد من ربط الإنسان بالباري تبارك وتعالى، فإنَّ لذلك الربط بعض الآثار وإن لم يكن متعلّقه سليماً، وأنَّ الحبَّ والقطع وإن أثّرا نوعاً ما في خرق ما هو متعارف، وقد يصلان إلى درجة تسخير الأشياء(2)، لكنَّهما لا يصلان إلى درجة التصرّف في الكائنات إلاّ إذا ارتبطا بالغيب، إذ هما من المعاني الإضافية ذات التعلّق والتي لمقدار تعلّقها ولمتعلّقها أهمية عظمى في تحديد قدر آثارها ومقداره وهذه الكلمات تكفي في لفت النظر إليهما.

ويمكن التمييز بين الحالتين ـ حالة الاعتقاد وحالة الولي الحقيقي ـ أن الاعتقاد مرتبط بالمعتقِد وقوة المعتقَد، فإذا قوي الاعتقاد ووقع

1- تفسير ابن عربي 1: 42.

2- لاحظ آيات التسخير فإنَّها تفيد في المقام.

على مصـداقه الواقعي ظهر ما يوافق الحكمـة والمبتغى، وإذا قوي الاعتقاد ولـم يقع على مصداقه الواقعي فهنا قد يكون له أثر لكن ذلك الأثر ليس للمصـداق الخطـأ، بـل هو أثر للمقصود الواقعي وإن أخطـأ المكلف في إظهار مقصوده لاشـتباهه في التطبيق، ورحمـة الباري تبارك وتعالى ولطفه تدرك الداعي بمجرَّد التفاته إلى بارئه حتّى لو كان فرعون(1).

فلو توسل إنسان ما برجلٍ، وهو صادق في توسـله، ويقطع بأنه ولي لله، وكان المتوسل به عـدواً لله في الواقع، فإجابـة الـدعاء حينئـذٍ ليسـت كرامـة ولا إجلالاً لـذاك المتوسل به ظاهراً، بل من أجل الـداعي الواقعي الـذي تحرَّك به المتوسل، وإن أخطأ في تطبيقه، ولا يخفى أن هـذا المرء، وإن ضلَّ السبيل، لكنَّه لا يعـدم من الرحمـة الإلهيـة نسـيم ينقـذه، وهنا وقع لَبْسٌ عنـد كثير من الناس في الولي وكراماته، حيث رأوا أوليـاء الله تحبى بالكرامات، وبين الخلق من يبـدو في جوانبه حباء، وهو خلو من كل ما يمتُّ لله بصـلة، والـذي يرفع اللبس هو ما نادى به القرآن الكريم من التأمل والتـدبّر(2) ومـا حـذَّرت منه الروايات من أنه لا يعرف المؤمنُ الحقَّ إلاَّ بعلامات دُلَّ عليها، وتقـدَّم ذكر شـطرها الأكبر، وأهمّها كون سـيرة المتوسل به إلى الله، مسلّم أمره إلى بارئه، توافق أفعاله أحكام الشريعة، وتبتني وفق أسس العقل والعقل عليه سمة الإيمان ووقاره لا نفاق الشيطان ودثاره.

أما من يردّ على الله أمره أو من يسعى في تطيب ذكره ويقترح على الله بهواه فلا كرامة له.

1- ورد هذا المعنى في الأدعية وأخبارها، لاحظ اللحظات الأخيرة من حياة فرعون وقارون؟!

2- راجع قصة السامري وما أبدع ولاحظ معالجة موسى وهارون لتلك الفتنة.

إذاً من البدء نحتاج إلى تعلّم الدين، وتعلّم كيف يمكن نيل التديّن، وينبغي الالتفات إلى سيرة العبد الذي نعتقد بأنه ولي هل تتوافق مع الشرع والشريعة أو لا تتوافق معها، وأحسن ما قيل من كلمات تشمل هذا الباب وغيره، كلمة أمير المؤمنين عليه السلام: ((الحق لا يميّز بالرجال اعرف الحق تعرف أهله))(1).

أثر الكرامة في حياة المؤمن:

تقدَّم أنَّ وجود هذه الظواهر الخارقة للسنن الكونية، لا يلغي ما أثبته القرآن من نظم كوني، سواء في ذلك السنن التكوينية أو الاجتماعية، بل على العكس تماماً بإثبات خرق العادة تقرّر قدرة الباري تبارك وتعالى، وهيمنته على مجاري الأمور، وأنَّها ليست خارجة عن طوعه، إذ أنَّ خرق العادة والسنن الكونية كلّها ترجع إلى سبب واحد هي إرادته سبحانه وتعالى، وليس بينها ما هو متمرّد عليه؛ على أنَّ خرق العادة لا يتضارب مع السنن الكونية، لأنَّه وإن كان ظاهره المنافاة لكن قد تكون آليته وفق تلك السنن.

فما طرحه الدين في هذا المضمار من توافر خرق العادة لأوليائه، جزء من تقرير حقيقة قرآنية مفادها، أنَّ الكون مخلوق من أجل الإنسان قال تعالى: ((هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ))(2) فهي تحت إرادته وطواعيته، نعم تعتري الدهشة الخلق من خوارق التكوين، وقد عالج الكتاب العزيز

1- بحار الأنوار 40: 126.

2- البقرة: 29.

هذه الدهشة بالنصّ على قدرة الباري تبارك وتعالى وعلى فيض رحمته وبركاته: ((قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ))(1).

إذاً للكرامة حقيقة واقعية، تربط وتُنشّئ المؤمن في محيط النعم الإلهية، فلا شيء يقف أمام الملتجأ، ولا شيء يحول بين العبد وبين الوصول إلى مرامه، طالما فوض أموره إلى الباري عز وجل إلاّ أن تحوله بينه وبين ربه خطاياه.

فالكرامة في نفس الوقت، تُري الكافر فسحة الدين والتديّن، وهيمنة معطياته على الخليقة، وترزي بتقوقع الكافر في بؤرة منقطعة عن فيض السماء، فللكرامة آثار حيوية تسقي روح الإيمان في الإنسان، وتجعل عهد العبد بربه متجدّداً كل آن لا ينغصها وسوسة شيطان ف- ((إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ))(2) هنا يتجلّى بوضوح أنّ الكرامة بمثابة معيار للقرب من الباري تبارك وتعالى، وأنّ مثل هذه الظواهر ينمُّ عن وجود مقياس للسلوك الديني، يختلف كمّاً، وكيفاً، ودرجةً، من فرد لآخر؛ لأنّ أولى سمات أهل الكرامة سمات التديّن بدين الله، والسير على نهج عباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

1- هود: 73.

2- البقرة: 26 و27.

إذاً الكرامة ميسم القرب من الباري تبارك وتعالى ونبتة الفضل والتديّن.

ومن خصائصها المهمّة وآثارها الخطيرة في حياة المؤمن أنَّها سيماء الحق والحقيقة ومع تحقّق الكرامة للعبد وحدوثها له يدركها العاقل بعقله، والعالم بعلمه، والمؤمن بإيمانه، وكل من العقل والعلم والإيمان يشهد بصدق صاحبها، وفي الخبر يشتكي ابن مسلمة لأبي عبد الله عليه السلام ويقول:

يوبّخونا ويكذّبونا أنَّا نقول: إنَّ صيحتين تكونان.

يقولون من أين تعرف المحقّة من المبطلة إذا كانتا؟!

قال عليه السلام: ((فماذا تردُّون عليهم؟)).

قلت: ما نردُّ عليهم شيئاً!

قال عليه السلام: ((قولوا : يصدّق بها إذا كانت من كان يؤمن بها من قبل إنَّ الله عز وجل يقول: ((أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ))(1))(2).

الكرامة ظلال الرحمة:

الأولياء منبع الكرامة ومصدرها المشرق في أفق الكون الوسيع لكن رؤية الكرامات والالتفات إليها يكثر عادة بين أولئك الذين في نفوسهم صفاء، لم يهجم عليهم شكّ المشكّكين، ولا لبس الملبّسين، وهؤلاء ثُلّة من الذين امتزجت عقولهم بودّهم ومحبتهم.

ولا يقلُّ ظهور الكرامات عند من كَثُر تعاطيه لمقرَّرات العقل، أو عالجت نفسه، وكابدت وساوس المشكّكين وإن قلَّت حاجته إلى تجلّي الكرامة، وبقدر

1- يونس: 35.

2- بحار الأنوار 52: 299.

ما كابـدوا وتعاطوا تقلَّ حاجتهم لتجلّي الكرامات، ولا يعني ذلك أنهم مرضـى العقيـدة بل بالعكس، فإنَّ الكثير منهم ممن بنى عقيدته بناءً محكماً.

ولا شأن لهـذه الكلمات بمن أضـلَّه الشـيطان وأخذ طرفاً من هنا وهناك وهو يحسب أن لديه علماً، فهكذا شـخص قد يؤمن بالكرامات، وما يرى منها إلاَّ أن واقع مرماه آثار العقيدة فقط.

والثُلّة الأولى منها من بُنيت عقائـده، ومنها من لم تُبنَ لكن مظهر الود لـديها أجلى، فبالتالي هي أمسُّ حاجة لهذا اللطف وأقرب إلى نبعه، فمكمن الكثرة والقلة هو شدّة الاعتقاد والحبّ وضعفهما.

وهناك فرق بين ارتباط هذه المسألة بالعلم والجهل وبين ارتباط أشـباهها كلوثة الشيطان ـ من سحر وشعوذة وما شابه ـ بالعلم والجهل؛ إذ السـحر يكثر بين الجهّال، وأما الكرامات فإنَّها تسـعف العالم وتسـعف من قلَّ حظّه من العلم لكنَّه لم يقصر قلبه عن الحبّ، والحبّ لازمه الانقياد واتّباع أوامر الله.

والقرآن الكريم يثبت خصائص كإحياء الموتى والإنباء بالغيب لسادة العلماء ولباب الخلق، وليس إثباته هذا لمن قلَّت معرفته، بل إنما يثبتها لمن بلغ الغاية في العلم والمعرفة لكن كما استفاد منها العالم الفاضل كذا استفاد منها الكثير من الجهّال.

إذن الرحمة الإلهية تتجلّى في الأولياء وتمتد ظلالها، فينعم فيها أهل الود والحبّ وجماعة كثر ممن تسعهم الرحمة وهم في منأى منها.

الكرامة وسحر بني إسرائيل القديم منه والجديد:

لعلَّ الساحر ارتكز في بدايات عمله السحر على فكرة قلب الحقائق وجعل ما ليس بواقع واقعاً بأيّ وسيلة وجد إليها سبيلاً، لذا ترى

السـحر يكثر بين من يقلّ عنده العلم ويسـيطر عليه الوهم وهمّه الأساسـي تسيير رؤى الناس وكسر نفوسهم بنحو يجعلهم يعيشون في واقع افتراضي منقطعين بذلك عن الواقع الخارجي.

ومرَّت صـنعة السـحر بأدوارٍ تبعاً لمستوى درك الفاعل والمنفعل، ففي مثل حال بني إسرائيل طلب فرعون أناساً يواجهون موسى تتوافر فيهم خصـلتان إحـداهما العلم والأخرى السـحر، فالشـخص الذي يركن إليه فرعون في المواجهة سـحّار عليم(1) أي يفترض لـديه معرفة كبيرة متميّزة وقـدرة قويـة عجيبـة على الخديعـة والتأثير في عقول الناس، وحينما بدأت المواجهة في ذلك اليوم المشـهود اجتاح الناس سـيل من الروابط عبرَّت عنها الآثار بأنَّها حبال مجوَّفـة قد ملئت زئبقاً ووضـعت على صـفيح ساخن، ومن شدّة الحرارة تحرّكت _ وهذا جانب معرفي في عمـل السـاحر _ وقـد صاحب تلك المواجهات تمتمات جوفاء توهم بأنَّ المشاهـد الحقيقيـة التي يراها الناس هي ناتـج قـدرة الساحر وكلماته التي يتفوَّه بها، وبهذين الأمرين سيطروا على عقول الناس واسترهبوهم.

هـذه هي حقيقـة الأداة التي أخضـعت الكثير من الناس ولعقود طويلة لسـلطان السـحرة إبّان حكم الفراعنة، وفي قبالهم موسـى الذي ألقى الحقيقـة الناصـعة ومن دون أن يخـدع أحـداً فلقفت تلـك الحبال، وألفت انتباههم إلى زيف ما يرون، فهنا أرجع موسـى الناس إلى واقعهم وأيقظ عقولهم وبعث فطرتهم، فأوّل من آمن به من يعرف أنَّ السحر خداع ومكيدة فقط.

والغرض أن في زماننا هـذا نرى أن صـنعة السـحر تغيَّرت ملامحها كثيراً حتّى بدت وكأنها شـيء آخر غير ما حفظته آثار السابقين، لكن لبَّ الفكرة

1- من لطائف القرآن وكلّه لطائف أن هـذا التعبير ورد في سورة الشـعراء ومن الشـعر حكمـة ومن البيان سـحراً كما روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

يتمحور حول شيء واحد وهو علم ومعرفة وتمويه للحقيقة، تلك هي صنعة الإعلام بأقدم وسائله وبأحدثها _ الإشاعة والاتصالات _ والملفت للنظر أن السحر في القديم اشتهر به بنو إسرائيل، واليوم هم الذين يسيطرون على الإعلام.

وهنا قد يقف القارئ متسائلاً: ما الرابط بين هذا الموضوع وبين موضوع الكرامة؟ وأيّ علاقة بينهما؟!

لن يطول اللبث في المقام، ولن يجهد الفكر في معرفة العلاقة وإن احتاج إلى مقدمات تنبّه على مكمن السر وموطن الحقيقة، وتلك المقدمات هي:

1 _ أنَّ مصير الناس في هذه الدنيا بين إصبعين: الفراعنة والأرباب، ولك القول: إنه بين الساسة والرهبان (علماء الدين) فمسرح الفراعنة الحاجات المادية، ومسرح الأرباب الحاجات الروحية، وبين الفراعنة والأرباب تبادل في الوظائف وتنسيق ما!!

2 _ هناك مقالة قديمة مشهورة تختصر واقع الدول مفادها أن الناس يسيِّرهم الإعلام، والإعلام تسيّره الدولة، والدولة تسيّرها الاستخبارات، وهذه المقولة تختصر مفاد هذه المقدمة وهو أن الإعلام عنصر أساس في تسيير الأمور، وأهم أدواته الإشاعة، وأخطرها الإشاعات ذات الطابع القدسي والديني.

3 _ سلطان الفراعنة ينبع من قوَّتهم المادية بطشاً وفتكاً، وسلطان الأرباب ينبع من قوتهم الروحية و من دعوى الارتباط بالمبدأ والغيب.

4 _ كلتا السلطتين بحاجة إلى برهان وسلطان يتناسب مع حجم الفكرة المعلنة وناموسها، ويتوافق مع الميدان الذي يجري استخدامه فيه.

5 _ يتفق أهل الأديان بل كل العقلاء على أن مدَّعي النبوة لا بدَّ وأن تأتي السماء له بشاهدٍ يشهد بصدقه أو بكذبه، بينما مدّعي الارتباط

بالـدين وبالسـماء وإن رجع في فحواه إلى دعوى الارتبـاط بالباري تبارك وتعالى ولكن العقلاء لا يطالبونه بشـهادة سـماوية تشـهد بصـدق الدعوى أو كذبها لعدم ابتناء مصيرهم على مدّعي الارتباط بالسماء.

6 ـ الأربـاب ومن خلالـ تمويههم يقـدّمون شـهادات زور توحي إلى أوليـائهم أنها شواهـد صـدق على شـرعية مقاماتهم، وبالتالي تكون أقوالهم وأفعالهم بل ورغباتهم مورد قدسية.

7 ـ في مقابـل تمويهـات أهل الباطل يحتاج الناس ـ وهم ذوو مسـتويات مختلفـة في الـدرك فبين قطّاع وظنّين وشـكّاك ـ إلى لمس آثار القرب من الباري سبحانه وتعالى ودلائل ذلك القرب.

هنا تتوقّف الكلمات عن سرد المقدمات ليبدأ القاري بالتأمّل.

تُرى ما هو الشيء الذي يجلب القوة والمصداقية للأرباب أو يوهم بهما؟!

وهل يوجد ثالث غير عون الحق تبارك وتعالى أو زيف الشيطان في الساحات الدينية؟!

وهل يمكن أن يسيطر الأرباب على عقول الناس ومصيرهم من دون تمويه؟!

وهل يغني التمويه عن سوط الفراعنة؟!

وهل هنالك حاجة إنسانية للمس برد الغيب وندى الحقيقة؟!

إذا عرفنا أنَّ السـيطرة على عقول الناس باسم الدين تستلزم توافر وسائط غيبية لدى المتولّي لهذه المهمّة؛ إذا عرفنا هذا علمنا أنَّ مدّعي الدين لا بـدَّ أن يحيط نفسه بهالات غيبيـة تقتضـي ظهور آثار السـماء عليه وهذا شـيء لا يتمكّن منه المضل، فيسـعى للتمويه والمكر والخديعة، وليس بين يديه سوى السحر

بأطواره المختلفة ومسـمَّياته المتنوعة، ولكن لبَّه شـيء واحد هو المكر والخديعة والتمويه، هنا ندرك حساسية دعوى السحر وأثر فاعله، سواء كان ذلك الساحر يلبس عباءة مزركشة أم مدرعة صوف، وهنا نشـعر برياح الكرامات التي تدّعى لأهل الدين وهي نسيمٌ يحنُّ إليه الكثير من الناس وترتاح إلى هبّاته قلوب جمة، هنا نعرف أنَّ الإنسان يستطيب التديّن كما يستطيب غدوه بندى الصباح الباكر.

وصفوة القول:

أنَّه كما يعين الشـياطين أعوانهم بالمكر والخديعة المناسبة لشكل ومضمون التضليل، كذلك يُعان ولي الله عز وجل بما يناسب مقامه وقربه من الباري سـبحانه وتعالى وبما يلائم دينه الذي ينتمي إليه وينادي به، لذا ترى تناسقاً بين حجج العقل وحجج الدين، وتلمس انسجاماً بين مفردات الدين والتديّن والحقائق الكونية.

كما ترى تنسـيقاً بين الأرباب والفراعنـة، ففرعون يحتاج لسـدّ جوعـة روحه ولو بكذبة دينية، ويحتاج إلى الأرباب كي يسـكن خواطر الناس ويلهيهم عمّا يستبيحه بملكه الغشوم هذا من جهة فرعون.

وأما الرهبان فيـدركون أنَّ ما لـديهم من مكر وبضاعـة لا تفي بسوق الناس إليهم، فهم محتاجون لسوط فرعون من أجل سـدّ عوار الخـديعة وتقوية الزيف الذي نسجوا.

والنتيجـة: كما أنَّ للشـيطان سبيلاً في نصب قطّاع طرق الهدايـة وهو المكر والخديعـة، كذلك للرحمن سـبلاً في قطع دابر الشـياطين أسُّها حجج العقل ودلائله، وروحها كرامات أوليائه، فلا محيص عن تناغم بين هذين ليعرف المحق من المبطل إذ كان السحر مطية الشيطان.

ص: 127

وإذا عرفت معنى الكرامة، وعلمت خصيصتها التي تنفرد بها عمّا يشاكلها، وأدركت آثارها، وألممت ببعض مقاماتها، وتبيَّن لك شأن الكرامة ومصدرها، إذا عرفت كل ذلك تأتي ساعة الحديث عن كرامات الأولياء بشكل مستمد مما تقدَّم البحث فيه، والمقام يخصُّ نجل سادة بلغ شأوه الديني قاب قوسين أو أدنى من مقام الإمامة العظمى وقصرت عن عظمته خطى الدنيا؛ إذ لم يحل الموت بينه وبين الجود والعطاء، فلا بدَّ وأن تكون الكلمات تستشف بعض ملابسات الكرامة.

الملازمة بين الكرامة والقرب من الباري:

بادئ ذي بدء يمكن القول: إنَّ الكرامة مظهر من مظاهر القرب والدنو من الباري، ولكن ليس ثَمّة ملازمة بين مقام القرب وظهور الكرامة فقد يكون ثَمّة ولي لله ولا تظهر له كرامات، والعقل لا يرى ملازمة بين الأمرين، بل هو مقتضى الإخفاء في الحديث المروي عن أبي جعفر عن آباءه عن علي عليهم السلام: ((إنَّ الله أخفى أربعة في أربعة: أخفى رضاه في طاعته، وأخفى سخطه في معصيته، وأخفى إجابته في دعوته، وأخفى وليه في عباده، فلا تستصغرن عبداً من عبيد الله فربما يكون وليه وأنت لا تعلم))(1) نعم إخفاء الولي لا يعني أنَّ الولي دائماً وأبداً يخفي على الناس، فقد ورد على لسان أمير المؤمنين عليه السلام: ((وإنَّما يستدلُّ على الصالحين بما يجريه الله لهم على ألسن عباده))(2) فهذه الرواية وإن كانت تتحدّث عمّن هو أعم من الولي، والعام لا يثبت الخاص إلاَّ أنَّ القدر المتيقّن من الصالحين هم الأولياء _ كل ولي صالح ولا عكس _ فهذا مضافاً إلى القضايا

1- وسائل الشيعة 1: 116/ ح 6.

2- نهج البلاغة 3: 83/ من عهده إلى مالك الأشتر.

المبثوثة في القرآن الكريم وكتب الأحاديث يعلم أن صدور الكرامة شيء ملازم وكاشف عن القرب من الباري تبارك وتعالى، وهذه الملازمة وإن لم تكن عقلية إلاَّ أنها ملازمة عرفية لا تكاد تخفى على أحد، إذن يمكن القول بوجود الملازمة عرفاً وإن لم تكن ثَمّة ملازمة عقلاً.

كما أنَّ هنالك ملازمة يقضي بها العقل في موارد خاصة كما في موارد إثبات بعض المقامات الخاصة للنبي أو الإمام أو إثبات عين إمامة الإمام وهذه الملازمة مناطها قبح جريان فعل خارق للعادة على يد مدع لمقام إلهي فيما لو كان ذلك الإدّعاء موجباً لتضليل عام، وإن لم يوجب إضلال الكل.

حكم الاعتقاد بالكرامة :

حكم الاعتقاد بالكرامة(1):

لما اتّضح أنَّ الكرامة هي فعل خارق للعادة تصدر من غير اقتران بادّعاء النبوة، وأنَّ لها مراتب، فلربما يصدر بعضها من غير النبي بل من غير المعصوم.

فلنا أن نسأل عن الموقف الشرعي للمكلف اتجاهها؟!

ولنا أن نسأل عن محل الكرامة من علم الكلام هل يصنفها ضمن ضروريات المعتقد على الصعيدين الديني والمذهبي، وإذا لم ترق لمستوى الضرورة فهل هي يجب الاعتقاد بها، ويجب النظر فيها وفي مدّعيها؟!

وهل يوجب إنكار حدوث الكرامة خللاً في عقيدة الفرد المسلم؟!

وهل يُعدُّ منكر حدوث الكرامة عاصياً؟ وهل تكون حالة العصيان هذه من موارد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

1- الأسئلة التي تدور في هذا الفلك متعدّدة الجوانب وكثيرة والغرض عرض صورة إجمالية لما يكتنف الفكرة من دون تحديد موقف منها.

وإذا لم يجب الاعتقاد بالكرامة فهل يعني أنَّ منكرها والمكذّب بها لا بأس عليه بإنكارها ولا يعدَّ عاصياً، أم أنَّ هناك تفصيلاً بين التكذيب بها وبين التوقف في الاعتقاد من غير تكذيب؟!

وهل يفرق الحال بين من شاهدها وجداناً، وبين من قام الدليل عنده على حدوثها، وبين من لم تقم عنده البينة عليها؟!

وهل يؤثّر منشأ الكرامة ومصدرها في جواب تلكم الأسئلة فيكون حكمها إذا نسبت لمعصوم مغايراً للحكم فيما لو نسبت لغير معصوم؟!

وأخيراً:

ما هو الموقف من القول: بأنَّ الدين والتديّن لا يستدعي هذا المعنى؟! وأنه لا حاجة لحدوث الكرامات أو السعي خلف آثارها؟!

الجواب:

لما كان الاعتقاد والإيمان مرتبطاً بإذعان النفس وقبولها بالنتيجة، وهو أمر لا يحدث إلاَّ من خلال النظر في الأدلّة والبراهين، فلا يصحُّ، بل لا يمكن عقلاً أن يطالب الإنسان بالاعتقاد واليقين بالنتيجة من دون النظر في الأدلّة إلاَّ بمعنى التسليم بما نسب للشارع وعدم الاعتراض عليه أو الإنكار له، وهذا يرجع في الحقيقة إلى قبول قول الشارع المقدّس وتصديقه فيما يقول، وعدم تكذيبه فيما جاء به، وهذا المعنى أمر يفرضه العقل والشرع معاً، وبالدقة والتأمّل فيه تجد أنَّ محتواه هو الاعتقاد بكبرى تصديق ما ورد عن الشارع المقدس والتسليم له، لا أنَّه اعتقاد بالمفردة الواردة والكرامة الحاصلة في حدّ نفسها، نعم يمكن القول بوجوب الاعتقاد واليقين طالما أنَّه يمكن تحصيله، بغضّ النظر عن كيفية تحصيل متعلّق الوجوب، فقد يتم بالنظر في الأدلّة والبراهين وله شواهد

قرآنيـة وروائيـة كثيرة بل لا يعدم الشاهد العقلي عليه(1) وعلى أيّ حـالٍ، فمن المعروف أن المـذهب الإمامي الإثني عشـري يوجب على أصـحابه مراجعـة العالم لأخـذ الأحكام الشـرعية الفرعيـة، فشأن الحكم عنـده شأن بقية المعارف على الإنسان أن يأخذها من مظانها، وفق شروط خاصـة مثبتـة، وأما المعتقد وشؤونه فلا تقليد فيه بل ينبغي تحصـيل اليقين والبرهان فيه وهو يعبّر عنه بالاجتهاد في أصول الدين وما يتعلّق بها.

فإذن ما قامت عليه البيّنـة في باب المعتقـدات يـدان به وما لم تقم عليه البيّنـة فلا يـدان به _ نعم يختلف نحو الـدليل الموجب للاعتقاد في درجـة إلزامه وكيفيـة ذلك الإلزام، فلربَّ دليل تكون نتيجته وإلزامه بمسـتوى المشاهـدة الحسـية والوجدانيـة، فمثله يوجـد في النفس اليقين والعلم، ولربَّ دليل يجعل الإنسان في موقف التسـليم وقبول الأمر الواقع وإن لم يكن لديه يقين بمستوى الحس والوجدان لكون الدليل تاماً في نفسه غير قابل للنقض، ولربَّ دليل يلجئه إلى عـدم الإنكار، وإن عانـدت نفسه وكابرت فلم تقبل النتيجة فصاحبه غير متيقّن وغير مسـلّم بمعنى أنه غير منقاد للـدليل لكنه لا ينكر ولا يتنكر لنتيجة الدليل، فيكون إيمانه بنتيجة الدليل إيماناً لولائياً، ومما يؤثّر في النتائج قوة وضـعفاً عقل المبرهن، وأيضاً للمسألة المبرهن عليها تأثير بشكل ما.

وأرقى الأدلّة في باب المعتقد تلك الأدلّة السهلة المنسجمة مع فطرة الإنسان ونسق العقل _ سواء في ذلك أُمّهات المسائل الاعتقادية

1- للإفادة في الموضوع: لاحظ أدلّة وجوب النظر في معجز مدّعي النبوة وفي أدلّة وجوب تعلّم الأحكام.

كأصول الـدين وجزئياتها، وما لا ربط له بالمعتقـدات الدينيـة كعجائب المخلوقات وخوارق العادات، وما له ربط بالمعتقد كالكرامات التي تحدث بين الفينة والأخرى لبعض الأولياء ومن دونهم فإنَّ من اعتقد في شيء أثّر فيه.

إذا تمَّ هـذا المعنى فاتضـاح حكم المسألـة وحالهـا يرتبـط بتحديـد نوعها هل هي من جملـة الأفعال الجوانحيـة التي تقع موضوعاً للحكم الشـرعي الفرعي كوجوب النية، أو هي من جملة المعتقدات التي ينبغي الأخذ بها بحسب الدليل، أو هي مسألة ذات جنبتين وذات حكمين لا تـداخل بينهما حكم للعقل يقضـي بتناولها بحسب الـدليل، وحكم للشـرع يقتضـي بالتفصـيل بين مواردها فمورد يتبع العقل ولا ينطق الشـرع بشيء يغاير مفاد حكم العقل، الكرامات الحاصلة لمن هو دون المعصوم من العلماء والصالحين، ومورد يكون للشرع حكم فيه ولو بمستوى التسليم أو عدم الإنكار، مثل الكرامات التي أخبر بها القرآن الكريم والمعصوم عليه السلام، وذلك لكون إنكار هذه الموارد يستلزم تكـذيب المعصوم أو يسـتلزم إنكار مقاماتهم وكمالاتهم، بعدما ثبت أن كثيراً من الكرامات ناتج مقام وكمال، وتكذيب المعصوم بيّن القبح والظلم، فالتكذيب حرام شـرعاً لكونه من مصاديق الظلم ولأنَّ التكذيب قول بغير علم والقول من غير علم غير جائز، حتّى هنا يمكن القول: إنَّه تكوّنت صورة إجمالية عن الجهة التي ينبغي أن تنظر في حال التعرض لأحكام الكرامة من حيث الاعتقاد بها وإنكارها والنظر في صحتها وما شابه ذلك ولا يسع المقام أكثر من هذا وبالله التوفيق.

* * *

ص: 132

الفصل الثالث: معالجة مفهوم الإمامة وإشكالية البداء في السيد محمّد

اشارة

ص: 133

تمهيد في البداء، معناه و دلائله :

تمهيد في البداء، معناه و دلائله(1):

البداء:

لفـظ حمـل معنى يغـاير معناه اللغوي، وهو: إظهار بعـد إخفاءٍ أو خفاءٍ عن الناس، فيقال: فلان برز فبـدا له من الشـجاعة ما كان مخفياً عن الناس.

وهو معنى يـدعو له العقـل، وتنادي به الكتب السـماوية، ويرفضه الأعشـى، ومفاده وغايته إثبات قـدرة الباري تبارك وتعالى وسـلطانه على التصرُّف في الكون كيف يشاء، وتبيين حكمة الخالق وعدل الرب تبارك وتعالى.

ومن فوائده: تمكين الإنسان بما أعطي من قابلية لأن يوغل في الكمال بما يقصر عن احتوائه مدى الآفاق.

ولا بدَّ من عرض البداء وآثاره لارتباطه بالمقام فإنَّ العظيم الذي ترنو إليه هذه الأسطر اختاره الباري تبارك وتعالى كي يكون محلاً للبداء.

والبـداء وإن كـان إظهارَ أمرٍ خفي عن الناس ولم يخف عن الباري تبارك وتعالى إلاَّ أنَّه أمر يعطي الأسـباب حقَّها في التسبيب الـذي أودعه الله عز وجـل فيهـا من دون أن تقهره في سـلطانه أو تعجزه في إتقـانه، وهو مع ذلـك مفردة تبعث الأمل في النفوس العثرى، وتحيي الإرادة الميتـة، وتقوِّي العزيمـة الواهيـة في طريق المعالي، فلا يأس من روح الله، ولا حـدَّ لكرمه المطلق، ولا خضوع لأسـباب الدنيا الواهية وإن أخذنا بها في كل حركاتنا وسكناتنا، ولكنّا نقرُّ أنَّ الكون هكذا صُنِعَ وهكذا أُجري، وأنَّ

1- للإفادة في هذا المعنى يراجع ما كتبه سيد البيان السيد الخوئي والعلامة البلاغي قدس سرهما.

للإيمان سيادته على هكذا جري، فلنا الجمع بين جريان الأمور بأسبابها التي أبى الله عز وجل إلاّ أن تجري بها وبين هيمنة الباري تعالى جدُّه على كل الأسباب، فهو عز وجل مسبّب الأسباب وسبب من لا سبب له، له القدرة على ردّ القضاء وقد أبرم إبراماً.

إذن البداء معنى يكشف عن قدرة الباري عز وجل على التصرف بالتكوين، فيجعل الشقي سعيداً والسعيد شقياً بحسب اختيار العبد وسعيه وفق ما قدّر الباري ولطف وقضى وأجرى من نظم هذا العالم، فبالدعاء يرد القضاء، وبالتوبة يمحو الذنب، وبالبداء يرتفع اليأس من روح الله وتذهب هيبة الأسباب المادية التي تقهر الإنسان في سيره، فتتعلَّق نفسه بمبدأ الكون ومفيضه من دون تذبذب بين الأرض والسماء.

وكما أنَّ البداء يكشف عن قصورٍ في ما يظهر تمامه للناس بحسب المقاييس المدركة، ويظهر ما هو تام في نفسه وواقعه _ بغضّ النظر عن العوارض المُخْرمة للشيء مثل البناء الذي يبقى بحسب الأجواء المعتادة مئة سنة لكن يعرضه إعصار يهدمه في سنته الأولى _ كذلك يفسح المجال أمام الإنسان أن يتكامل ويتدارك ما فرَّط، بل وينال ما قصُر عنه في سالف أيامه وإن لم يكن من نصيبه في يوم ما(1)،

1- المرشد لهذه المعاني الروايات الدالّة على زيادة العمر بالفعل الحسن، والدالة على تأثير الدعاء في انتقال الإنسان من حالة الشقاء حقيقة وواقعاً إلى السعادة الحقيقية والتي لها واقع، وليس ذلك من مقولة الإظهار بمعنى أنَّ شيئاً كان قابعاً في صقع الوجود ثمّ برز في ساحته وظهر إلى السطح، بل بمعنى أنَّ شيئاً لم يكن ليوجد فشاء الباري وجوده، أو أنَّ شيئاً تكاملت أسبابه وتظافرت دواعيه فشاء الله سلبها النتاج، أو أنَّ هناك شيء ما سرى إلى صفحة الوجود وسار في ثناياها فكفكفته يد القدرة، وكل ذلك مع علمه تبارك وتعالى بمآل الأمور، وكيف سيكون من سيكون فتأمّل.

ويأتي البداء بمعنى تحقّق ما عُلِمَ وتجسُّده في الخارج وعلى صفحة الكون نظير استعمال كلمة (علم) في قوله تعالى: ((ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً))(1) ولعلَّ قوله تعالى: ((وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ))(2) قد استعمل في هذا المعنى(3).

هذه بعض أسرار البداء وهي تفيدك في المزيد من التعرّف على شخصية أبي جعفر.

ولبُّ القول:

أنَّ البداء نسخ تكويني، وهو بحسب موارده على أنحاء منها:

1 ـ تبديل الواقع بواقع آخر: ويكون تغييراً واقعياً حقيقياً، ومثاله زيادة الرزق، والعمر واختراعه بحسب تصرُّف الإنسان مع علم الله بمآل الأمور واختيارات العبد.

2 ـ تغيير الظاهر بإظهار الواقع: ويكون تغييراً ظاهرياً، بمعنى أنَّ ما ظهر للناس وأدركوه بعقولهم على أنَّه الواقع ليس هو الواقع حقيقة، فظهور الواقع الخفي للناس وإظهار الباري له يسمى بداء، كما في قضية الإمامة.

3 ـ تبديل الظاهر بظاهر آخر: وهو تغيير للسائد بمثله، وبتعبير شائع بين الناس هو تغيير لفكرة أو لنظرة سائدة بين الناس يعتقدون

1- الكهف: 12.

2- الزمر: 48.

3- يراجع: الصحيح من سيرة النبي 2: 63 - 68؛ والميزان 17: 272، ففيهما ما يفيد في المقام، وفي الآية معانٍ ألطف وأرحب مما أشير إليه، والمذكورات لا تخرج عن إطار الإظهار المنصوص عليه في البداء عند الشيعة أيَّدهم الله.

صحتها أو نعمة أو ضرٍّ حلَّ بهم فيحدثون توبة أو معصية فيحدث الله لهم ما لا يعلمون من الأمراض أو النعم، وهنا يحدث تغيير بحسب ما يحبّه الناس إذا خضعوا لرب العالمين.

4 _ تغيير الواقع بما هو ظاهر: بأن يكون هناك أمر ظاهر هو خلاف الواقع فيبدل الواقع بحسب الظاهر مع علم الله بمآيل الأمور، كما في إجازة شهادة المؤمنين للميت، فإنَّ شهادتهم تجاز وإن كان حاله على غير ما شهدوا به ويصحُّ أن يكون منه آثار وعقوبات ترك بعض المستحبات، كما يصحُّ أن تكون من القسم الأوّل، ويصح أن يكون الانقياد والمصلحة السلوكية من موارد هذا القسم(1).

ولتكن أشكال البداء حاضرة لديك وهي:

الأوّل: تغيير للواقع بالواقع.

والثاني: تغيير للظاهر بالواقع.

والثالث: تغيير للظاهر بظاهر آخر.

الرابع: تغيير للواقع بالظاهر.

والجامع بين هذه الأنحاء هو التغيير والتبديل، نعم هنالك ثوابت لا يمكن تغييرها تطرَّق إليها الأعلام في بحث البداء فراجع مظانها.

لمحة موجزة عن الإمامة:

درج الكلام عن الإمامة عند المتكلّمين حول معنى ينفيه قومٌ كما ينفي الأعمى الشمس وتدعمه في ذاك فلسفة تُسمى العمى(2)، ويثبته

1- الوارد في الآثار أنَّ من بلغه ثواب ما على عمل ما أعطي ذاك الثواب وإن لم يكن ما بلغه صادراً.
2- على حدّ تعبير الفليسوف الفرنسي فيكتور هيجو.

آخرون، وبينهما أقوام حاصوا في أمرٍ هو أبين من الشمس في رابعة النهار من أجل هوى سقاه الانتماء إلى مهوى الآباء أو الارتزاق من فتات الساسة فراعنة كانوا أم أرباباً.

وليس مصبُّ هذه الصفحات الكلام حول الإمامة تاريخاً وفكراً، وإنما دعت الحاجة إلى عرضها بما هي متماثلة عند الشيعة الإمامية؛ إذ يترتّب ما يسطَّر ـ في استشفاف شأن أبي جعفر ـ على معرفة معنى الإمامة ومقامها.

فهي عند الإمامية وفي كتاب الله منصب (عهد) إلهي، كما النبوة منصب (عهد وشأن) إلهي، وقد ذكر الكتاب العزيز شرائط أهلها وخصائصهم في جملة من آياته المباركة وبألسنٍ متنوّعة تعرّف العاقل جليل مكانها وعظيم شأنها، فقال عز وجل: ((وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ))(1)، وقال: ((وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ))(2).

ولأنَّ هدايتهم بأمر الله لذا قرن ولايتهم بولايته فقال: ((إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ))(3) وأوجب طاعتهم فقال: ((يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ))(4) فلا يسع الناس تقدُّمهم ولا التخلّف عنهم، وكيف يسعهم التخلّف وقد نيطت بهم أمور الدين والدنيا؟!

1- السجدة: 24.

2- الأنبياء: 73.

3- المائدة: 55.

4- النساء: 59.

ومن عظم شأن الإمامة أن لم تجعل لإبراهيم إلاّ بعد الابتلاء، ومن كبرها في عينه طلبها لذريته ودعا لهم بما تدعو به الأنبياء لأنفسهم ووصى ذريته بما يوجب لهم نيلها وأخبرهم بما حباهم الله تبارك وتعالى ((وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ))(1).

ويرتفع شأنها عن أن ينالها من له مساس بظلم أو هوى؛ إذ طلبها الخليل عليه السلام لبعض ذريته وجاء النداء: ((لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ))(2)؛ وفي هذا نفي لمطلق النيل الواقعي منه والظاهري، فلا تكون الإمامة الواقعية لمن كان ظالماً في الواقع ولا تحوم في ظاهرها حول من كان ظالماً، فكما أنَّ الظالم لا ينال الإمامة واقعاً كذلك لا يكون محلاً للبداء ظاهراً، ولعلَّ في بدء الأمر يستنكر القارئ هذا المعنى إذ مفاد الآية أنَّ الإمامة لا ينالها الظالم فقط أما أنَّه لا يعتقد المؤمنون الناس فيه الإمامة فلا؛ إذ كيف يصحُّ ذلك؟! ومن أين يعلم ذلك؟!

سيّما وأنَّ العالم الخبير بالمعارف الإلهية يدرك أنَّ الإمامة مختصّة بأناس لا يصلح لها سواهم ولا تصلح إلاَّ لهم فتكون لغيرهم(3)؟!

1- البقرة: 132.

2- البقرة: 124.

3- وليس معنى هذا أنَّ السيد معصوم بقدر ما يعني أنَّه محل عناية الباري ولطفه، وفرق شاسع بين العصمة واللطف الإلهي، فإنَّ العصمة تنشأ بعلم مودع يختار معه المكلف فعل الشيء الحسن وترك القبيح، ومن اللطف تباعد الإنسان عن ساحة الابتلاء من دون أن يكون معصوماً، فمن قد كُفَّت عنه أكفُّ السّوء ارتاح من الامتحان بما تضعف نفسه فيه رغم أنَّه غير معصوم، والمقصود أنَّ عناية الباري بالسيد من هذا الباب.

والذي يوحي بهذا المعنى:

أنَّ البداء هو إظهار أمر مغاير لما كان سائداً مما يشبه الواقع بعد خفاء الواقع أو إخفائه بنحو تكون دواعي صحة الظاهر متوافرة، وإلاَّ لا يكون بداء بالمعنى اللبّي للمصطلح وإن كان بداء بالمعنى الحرفي للمصطلح، فلك أن تسميه بداءً بلحاظ حال الناس وتجلّيه لهم، وإلاَّ ففي واقعه هو تبيينٌ ورفعٌ لاشتباهٍ وخطأٍ عن الناس، لا أنَّ الله تبارك وتعالى غيَّر الموازين بحسب حكمته ومشيئته لفرض أنَّه لم يمس واقعاً خارجياً وإنما مسَّ نظرة سائدة لا واقعية لها.

إذن القول: بأنَّ في هكذا مورد بدا للباري تبارك وتعالى يكشف عن أنَّ (المبدو فيه) عليه لون من الصبغة التي وقع فيها البداء؛ لأنَّه لا يقال: بدا لله في الأمر الفلاني وذاك الأمر خالٍ بالكلية من المقتضيات للبداء، فمن هو ليس بأهل لتحفة ما بوجه من الوجوه لا يقال: إنَّه بُدِي في أمره؛ نعم إطلاق البداء عليه بمجرد اعتقاد الناس لذاك بنحو من العناية لا بأس به.

إذن لك القول: إنَّ أوهام الناس وإن صارت محلاً لإطلاق البداء بمعنى من المعاني المتقدّمة إلاَّ أنها لا تتوافر على مقوّمات المعنى المصطلح وإن صدق عليها عنوان الاصطلاح، لكن صدق عنوان (بدا لله فيه) _ بحسب استعمال العاقل الحكيم فكيف بالمعصوم _ يكشف عن اكتنافه لشيء ما.

وأهمية هذا المعنى تستدعي ذكر الوجه مطّبقاً على مصداق آخر لنقترب من معنى البداء الحاصل للسيد فأقول:

إنَّ الدعوى: أنَّ البداء لا يكون في فرد غير متوافرة فيه عناصر الصحة والاقتضاء بحسب الواقع في موردٍ وبحسب الظاهر في موردٍ آخر، وإلاَّ لم يكن معنى للقول بالبداء، فمن يكون عمره ثلاثاً ثمّ يبدو لله

أن يزيد عمره إلى ثلاثين لا بدَّ أن يكون مسبَّب عمره الأوّل تام الاقتضاء ثمّ عرض عليه ما يرفع تمامية اقتضائه، وهذا المعنى لا يكون في باب الإمامة لأنَّها منصب لذواتٍ توافرت طبائعها على مقوّمات ذلك المنصب لا أنَّها كسبت تلك المقوّمات في دار الدنيا.

إذا تحقَّق ما سطّر يظهر نسيج البداء في الإمامة، فعهد الإمامة يحتاج إلى اصطفاء واجتباء(1)، ويتطلَّب الدرجة العليا من الإيمان والتسليم(2)، وهذا بطبعه يقتضي تطهيراً وتطهّرا(3)، ويحتاج لرعاية ربانية فائقة تعنى ـ إن صحَّ التعبير ـ بظاهر وباطن الإنسان كي ينال مقام التأهُّل للاستخلاف في الأرض، وبالرجوع إلى عنوان البداء يظهر بعض المراد، وبضمّ عنوان الإمامة يكتمل لديك شيء من المعرفة عن مقام هذا السيد الجليل سيتّضح بعد بيان العلاقة بين البداء والإمامة فانتظر.

الإمامة والبداء:

إنَّ الأخبار الناصة على إمامة الأئمّة الإثني عشر عليهم السلام هي ـ على فرض التنزُّل والقول بعدم تواترها ـ تكاد تكون كذلك، وهناك نقل مشهور مفاده (مهما بدا لله في شيء فلا يبدو له في نقل نبي عن نبوته، ولا إمام عن إمامته، ولا مؤمن قد أخذ الله عهده بالإيمان عن إيمانه)(4) فكيف يصحُّ القول بالبداء في أمر إسماعيل وأبي جعفر؟ وإن ورد في

1- راجع آية الاصطفاء والاجتباء.

2- لاحظ دعاء إبراهيم لولده.

3- لاحظ آية التطهير.

4- النجاة في القيامة للعلامة ميثم بن علي البحراني: 197.

بعض الروايات أنَّه ((ما بدا لله في شيء ما بدا له في إسماعيل))(1) وورد عن أبي هاشم الجعفري قوله: (كنت عند أبي الحسن عليه السلام وقت وفاة ابنه: أبي جعفر، وقد كان أشار إليه ودلَّ عليه وإنّي لأفكر في نفسي... هذه قصة أبي إبراهيم وقصة إسماعيل، فأقبل عليَّ أبو الحسن وقال: نعم يا أبا هاشم، بدا لله في أبي جعفر وصيَّر مكانه أبا محمّد، كما بدا له في إسماعيل بعد ما دلَّ عليه أبو عبد الله عليه السلام ونصبه، وهو كما حدّثتك نفسك وإن كره المبطلون، أبو محمّد ابني الخلف من بعدي، عنده ما تحتاجون إليه، ومعه آلة الإمامة والحمد لله)(2).

تنبيه:

قد يسهو عاقل ويتوهَّم غافل فيقول: إنَّ في ذيل هذا الخبر معنى للبداء لا تقبله الشيعة.

ويدفع هذا التوهّم: أنَّ إطلاق البداء عليه مثل قولك: (فلان برز فبدا له من الشجاعة ما كان مخفياً عن الناس).

وهذا المعنى مذكور في بداية البحث عن البداء، وليس فيه أيّ خلل يستدعي رفضه، ومفاده ظهور أمر الله سبحانه في حين أنَّ ذلك الأمر لم يكن ظاهراً لغيره تعالى، وقد كان قبل إظهاره من قِبل الله يعلم به سبحانه وتعالى، ومثبت في اللوح المحفوظ مثل ما ظهر بعد.

وإليه يشير ما ورد من الأخبار المتقدّمة من أنَّ البداء في إسماعيل بن جعفر ومحمّد بن علي كان لأجل ما كان يراه أكثر الناس من أنَّ

1- بحار الأنوار 4: 122.

2- بحار الأنوار 50: 241.

الإمامة تنتهي إليهما باعتبار أنَّ كلاً منهما كان أكبر ولد الإمام والإمامة في الأكبر من ولد الإمام، وليس اعتقادهم بكون الإمامة فيهما لأجل الدلالة والإشارة والنصب من الصادق عليه السلام لإسماعيل، أو من الهادي عليه السلام على ابنه محمّد؛ إذ دعوى النصب والإشارة إليهما مخالفة للمعتبرات بل للمتواتر من الأخبار، فإذن لا محيص من طرح مثل هذه الآثار أو تأويلها مع الإمكان أو ردّها إلى أهلها فإنَّ الذي جاء بها أولى.

لفت نظر:

ذكر بعض أساتذتنا الأعلام أنَّ التأمُّل في ذيل الرواية: ((وإن كره المبطلون)) يوضّح أنَّ المقصود هو نفي توهّم الناس أو يقينهم بلياقة السيد لمنصب الإمامة.

ولكن قد يكون إخبار الإمام عليه السلام بما في نفس أبي هاشم، وتأكيده لمسألة البداء يشعر بأنَّ المقصود من قوله: ((وإن كره المبطلون)) تقرير جريان البداء في مسألة الإمامة، وسيأتي تبيان الأعلام للبداء فيها.

وهنالك كلمات تصدَّت لهذه الإشكالية في محاولة لرفع اللبس الحاصل، وقد أُجيب به عن هذا السؤال:

أوّلاً:

بالمناقشة السندية، حيث وقع في السند إسحاق بن محمّد البصري، وقد احتمل السيد التفريشي اتحاده مع إسحاق بن محمّد بن أحمد بن مرّار بن عبد الله بن الحارث أبو يعقوب النخعي الأحمر أخو الأشتر(1)، وأيدَّ هذا الاحتمال جماعة منهم السيد الخوئي قدس سره فقال ما

1- نقد الرجال 40: 30.

حاصله: ظاهر العلامة قدس سره إنَّهما متغايران إلاّ أنَّه من الواضح: اتحادهما ويظهر ذلك بأدنى تأمّل(1)؛ ولم يذكرا الوجه في ذلك، ولعلّه لعـدم تعدّد عنونة شـيخ الطائفة قدس سـره والنجاشـي، واحتمال اكتفاء كلّ منهما بما يميّز العنوان ويعرّفه، وكيف كان لا مجال للركون إلى الرواية فالبصري متّهم غالٍ من أصحاب الجواد عليه السلام(2) مولع بالحمامات المراعيش(3) وحكى السيد بحر العلوم عن الكشي أنَّه من أركان الغلاة(4).

وأمّا العنوان الثاني فقال النجاشي عنه: إنَّه معدن التخليط(5).

وقـد عالـج السـيد الأـبطحي المرويـات عنه وكلمات أعلام الفن ـ الخاصـة منهم والعامـة ـ فيه، وخلص إلى أنَّ منشأ الطعن فيه هو روايته للفضائل والمثالب، وأنَّ ما نقل عنه لم يتفرَّد به، فلا اعتبار بالطعن فيه(6).

ويمكن تأييـد ما خلص إليه السـيد الأبطحي بما نسب إلى العنوان المترجم من كتاب مجالس هشام وأخبار السـيد، فإنَّهما قد قارعا الباطل وأوهنـا ركنه، وآثـار صولاتهمـا وبركاتهـا إلى يومنـا هـذا، فبهؤلاء وبأمثالهم ظهر الحق وزهق الباطل، ولا يجرؤ في ذلك الزمان على توثيق حياتهما إلاَّ الفدائي الذي يرى رأيهما ولا يكترث بما يلاقي في سبيل مرامه، فإنَّ من لا يعتقد بمنهجهما لا تحرّكه الشهرة ولا غيرها في سبيل توثيق حياتهما.

1- معجم رجال الحديث 3: 68.

2- اختيار معرفة الرجال الشيخ الطوسي والتحرير الطاووسي: 38.

3- جامع الرواة/ محمّد علي الأردبيلي 1: 88 .

4- الفوائد الرجالية 3: 252.

5- رجال لنجاشي 1: 198.

6- تهذيب المقال في تنقيح كتاب الرجال/ السيد محمّد علي الأبطحي 3: 96 - 201.

ولكن الذي يوجب عدم الركون إلى وثاقته فعلاً كون هذا المعنى حاضراً عند النجاشي ومع ذلك قال فيه ما قال.

ومحصل الكلام: أنَّه لا ريب في ضعف المعنون لاتفاق الأعلام على ضعفه كما قال الشيخ في تنقيح المقال(1) وكون البصري هو الواقع في السند دون عديله، غير مجدٍ إذ لا توثيق له، لا ينفع الاستدلال بالرواية لاعتلال السند.

وثانياً:

بأنَّه ورد في شأن إسماعيل: ((إنَّ الله كتب القتل على ابني إسماعيل مرتين فسألته فيه فعفا عنه))(2) وليس ثَمّة نصّ معتبر عن أبيه الصادق عليه السلام يدلُّ عليه، فليس البداء الحاصل لإسماعيل بداء بالإمامة، كذا نقل التوجيه عن بعض أعلام الطائفة.

وهذا التوجيه يتمُّ في غير هذه الرواية لصراحتها في مسألة البداء في الإمامة.

ويجاب ثالثاً:

بأنَّ البداء معنى إضافي، أي هنالك مَبْدوٌّ فيه ومَبْدوٌّ له.

والمبدوٌّ فيه تارة له شأن خفي أُظهر؛ وأخرى له سيرٌ لو جرى عليه لم يحصل على ما كان مقدّراً له فلمّا تبدَّل سيره تحقَّق له المقدَّر؛ والمبدوّ له تارة يكون مَظْهَراً لأمرٍ كان خفياً هو له، وأخرى يكون مَظْهَراً لأمرٍ خفيٍ ليس له، وإنَّما هو لغيره، وإن كان له مساس به بشكل ما كما في المقام.

1- تنقيح المقال في علم الرجال/ الشيخ المامقاني 9: 186 - 190.
2- الصراط المستقيم للبياضي 2: 273.

ومثـال الأوّل: المثال المتقـدّم (برز فلان فبـدى له من الشـجاعة ما كان مخفياً على الناس) ومثال الثاني: زيادة عمر مَن يصل رحمه ويفعل الخيرات، وبتر عمر من يقطع رحمه.

والبـداء الـذي لا يكون في الإمامـة هو اللون الثاني من البداء، أمّا اللون الأوّل فيمكن القول بإمكانه في الإمامة لعدم المحذور العقلي؛ إذ لا يسـتلزم نقض غرضٍ أو خلفاً بالقول فحقيقته ترجع إلى أنَّه: إمّا تكـذيب لما اعتقده الناس بمعنى بيان حقيقة الأمر وواقعه، وفوائده دفع الفتنة والشكّ والريب عن إمامة الإمام، وبيان مقامه بإظهار حاله، واحترام من يتخيّل أنَّه صنو له وهو ليس بصنو له.

وإمّا أنَّه إبراز لخصائص المبدوّ فيه وبيان مكانته، تلك المكانة التي صيَّرت الناس في لبس رغم أنَّه لم يكن له المقام في يوم ما كما هو الحال في المقام.

فالبـداء الحاصل هنا لعلَّه لبيان خصائص المبـدوّ فيه لحكمة خفيت علينا، وقد يكون من تلك الحكمة حفظ الإمام الواقعي، فإنَّ الإمام كما يحفظ بالتقيـة يحفظ بالبـداء والتباس الأمر على الناس مع وجود الـدلائل الكافية الدالة على صاحب الحق من دون مين، فهنا يكون السـيد ممن وقى الإمام والشيعة بنفسه حيث لا تفي التقية بالغرض.

أو أنَّ موضوع التقيـة شخصـي، بمعنى إخفاء الإنسان إيمانه ودينه ممن يخشـى، بينما المقام ليس فيه إخفاء الشـخص لإيمانه(1)، وإنَّما هو صرف الأنظار عن شخص الإمام لحكمة اقتضاها الباري:

1- سـيّما إذا قلنا: إنَّه لا تقيـة في أمر الإمامـة بمعنى أنَّه ليس للإمام نفي الإمامة عن نفسه تقية، ويمكن القول بأنَّ لا تقية لأهل البيت في أمر الإمامـة في زمن الإمام الرضا وأبنائه، فلقـد اسـتقرَّت ورست وشاعت إمامـة أهل البيت عنـد الكل من دون لبس، وهذا المعنى يحتاج إلى مزيد بحث وتوثيق.

قد يكون منها حفظ الإمام.

أو إعداد الناس للغيبة الكبرى.

أو لأجل أن تتكامل أحلامهم فيتمكنون من الاعتماد على الآيات العقلية والبرهانية في التديّن، دون الركون المطلق للبراهين الحسية في أمور التديّن، لذا عُبّر عنه بالبداء إذ كان من أمر الله عز وجل؛ وبه يظهر شأن الإمام للمؤمنين لاسيّما وأنَّ بوادر الغيبة وتهيئة الناس لها وتألُّفهم لجوها بدأ بنحو ظاهرٍ شاهرٍ من زمن الإمام الهادي عليه السلام.

والذي يؤيّد أنَّ البداء في الإمامة بمعنى الإظهار هو ما ورد في الزيارة المختصرة للإمامين العسكريين عليهما السلام: ((السلام عليكما يا من بدا لله في شأنكما)) فإنَّ في هذا المقطع صراحة بشمول الإبداء للإمام الهادي عليه السلام رغم أنَّه لم يدعُ أحد الإمامة في زمانه، ولا أُدعيت لأحد، فلا شكّ في إمامته، الأمر الذي يشير إلى أنَّ المراد من البداء في الإمامة هو إظهار الشأن والمقام ولا ريب أنَّ في إظهار الشأن نعَماً لا تخفى على المُظهَر والمظهر له والله العالم.

والذي يعزّز ضرورة البداء في مثل ظرف الإمام العسكري أنَّ بني العبّاس على علم تام ـ نتيجة رصدهم الدقيق لأهل البيت عليهم السلام ـ بمداخل التقية ومخارجها، وعلى معرفة بطرق أهل البيت ووسائلهم في حفظ الشيعة، حتّى ورد خبر مفاده أنَّ أعداء الشيعة أعلم بهذا الأمر من الشيعة أنفسهم، وقد احتنكت الأمور على أهل الإسلام، واشتدَّت الفتن جراء سيل المستأكلين بالدين الذي فتح بابه البلاط العبّاسي، فما كانت التقية لتجدي في حفظ شخص الإمام، وما كانت لتفي بحفظ الشيعة ولا

لتدبَّ عن معالم الدين بعد أن ذهبت الدنيا بجملة ممن أخذ العلم عن أهل البيت ومن دون تحديد مسميات، فالتاريخ بين يديك ينبئك عن الجلّ وما أحدثوه من أجل شهواتهم، فالكلاب الممطورة، والخطابية، وما أبدعته الساسة من المطوعة والسلفية بشكلها الحديث منه والقديم وهذه الفرق والمذاهب هي عصا الخلفاء المسلطة على مناوئيهم، وهي الغلاف الأجمل والأغلظ لمن يسوق الناس باسم الله وسوله، والله ورسوله منهم براء.

فإذن مع انكشاف أمر التقية ومداخلها، ومع علم الخصم بضرورة وجود الإمام، هذا من جانب، ومن جانب آخر ضعف المؤمنين وقلة حيلتهم، فضلاً عن عدم انطباق عنوان التقية على إخفاء شخص الإمام(1) لكل ذلك ولغيره لا محيص عن اللجأ إلى مسلك آخر هو البداء، فتُركَ الناس وما يعتقدون في أمر أبي جعفر، وظهرت آثار مقامه ونسبه حتّى التبس الأمر على أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وآله إذ رأوا أنَّ ذوي الحجى من أصحاب أهل البيت مالوا للقول بإمامة أبي جعفر أو قالوا بإمامته، فاتجهت الأنظار نحوه، وحينما أراد الله إظهار شأن وليه بيَّنه للناس، وعليه يكون معنى البداء هنا إظهار زيف ما اعتقده الناس في أمر الإمامة، لا أنَّ الإمامة انتقلت من شخصٍ لآخر.

1- هنالك من الأئمّة عليهم السلام من اتّقى كما هو حال الإمام الكاظم عليه السلام إلاَّ أنَّ أمره حفَّ بالبداء أيضاً، على أنَّ معالم مذهب الحق غير متكشّفة لدى خصومه، كما كانت متكشّفة أيام الإمامين العسكريين، ومع ذلك لم تستمر تقية الإمام طويلاً، بخلاف زمن الإمامين فإنَّ التقية استمرت إلى آخر أيامهما المباركة وضاقت السبل، لاحظ الإقامة الجبرية قرب السلطة العبّاسية بمختلف صورها، حتّى لم يكن مناص من صرف الأنظار عن شخص الإمام عسى ولعلَّ.

ويجاب رابعاً:

بما ذكره الشيخ لطف الله الصافي في رسالته في البداء وخلاصة كلامه: أنَّ المراد من وقوع البداء فيهما ليس وقوعه في إمامتهما _ للروايات الدالّة على إمامة الأئمّة الإثني عشر بل والمصرّحة بذلك _ وإنَّما في حياتهما على أن لا يصير ذلك سبباً لتوهُّم إمامتهما أو موقوفاً على أن لا يظنّ إمامتهما في حياة أبيهما.

ويصحُّ هذا الوجه بالنظر إلى الروايات الناصّة على إمامة الأئمّة الإثني عشر المروية بالطرق الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وحكى عن الشيخ الصدوق تفسيراً للحديث بأنَّه عليه السلام يقول: ((ما ظهر لله أمر كما ظهر في إسماعيل ابني إذ اخترمه قبلي ليعلم بذلك أنَّه ليس بإمام بعدي)).

وأمَّا ما ورد في حق أبي جعفر من البداء فلا ظهور فيها: على النصّ على أبي جعفر بالإمامة فبدا لله فيه، ولا أنَّ الإمام العسكري لم يكن منصوصاً عليه قبل موت أخيه فلمّا توفي أخوه جعله الله خليفة لأبيه ونصبه إماماً للناس بعده، وقد تقدَّم حال النصوص الدالّة على إمامة الإثني عشر.

فالمراد من إحداث الأمر إظهار إمامة مولانا العسكري عليه السلام لمن يظن أنَّ أخاه أبا جعفر خليفة لأبيه، وليس معنى ذلك أنَّ الله توفاه لإظهار هذا الأمر، بل المراد: أنَّ بطلان هذا الظنّ كان أمراً يترتّب على موته فأسند إحداثه إلى الله تعالى لإسناد سببه وهو موته إليه(1).

هذا كلّه لو لم نقل: إنَّ هذه الأحاديث من المتشابهات التي يرد علمها إلى أهلها، والله الهادي سواء السبيل.

1- مجموعة الرسائل/ الشيخ لطف الله الصافي 2: 117 - 119.

ناتج الأمرين علو مقام سبع الدجيل:

بعـد معرفـة مقام الإمامـة وأنَّها عهـد إلهي ينطوي على ميزات تخلو منها المقامات الأخرى، وأنَّ لهـذا العهد صاحباً لا يصـلح له غيره فهي خلافة ربانية، وهو منصب يحفُّ به الامتحان الإلهي الذي خُصَّ به الأنبياء والمرسـلون فطبع مقام الإمامة يحتاج إلى اصـطفاء واجتباء(1)، ويتطلَّب الدرجة العليا من الإيمان والتسليم(2)، وهذا المعنى يقتضي تطهيراً وتطهّرا(3)، ويحتاج لرعاية ربانية فائقة تعنى ـ إن صحَّ التعبير ـ بظاهر وباطن الإنسان كي ينال مقام التأهّل للاستخلاف في الأرض.

بالرجوع إلى عنوان البداء يظهر بعض المراد وبضمّ عنوان الإمامة يكتمل لديك شيء من المعرفة عن مقام هذا السيد الجليل.

وبعـدما علمنا أنَّ البـداء يعنى بالتغيير في التكوينيات بحسب اسـتحقاق المكلّف وما يتفضّل به الباري عز وجل وقد قال سـبحانه وتعالى : ((ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِـ ها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَـ يْ ءٍ قَدِيرٌ))(4) بكل ذلك ندرك أنَّ السـمات المتوافرة ـ في الشـخص الـذي يكون محلاً للبـداء في شأن الإمامـة ـ هي من نوع السـمات الموجبة لنيل العهد الإلهي من علم ويقين وتسـليم وعبودية محضـة للباري تبارك وتعالى، وهـذه السـمات لعظمها وجلالـة شأنها وجهالة الناس بأمر الإمامة ـ إذ هي أعز وأمنع من أن يدركها الخلق بعقولهم ـ رأوا أنَّ من يحوز

1- راجع آية الاصطفاء والاجتباء.

2- لاحظ دعاء إبراهيم لولده.

3- لاحظ آية التطهير.

4- البقرة: 106.

شيئاً من سماتها هو أهل للإمامة ولأنَّ أبا جعفر عليه السلام كان يمتلك من الصفات ما جعله طرفاً في البداء الإلهي، صار موضع أنظار الخلق مؤمنهم وجاحدهم وهم يرصدون وصي الهادي عليه السلام، إذ كان من أهل الإمامة.

ويكفي سيد الدجيل أنَّه واصل في الرقي والتكامل حتّى بدا لله في أمر الإمامة فكان ما قدّر الله وقضى والسيد طرفها المؤمّل.

وخلاصة الفكرة أنَّه لا بدَّ من تشاكل أطراف البداء بنحو ما كي يتحقّق موضوع البداء، وبذا يظهر معنى البداء الواقع في الإمامة، ويُظهر نسيجه شأن أبي جعفر، ويعلم جواب السؤال: بأيّ معنى يكون المقام المدّعى لأبي جعفر؟! ولأيّ مرتبة تشير صنعة البداء؟!

وعلى ضوء ما تقدَّم يكون مقامه في ظاهر الحال تامَّ الاقتضاء، وفي واقعه قد بلغ منزلة عظمى في العلم والإيمان والتقوى، فيأتي البداء فيرفع هذه التمامية _ الظاهرية _ لا ليكشف عن عدم التمامية المطلوبة فقط، بل ليكشف أيضاً عن صاحب المقام الأسمى، ويصدّق عظيم رفعة من بدا لله في أمره وذلك لعدم معقولية صدق البداء المتعبَّد به في مورد يفقد صبغة موضوعه، فيكون السيد سبع الدجيل من الرجال الذين بلغ بهم سدرة المنتهى في الكمال، وقد يتدرَّج الإنسان في مراتب الكمال ويصل الغاية والنهاية في سعيه، وهو بعد لم يقترب منها اقتراباً لا لظلم حفَّ به ولا حيف ناله، وإنَّما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

***

الفصل الرابع: شعراء سبع الدجيل

اشارة

ص: 153

مدخل:

الشـعر ـ عند الشعوب ـ عنوان المحبّة، وبوابة الخلود في وجدان عامة الناس، والشعر ـ عند الشعوب ـ رَوح الفضيلة المتجدّد في الأنفس، يوقـظ الهمم، ويُرضِـي الكرام، ويسـكت اللئـام، إذ كان ستراً للعيوب، فناسٌ يقال فيهم فيفخرون وناسٌ يقال فيهم فيفتخر الشـعر والشـعراء، بمقالتهم تلك، والجميع يرضاه لما ينشـر من حق أو يستر من خلل أو يزيّن من مراد للكبراء، فبه يضلون وبه يرشدون. ولقد حوت المدوَّنات شيئاً من الشعر قيل في السيد محمّد، وهو شعر يكشف عن بعض مآثره ليتربط الناس بنفسه الشريفة، ولتشعَّ الفضائل من خلال ذكراه العطرة في أنفسٍ أجدبها شـظف العيش أو أرهقها طول السير في هذه الفيافي المتصحّرة فذكره راية حقَّ تلتجئ إليها معاني الخير وعماله، وتلوذ بها نفوس العظام؛ إذ كانت دليلاً على الفضيلة المتوقّدة بالحياة.

وهذه الكلمات تسرد بعض الشعر مما قيل في السيد وهو يحكي تصوّر وجدانٍ أو قلق قلبٍ أوجعه تيه عصره أو يخزن معاني حرة في لمَّة من الكلمات، فها ذا السيد في بيتين وقفا أمام ضريح السيد يمجّدان تقواه، ويرتّلان رفعة مقامه، ويختصران مزاياه، نسجهما عالم يعرف مثله قيمة المعاني والمقامات التي تنبثق عن كون العبـد يبـدو لله في إمامته، فعالم قارب بنظمه الخطو ودنا من مقام الإمامـة وهو المقام الذي لا يدنو إليه إلاَّ المصطفون الأخيار، وآخر نبَّه على ثبوت الفضائل التي لا تكون إلاَّ لذوي الإمامة ولم يكتفِ بذلك بل استعان بتعبير

ص: 155

قرآني ليشير إلى مقامه الربَّاني، فبعد أن قرَّر تفوُّقه على الأنام أثبت له وصفاً وصف به يوسف ويحيى وعيسى وإسماعيل أو يعقوب، وهذا تعبير لطيف زكي؛ إذ اقترن لفظ الغلام ـ في القرآن الكريم حين الإشارة به إلى الأنبياء على نبينا وآله وعليهم أفضل الصلاة والسلام ـ بشيء من التميُّز بالعلم والحلم، وهنا راعى التميُّز فقرنه بالتفوُّق فيما به اقترن لفظ الغلام في القرآن من حلم وعلم، وأسُّ الفضائل الحلم، ولا يخفى فضل العلم، وثالث جاوز ثبوت الفضائل ليقترب من الإمامة أكثر حيث ظهرت سيماها وأثرها، ويخلص الأخير إلى التسليم بأنَّه سلام الله عليه من المصطفين الأخيار وله التقوى والعلم اللذان جعلاه محلاً وأهلاً للإمامة.

والأبلغ بياناً من كل ذلك الإيحاء الذي تتركه هذه الكلمات في ذهن القارئ، والأفصح نطقاً من كل الكلم ذلك الحس المصاحب لدرك المعاني وأنت تنشدها بلسان أهلها، فدونك هذه اللحظات من غير تدخُّل أحرفي:

1 ـ فآية الله السيد محمّد مهدي الصدر الكاظمي يقول((1)):

إنَّ الإمامة إن عدتك فلم تكن

تعدوك كلا رفعة ومقاما

يكفي مقامك أنَّه في رتبة

لولا البدا لأخيك كنت إماما

وقد نسبها صاحب كتاب شعراء الدجيل إلى السيد إسماعيل بن السيد محمّد الصدر الموسوي الكاظمي(2).

1- الأبيات وتشطيرها وتخميسها ونسبتها إلى السيد محمّد مهدي الصدر المتوفى (1358هـ-) عن كتاب سبع الدجيل السيد محمّد ابن الإمام الهادي، تأليف برهان البلداوي: 163.

2- من تلامذة السيد المجدّد والشيخ الأنصاري له قصيدة مكتوب منها في أعلى باب الحمد من داخل الصحن الشريف بالقاشاني بالأبيات المذكورة، عن شعراء سبع الدجيل/ حسين البلداوي: 52.

وقد شطَّرها جمع منهم السيد محمّد صادق الصدر فقال:

(إنَّ الإمامة إن عدتك فلم تكن)

عدو الفضائل شخصك المقداما

ولئن عدت نحو الزكي فلن ترى

(تعدوك كلا رفعة ومقاما)

(يكفي مقامك أنَّه في رتبة)

فقت الأنام وكنت ثمّ غلاما

قد كنت صدراً للعلوم ومصدراً

(لولا البدا لأخيك كنت إماما)

كما شطَّرها الفاضل الشاعر الشيخ حسن أسد الله الكاظمي بقوله:

(إنَّ الإمامة إن عدتك فلم تكن)

سيماؤها إلاَّ عليك لزاما

حزت الفضائل والمناقب فهي لا

(تعدوك كلا رفعة ومقاما)

(يكفي مقامك أنَّه في رتبة)

تبدي الملائك نحوها الاعظاما

ظنَّ الأنام بأن تكون إمامهم

(لولا البدا لأخيك كنت إماما)

و شطَّرها أيضاً الشيخ محمود الخليل بأن قال:

(إنَّ الإمامة إن عدتك فلم تكن)

تسمو لنقص فيك إذ تتسامى

حاشا علاك وهل سواك لها فلا

(تعدوك كلا رفعة ومقاما)

(يكفي مقامك أنَّه في رتبة)

فاقت ملائكة السماء عظاما

وبلغت عند الله أيّ مكانة

(لولا البدا لأخيك كنت إماما)

وقد خمَّسها أيضاً فقال:

أمحمّد يا بن الإمام المؤتمن

وأخا الإمام أبي محمّد الحسن

حقاً أقول وفيك يفتخر الزمن

(إنَّ الإمامة إن عدتك فلم تكن)

(تعدوك كلا رفعة ومقاما)

إذ فزت من شرف النبي بنسبة

وحبيت من علم الإله بعيبة

ص: 157

وكسبت من تقواك مطرف هيبة

(يكفي مقامك أنَّه في رتبة)

(لولا البدا لأخيك كنت إماما)

2 _ السيد محمّد ابن السيد حسن ابن السيد هادي الصدر الموسوي الكاظمي(1):

أبا جعفر إن ضاق بي الفضا

فلي منزل من فنائك الرحب(2)

قراءة في شعر الأعلام:

3 _ آية الله السيد ميرزا مهدي الشيرازي:

يمسك الأديب بعنان الكلم، ويروّض القلوب بتراكيبه المملَّحة فيزيح شماسها عن لذيذ المجالسة والمؤانسة حتّى قيل: ما كثرت الثرثرة وتُوسّع في الكلام إلاَّ من وراء أبواق الأدباء، ولولا أنَّ العاقل يلجم فضول كلامه والعالم يزن مواضع أقدامه لما ألفيت بين ظهراني الناس إلاَّ الكثير من الكلمات الجوفاء والعرجاء والتي تسيخ بالعقول والأفهام في مهاوي الوهم والخيال، وهو المكان الذي يعيبه العالم على العالم إذا أنشد الشعر، بيد أنَّ للعلماء نظماً كسر مخياله علمهم وأظهر جفوته تزمتهم وإلتزامهم بعلائق الدرك، لكنَّه لم يخلُ من نظرة مليحة وصنعة بديعة، يقرّبه لعامة القراء ما يحويه من واقعية يجعله بعيد الخطى من ميدان الشعراء، فترى العالم في مدحه يلتزم سرداً يقتنص فيه المعاني بشيء من الرجولة العلمية، الأمر الذي يتلقى فيه القارئ حقائق مسطورة،

1- يعدُّ من مؤسسي الدولة العراقية، وأحد أركان الثورة العراقية، شكّل الوزارة، وشغل منصب رئيس الوزراء، ورئيس مجلس الأعيان توفي سنة (1375ه-).

2- مكتوبة بالقاشاني على الجهة اليسرى من باب الرواق الشريف.

ومن البـديهي أنَّ النظم ينحى منحى المعرفـة التي يغترفها الناظم، فإذا كان العالـم ربّانياً لا بدَّ أن تظهر كلمات أهل المعرفة على أبياته، وإذا كان محدّثاً فسيملي قصيدته بصيغ الحديث. وهذه الأبيات لعالـم حاز حبَّ أهل البيت عن معرفة بهم وبشأنهم، فتراه في مدحه مراعياً لتلك المعرفـة مراقباً لنبض قلبه مقيَّداً بجلالـة وهيبـة ونبل الممـدوح، فمن البدء يعلن أنَّ القرب ساحة الكرام، وهي تختلف عن بقية السوح، فهي حوت اشـراقة نبويّـة زيَّنها ارتباطٌ ما، تكشف عنه المباهاة، لـذا ترى الكرام لديه ترتع، بل وتجد ذاتها عنده، فقد يكون وجه الكريم هشاً بشـاً وزاده رفـداً ووروداً ينقـذ الغرقى ممـا ألـمَّ بهم، ولكن أن تجـد كريمـاً تعرَّض لقضـاء الأمـاني وتقريب الآمـال من قبل أن تسـتدعيها الحاجة والضـرورة فهـذا أنـدر من الكبريت الأحمر، ومن لطيف حسّه اسـتخدام جملـة (حاسـر عن ذراعه) وهو تعبير يحمل الشوق الملحّ والرغبة القوية في إنجاز ما ينتظر إنجازه، وهذا ما جعل مواكب الحوائج إليه تترى، وما يطلب الوفد إلاَّ منازل الكرام، وهو ما زعزع الأعراب وأخافهم من الدنوّ إلى ساحته، إذ أنَّهم قوم ألفوا النهبة وأكبروا البذل والسـخاء وهابوا أهله وعظَّموهم، إذ رأوا نفوساً ينبع منها النبل والفضـيلة، والعرب ـ والتي كانت جلُّ أيامها نكاية ـ تعلم حقَّ العلم أنَّ من أقعدته نكاية الأيام أقامته إغاثة الكرام، فما أحلى المآل حينما تُتَمْتِم مع العالم وهو يقول:

يا وليَّ الله المغيث أغثنا

من صروف الدهر التي نلقاها

وهذه كلمات العالم محمَّلة بما أشير إليه آنفاً، تذوَّقها خالصة من غير شوب:

بقعة لا يحام حول حماها

بسوى طوفها ولثم ثراها

ربوة ذات روضة ومعين

بوركت في بقاعها ورباها

وعراص لشبل أحمد فيها

مستناخ يهاب فيه فتاها

هي مثوى لماجد هاشمي

ذي فعال فاق السماء علاها

مألف الجود من سراة علي

معدن الخير من ذؤابة طاها

هي مثوى محمّد بن علي

بعلا قدره علت غبراها

سيد من بني الكرام كريم

وله عنصر به الله باها

حاسر عن ذراعه للأماني

ما نخته الآمال إلاَّ قضاها

يمَّمته الوفاد من كل وجهٍ

فانثنت عنه بعد نيل مناها

لم تزل موكب الحوائج تترى

تتوالى إليه لا تتناهى

لم تنخ حاجها هنالك إلاَّ

قضيت قبل أن تحل عراها

تأمن الوفد حوله كل هول

فترى في عراصه ماواها

في عراص تهابها العرب طرا

خشية أن تحوم حول حماها

يا ولي الله المغيث أغثنا

من صروف الدهر التي نلقاها

أدهشتنا غوائل وهياج

ودهانا من الطغام دهاها

4 _ آية الله الشيخ محمّد حسين الأصفهاني الكمباني(1):

تتمكّن نفس الشاعر من صهر المعاني، ويسهل عليها إيقاظ الحس المختبئ في ثنايا الأحرف، ويتسنَّى لمنشد الشعر بما حبي من حسٍ

1- عالم نحرير ومرجع شهير، ولد سنة (1296ه-) وتوفي سنة (1361ه-) أخذ عن الآخوند والفشاركي، وله نحو من (33) مؤلفاً، وأعقب الشيخ علي والشيخ محمّد.

شاعري أن يبثَّ الإحساس الدافئ الكامن في الإيقاع، وما لا يناله الشاعر بشاعريته ويفقده المنشد في إنشاده يجده من له شأو في الشعر بطبيعته وثقافته فيما يقرأ.

ومثال هذه المقالة الأنوار القدسية، فصاحبها عالم شاعر وشاعريته وإن ضعف ضوءها لأسباب لاحت في ما ذُكر توطئة لشعر الشيرازي، لكنَّها لم تضعف بحسب موازين أهل البلاغة وإن جمعت معانيها بين حقائق دينية وبراهين عقليّة وأخرى روائية ورابعة وجدانية وخامسة تاريخية، امتزج فيها الحدث بالتحقيق، واصطفَّت بألفاظها مختلف اللغات، فلقد زيَّن قصائده بكلمات الوحي، وحوت أوزانه تمتمات عرفانية ومصطلحات فلسفية وكلامية، ولم يكن هذا لوناً من الحشو، بل لا تجد حشواً في كلامه، وكيف تجد حشواً في نظم لم تكن مادته من لغة مبتذلة الكلمات رخيصة المعاني، ولم تكن صوره من عالم الرؤى والخيال كي يشكّل الحشو عنصراً فاعلاً في التصوير والتقريب.

وأمَّا جهة السبك فلقد وازن بين توظيف البلاغة بما لها من أدوات وبين ما تمليه المعارف، وبذا أضحى نظمه عنوان العالم والعارف والمحبّ، زينة المجالس وأنس الجالس، يتذوّقه كلٌّ بما لديه من سعةٍ في وصفه وعنوانه حتّى عُدَّ المحفل الذي يخلو من ذكر أبياتٍ له منتقض الديباج؛ وقصيدته في أبي جعفر محمّد ابن الإمام الهادي وأخي الإمام العسكري وعمّ الإمام الحجة المهدي صلوات الله عليهم وعلى آبائهم تقف صادحةً ومعلّمةً، وهو يبرهن على كلماته بما يقبله أهله، وكاد أن يكون مؤرّخاً يعرض عن صفحات العنعنة الجوفاء، ويستعين بالدلائل العقلية في رسم معالم العظماء، متخلّصاً بذلك من ظلمة المؤرِّخ الراوي وإهماله.

ص: 161

بدأت كلماته بنداءِ فئةٍ يبدو في صفحات عيشها حسن الطالب والمطلوب، إذ من يسعى نحو المعروف ويقبل الافضال يمتلك ذاتاً مكرَّمة لها مساس وعلقة بقيم الحياة، أمَّا من يتطفَّل على عطاء الغير ونواله فليس له مساس إلاَّ بالعيش دون القيم، وهذا المعنى لا يصدق على طالب المعروف، فمن تقييد الطلب بالمعروف ـ وهو الإحسان بالنحو الذي يقرُّه العرف والشرع ـ وعطفه بالأيادي وهي جمع جمع ويراد بها النعم ـ يعلم أنَّ النداء لفئةٍ خاصة وإن كان إطلاق النداء عاماً وشاملاً.

ومن لطيف صنعه أن أرشد إلى السيد إرشاداً معلَّلاً بمجد السيد وهو مجد جذوره في عالم آخر، الأمر الذي جعل سيادته وسلطانه منبسطاً في نسج التكوين، وردَّ تعجُّب النفوس قبل نطقها به إذ كان غصناً لابن من دنا وتدلى من العلي الأعلى، قد تجلَّى فيه سرُّ أبيه.

وقد يذهب ذاهب إلى أنَّ سرَّ أبيه هو الإمامة باعتبار أنَّ السيد ممن بدا لله فيه، ولكنَّه مثل عربي يراد منه أنَّ الابن تشرب صفات أبيه وخلقه ونُسج على طبعه، فما حازه آباؤه ظهرت آثاره فيه، وتفصيل تكوينه النفسي سيرة آبائه البررة، ومجمل فضائلهم سيرته العطرة، فمن البداء يدرك العقل كل ذلك، ومن مشاهدة العيان لمكرماته يُعرف أنَّ ما يظهر منه عليه السلام رشحة من جدّه المصطفى وآله الطيبين الأخيار؛ إذ هي مظاهر لا تكون إلاَّ لمن انبثق عنهم أو حُبِيَ منهم.

ومن لطيف استعارته تعبيره عن فضائله بأنَّها ديباجة الفضائل النفسية ـ والديباج الثوب المتّخذ من الإبريسم، النقش والتزيين ـ فهو يشير إلى أنَّ فضائله متميّزة بين قريناتها.

وحدَّد ثلاث فضائل نبوية: المجد والمنعة والفتوة، فعظم الشأن والشـرف والكرم هي مفردات المجد وطرائقه، والمنعة هي العصـمة للأولياء ونصـرهم وهي الشـعب الأوثق في باب الـدين والإيمان، وأمَّا الفتوّة ـ وهي بذل النائل وإطعام الطعام ـ فهي آية الإنسانية؛ إذ من يبذل ماله وعمره في تنفيس الكُرَب ومـا شاكلهـا لاـ بـدَّ أن تكون نفسه مترفّعـة عمّـا يلحق الأذى بما حوله، وهـذا غايـة الأمن والأمان المَنْشود، ومن البديهي أن تصـبح المحلة التي ترقد فيها هذه الفضائل مهبط الملائكة وآفاق العقول، فقد قيل: إنَّ الملك في لسان الشـرع يعادل العقل عند الحكماء، وعلى هـذا لا بـدَّ وأن تكون معتكف العبَّاد والنسَّاك، فبالعقل عبد الله، وما عبد الله بشـيء أفضل من العقل حتّى أنَّ الثواب على قدر العقل، وللعقل جند تجدها حافّة بتلك المراقد القدسـية، يلوح منها ما يرفع زلل الخاطئ ويدفع ضـيم الشيطان وظلم الإنسان، فتعشب الأرض بعد جدبها، فالبداء في أُمّ القضايا وأسّ الدين يكشف عن عظيم يلتجي إليه الملتجئ، ويملَّكه نفسه، ويستأسرها لكرمه، فلمثله يحلو الرق، وتستعذب العبودية، وتستطيب الأذن تمتمات العالم الرباني المحقّق الكمباني وهو ينظم وينشد:

يا طالب المعروف والأيادي

لذ بمحمّد سليل الهادي

فإنَّه السيد وابن الساده

في ملكوت الغيب والشهاده

أكرم به من سيد مطاع

في عالم التكوين والإبداع

وكيف لا وهو ابن من تدلّى

سرُّ أبيه فيه قد تجلَّى

يمثَّل المبعوث بالرساله

في العز والرفعة والجلاله

أخلاقه الغر محمّديه

وكل مكرماته عليّه

خلاصة الأمجاد والأكارم

وصفة الإيجاد في المكارم

صفاته الفاضلة:

صفاته الفاضلة القدسيه

ديباجة الفضائل النفسيه

وكيف وهو وارث النبوه

في المجد والمنعة والفتوّه

ومن مصادر العلوم الحقّه

علومه مشتقة بالدّقه

إذ هو غصن دوحة الإمامه

في العلم والحكمة والكرامه

بل هو في ولاية الإرشاد

إلى الهدى سرُّ أبيه الهادي

مقامه الكريم من أبيه

يبدو من البداء في أخيه

وكفُّه كالدرة اليتيمه

ليس كمثلها يد كريمه

بل يده في الجود والعوالي

يد النبي المصطفى والآل

أكرم بها فإنَّها يد الندى

مبسوطة على البرايا أبدا

تلك يد المعروف ما أنداها

وكل خير هو من نداها

مختلف الأملاك:

وبابه مختلف الأملاك

معتكف العبّاد والنسّاك

وكعبة الوفود للوفاد

وقبلة الشهود للأوتاد

وبابه مطاف كل طائف

ومستجار الكل في المخاوف

وبابه الرفيع باب العظمه

ومشعر الشعائر المعظمه

وبابه باب النجاة والفرج

عن كل شدّة وضيق وحرج

وبابه منهل كلّ صادِ

ومشرع الحياة للورّاد

ص: 164

الخوارق والكرامات:

وكم بدت فيه من الخوارق

حتّى بها أقرَّ كلّ مارق

لا غرو إنَّه ابن من شقَّ القمر

وذاك في أسرع من لمح البصر

وإنَّه ابن بجدة الكرامه

تراثه شهامة الإمامه

من عنصر النبوَّة الختميَّه

من جوهر الولاية العليّه

اليد البيضاء:

له اليد البيضاء في التصرُّف

يفعل ما يشاء سرُّه الخفي

وحاز من مراتب الكمال

ما جاز حدَّ الوصف بالمقال

مقامه السامي من الولايه

فوق السماء لا إلى النهايه

فاز بأرقى رتب الكرامه

بكل معناها سوى الإمامه

فنوره نور مصابيح الهدى

وجوده جود مفاتيح الندى

بل هو في وجوده الربّاني

إنسان عين نشأة الأعيان

الكلمات المحكمة:

وهو أتمُّ الكلمات المحكمه

إذ نقطة الباء لسيماه سمه

بل نوره من نيّر النبوَّه

وفيه كل غاية مرجوّه

به استدار الفلك الدوّار

لا بل به استنارت الأنوار

لا بل بنور علمه الإلهي

حقيقة الحق بدت كما هي

بل ذاته مرآة حسن الذات

وصورة الأسماء والصفات

أكرم به من عنصر ربوبي

مستودع الأسرار والغيوب

قد فاز من لاذ به في كربته

فالفوز كل الفوز عند تربته

روضته خير رياض الجنّه

فإنَّها من البلاء جُنّه

ضريحه أسمى من الضُّراح

وكيف وهو معقل الأرواح

قبَّته من قبَّة السماء

كقاب قوسين من الغبراء

حريمه حرز من المخاوف

والحرم الآمن كلَّ خائف

حصن منيع للورى جواره

يا حبذا جواره وجاره

لذ بفنائه بعزم صائب

تجده عوناً لك في النوائب

وفي فنائه دواء الداء

وغاية المأمول والرجاء

واليسر بعد العسر في فنائه

بل كل خير هو من عطائه

5 ـ العلامة الشيخ هادي ابن الشيخ عبّاس بن الشيخ علي كاشف الغطاء(1):

تحتوي لغـةُ الفقهِ على تراكيب شائعـة وتصوير نابع من الواقع المعاش، فلا مسـرح فيها للخيال، وتحكمها انطباعات تحمل لوناً من صـرامة الجـدّ وعقلانيـة التأمّـل، وتظهر ظلال هـذا المعنى في جلّ ما يكتبه الفقيه من نظم ونثر حتّى لو كانت كتاباته إخوانيـة أو وجدانيـة، بل ترى

معاني التشبيب والحماسة عنده ترتسم بتلك اللغة، وكأنَّ مخيال الفقيه مكبَّل بتلك الكلمات ومسيَّر في تلكم الطرقات، فلاحظ: القصد، الإرث، نوالي، نبرأ، النقض، النكث... الخ، فإنَّها كلمات استقت معانيها من

1- أخذ عن الآخوند والسيد اليزدي، وصار من مراجع التقليد، له مكتبة من أنفس المكتبات، انتقلت إلى ولده الشيخ محمّد رضا، وله (11) مؤلفاً، ولد سنة (1287ه-)، وتوفي 9 محرم سنة (1361ه-).

قاموس الفقه، بل حتّى النظم طُوِّعت أوزانه بما يتلائم مع ذهنية الناظم وكلماته الفقهية التي يألفها؛ لأنَّ ذهنيَّة الفقيه ولغة الفقه تضاد الشعر والتشاعر وإن أبدعت في بناء المعاني ولامست المشاعر، لذا ترى ألوان الشعر باهتة ودغدغة الأحاسيس إيقاعية نظمية أكثر منها أسلوبية، بمعنى ضمور عنصر الخيال والتحسّس في نظم الفقهاء مما جعل أساليب الشعر والتشاعر انطوائية بعيدة عن أثير النفس وتخرُّصاتها الذي يُعدُّ الحاضن الطبيعي للخيال والتخيُّل.

وليس هذا ذمّاً لشعر الفقهاء، بل هو استبيان لأُطُر نهج خاص يتعامل مع الكلمة تعاملاً مسؤولاً، ولا يلقي الحبل على الغارب حتّى لو أدّى ذلك إلى حصره أو غرقه ببحر معيَّنٍ من النظم وألجأه إلى كلمات محتشمة جدّية وإن داعبتها المعاني، هذا لو نظرنا إلى شعر الفقيه كشعرٍ مجرَّداً عن مقصده، وأمّا مع الاعتناء بمقصد الشاعر فالهوَّة تزداد، بداهة أنَّ الشعر المحيَّث عموماً _ سواء كان محيَّثاً بمقصد ذاتي راجع إلى نفس الشاعر أو الشعر أو محيَّثاً بمقصد غير ذاتي كأن يكون الغرض منه التعليم أو تصيُّد ممدوح وقدح مهجوّ _ ضيّق المنافس، تتحكّم فيه صور ليست بذات صلة بعالم القلب واملائاته.

وقد تهمس في أذنك تمتمات القلب بحبٍّ صادق _ ومن دون أن يتخلَّل الإيقاع حس أنثوي _ معه ينكشف غطاء الكلمات وأنت تقرأ شعر فقيه:

فكم عن قاصديه زال كرب

وكم لمؤمّليه لُمَّ شعثُ

وكنت وللإمامة كنت أهلاً

بذاتك والفخار الجم إرثُ

نواليكم ونبرأ من عداكم

وما لولائكم نقض ونكثُ

بمدح علاكم نروى ونشفى

إذا ما مسَّنا ظمأ وغرثُ

علوم الدين أجمعها لديكم

ومنها في البرايا ما يبثُ

6 _ آية الله العلامة الشيخ علي الجشي القطيفي البحراني(1):

حينما يخالط الولاء اللحم والـدم، وحينما تصـبح روابطه العلم والمعرفـة يكوّن لياليه وأيامه وصوره ومعانيه آيات الفكر المنبثقـة من ساحة الجمـال والجلالـل، ولـك أن تقف أمـام أنفس ألفت همس المعـاني ولاـمست تنهُّدات القلب الشامـخ في حبّه فلا الفراق يهيجه، ولا اللقاء يبهجه، أرأيت قلبـاً يحمـل حبّـاً وهو لا يكترث ولا ينفعل بما دون حبّه الأوفى ذلك الـذي علم العارف بِرَّ المعرفـة ومنسك الحبّ وقـداس الولاء ليـدرك العاقل أنَّ من المعارف ما لا يوصف ولا يحكى، و من الفضائل ما لا ينبت إلاَّ في ساحـة الخلد أو على ضـفاف ودّها الصافي كلون البلور حيث تنصـهر الشوائب قبل أن تـدنو منه، ومع المحبّ والعارف نعقـد نيّة الإحرام، ونقرُّ كما يقرُّ العقل، وننشد ما أنشد الحكيم المتألّه والعارف:

أبا جعفر يكفيك فضلاً بأنَّ من

لآباك والوا من ذوي الفضل والفطن

رأوك حريَّاً بالإمامة بعدهم

فلو لم تمت لم يعرفوا أنَّه الحسن

وما ذاك إلاَّ أنَّ ما استأثروا به

من الفضل دون الخلق فيك على سنن

1- عالم مجتهـد، أخـذ عن الآخونـد و الشـيخ النائيني وغيرهما من أعلام النجف الأشـرف وأعلام القطيف، عنده ولاء ينم عن مقام علمي فريـد، عيّن قاضـياً في القطيف، ولد سـنة (1296ه-) وتوفي سـنة (1376ه-) وأعقب الشـاعر الأديب عبـد الرسول الجشـي المعروف بأبي قطيف.

7 _ العلامة الشيخ راضي ابن الشيخ عبد الحسين آل ياسين الكاظمي(1):

لك أن تتسائل كيف تكون عقلانية الشاعر الفقيه وهو يلامس آلام الحق ويكابد كتب التاريخ والأدب؟!

ولك أن تعجب من قلب العالم وهو يحنو على أيتام تشظَّف عيشهم واسودّت حياتهم؛ إذ لم يدروا إلى أيّ ملجأ يفرون من سياط عدوهم الحاقد؛ فتسأل بأيّ عزيمة يحتمل هذه المصائب؟!

وبأيّ يدٍ يمد العون؟!

وبأيّ قلم يستطيع أن يملي تمائم العقل وهو يعيش بنفسٍ مجرحة؟!

ما سرُّ عظمة النفس؟! وهذه كيف تستطيع الالتذاذ بكل هذه الآلام؟!

يقولون: إنَّ لكل شخصيةٍ ما تتمحور عليه، فتتكوَّن في ظلاله، ويصبح سمة بارزة فيها، تنبض به روحها، وتقبح التخرصات في دعواه وإذا أعوزها الصبر لم يغلبها الجزع، وهي تقارب الخطو، وترنو إلى بارقة النجاح، وهي تؤمّل تمائم الحبّ الأقدس وتنشد:

يا مرقد الطهر أبي جعفر

ثويت في هذا الضريح الضراح

تهوي إلى من فيه أرواحنا

لأنَّه السنا للروح روح وراح

هذا الشذا من شذره فائح

وذا السنا من نوره فيك فاح

غصّت بك الحاجات معروضة

تنتظر العطف وترجو النجاح

ضاقت بها الدنيا وقد يمّمت

واديك فازت بالأماني الفصاح

1- عالم جليل له كتاب صلح الحسن وتاريخ الكاظمين، شارك في ثورة العشرين، ولد سنة (1314ه-) وتوفي في لبنان سنة (1372ه-) ونقل إلى النجف، وأعقب الدكتور عزّ الدين والأستاذ مفيد.

قد شفّعت جاه أبي جعفر

جلّلها الفوز وفاض السماح

كم منحة أولى وكم محنة

جَلَّى وكم ذي كربة قد أراح

هذي كرامات أبي جعفر

عندك تجلوها مساء صباح

شاعت وضاءت بسناها الدنا

نوراً وضاءت بشذاها البطاح

وقد رواها معشر صالح

فهي الأحاديث الحسان الصحاح

وشاهد الآلاف من جيلنا

آلافها في غدوة أو رواح

لا غرو فالمدفون فيك الذي

لولا البدا كان الإمام الصراح(1)

8 _ الشيخ محمّد رضا آل ياسين(2):

ظرف الأدب حاضر بين الكلمات، ويقين الإيمان ثابت الأركان ولكن حلاوة الاطمئنان التي طلبها إبراهيم عليه السلام سرت في أتباع الحنيفية وحقَّ لهم ذلك، فالمؤمن يلمس الفخر والعزَّة والشرف في دينه وما يعتقد، ولتذوَّق الماء لذّة وللمحه لذّة أخرى:

يا أبا جعفر إليك لجأنا

ولمغناك دون غيرك جئنا

فعسى يتجلّى لنا آي قُدس

فنرى بالعيان ما قد سمعنا(3)

1- عن مآثر الكبراء في تاريخ سامراء 2: 325.

2- ابن الشـيخ عبد الحسين بن الشيخ باقر آل ياسين درس على يد والده وخاله السيد حسن الصدر وصهره السيد إسماعيل الصدر، رجعت إليه شيعة العراق. ولد سنة (1297ه-) وتوفي بالكوفة سنة (1370ه-). شعراء سبع الدجيل/ حسين البلداوي: 48.

3- قال السـيد جواد شبر لقـد دعيت مرّة إلى مأتم يختصُّ بالسـيد الجليل السـيد محمّد بن الإمام علي الهادي عليهما السـلام وبعد الفراغ أنشدنا المرحوم الشيخ محمّد رضا من نظمه والأبيات مكتوبة بالقاشاني على المأذنة في الصحن الشريف.

9 ـ آية الله السيد محمّد جمال الدين الهاشمي الكلبايكاني(1):

يتلوَّن الشعر بكلمات ومعانٍ تقرّب أو تبعّد عن ساحته، فيضعف تارة ويقوى أخرى بحسب نسج معانيه، فيفرح تارة ويحزن أخرى بحسب سمت الكلم المتّخذ، وكأنَّ موج إيقاعه يحمل قسمات روح الشاعر وهي تحكي رائع تفاعلها ورائق حسها بما ترنو إليه دون الناس.

ولعلَّ الشاعر صنو الفيلسوف، يتحسَّس بواطن الألق الكوني قبل التفات الإنسان إليه؛ فيصوّره ببيانه السهل الممتنع، وينفخ في جسده مشاعر مصبوغة بتوجس السبق وألم المعرفة ونشوة الذكرى.

وأمام كلمة الشعر يتمايل الناس بين إيقاع الكلمة وجرس المعنى، وينسون الناس إحساسهم المرهف، فيشرد نحو وادي الشعر، وتلهث وراءه قلوب حمقى ـ حماقة ذات طابع خاص وهي إفراز طبيعي للحبّ إذ لا يرى المحبّ سوى ما يحبّ ـ تظن أنَّ الحبَّ والتاريخ آخر ساحةٍ يطأها الإنسان، ويتلاشى هذا الظن لو حدت لتلك الأحاسيس شاعرية من لون شاعرية السيد، فقد تمكّن من زمام الكلمات والمعاني، وروَّض الشعر حتّى قاده من سوح العبثية وفوضى الأنا إلى أفق الجمال، فلم يخطئ من سمَّاه جمال الدين، ففي ديوانه (مع النبي وآله) تجده راعياً لتلك الأحاسيس، يقودها بأمانةٍ ووجدانٍ شعري، لا استبداد ولا تهور عنده، يخلص في بيان المعاني إلى أوضح السبل، ويمكّن الشعر من وطء دهاليز نفس القارئ بخطى واثقة بما تحمَّلت من معاني وأحاسيس خالية من الأوهام والخيال المشوّه للحق والحقيقة.

1- تفضَّل بها نجله العلامة الجليل السيد هاشم الهاشمي حفظه الله، وهي من ديوانه المخطوط وقد نظمت في ذي القعدة (1359هـ-).

هكـذا كايـد صـنعة الشـعر وأثـار فضولها، فاستشـرفت لعلائق الوحي، والـدين، والحبّ، والخلود، والنفس، والأرض، والزمان، والعقل، ... وطربت لتناغم البحر، والإيقاع، والصورة، والكلمة، والمعنى، والحس... كل ذلك ولا تقتنع شاعرية مثل شاعريته، فتراها تطلُّ بمطلع يمغنط الأنفس على اختلاف مـداركها، ويلهب المحفل بحفاوة منقطعـة النظير.. هكـذا كائن الكلمة يقتل الملايين ويبقيها دونما حراك، أو يوقظها من سباتٍ وعدم وكأنه نبض الضمير الإنساني، نبضٌ يمسك بزرّه عالم عمل بما لديه من معرفة وأدوات، فمازج تمتمات السماء حزناً وفرحاً، فراح ينهل.. وينهل.. وتنهل معه الكلمات وقرّاؤها وهي لا ترتوي من جمالية الدين وسلاسة الكلم في مسرداته.

وإن عانـدته القوافي وصارعته الكلمات في أبياته هذه فلأن نظمها جاء في أوائل عمره الشـريف، مع اسـتعجال ألحَّت به نازلة ألمَّت به، فنحا منحى الشعراء في مدائحهم، وبدأ بما يبدأون به من تغنّ بالجمال ومثاله ليخلصوا إلى جمال ممدوحهم، فإذا مطلع قصيدته سياحة في عالم الجمال، وهو عالم لقرَّائه إسـقاطات طالما نالت ويلاتها الشـعراء ورمقتهم بـدعر الخواطر ومجون الذكريات، ولم تمنع هذه الرؤى الخابطة الشـعراء من أن توري زناد شعرها وتلهب جمرة وجدها بهمس الجمال ودغدغات السمَّار فهي أنفس رأت عوالم القلب وتفيَّت ظلال الهوى فأعقبها حسناً وأنشدها شعراً لذا ترى بدايات الشاعر تغني:

أرهفت في جمالها إحساسي

فاستفاضت بخمرة الحبّ كاسي

هدهدت في جوانحي نشوة العشق

ودبّت صهباؤه في كاسي

أسفرت عن محاسن تخلف اللّب

ومالت بقدّها المياس

ورنت عن لواحظ تنفث السحر

فتسبي قلوبنا باختلاس

صُنت منها قلبي فلم يُغْن صوني

وسبته منّي برغم احتراسي

فتمشّت في خاطري رعدة الحبّ

وزادت من وطئها أنفاسي

هام فيها حتّى البليد أيخفى

حسنها عن مثقفٍ حسّاس

ألهمتني وحيَ الشعور فمنها

لا من الكائنات كان اقتباسي

وقرأت البديع في حسنها الفذّ

وأدركت منه لطف الجناس

إلى أن يقول:

وبحبّي النبيّ والمرتضى والعصمة

الطهر قد عصمت التباسي

وبسبطيه والأئمّة قد طهّرتُ

نفسي عن وصمة الأدناس

آل بيت النبيّ قد نزهتهم

آية الطهر من ذوي الأرجاس

وبحبّي للسيّد الطاهر الندب

زعيم الهدى وربّ الباس

عذتُ من زلّتي وسوء فعالي

وهو كهف اللاجي وللضيم آسي

غصن دوح من الإمامة قد طال

وطابت جناه في الأغراس

من سما قدره السماء ارتقاءا

وشأى شأنه الجبال الرواسي

كان _ لولا البداء _ فينا إماماً

فهو دون الإمام عند القياس

(مرقد في الدجيل) من زاره

كان لآل النبي فيه مواسي

نزّهته نفسٌ تسامت عن الرين

وحلمٌ مزيّن بقداس

أسدٌ لو أراد أن يملك الأمر

لما ناله بنو العبّاس

وهمامٌ بنى إلى الدين مجداً

شامخَ القدر راسخ الأساس

كم له من مناقب قد تجلّت

بسناها للدهر كالمقباس

من عليلٍ أتاه يشكو سقاماً

فانثنى عنه ما به من باس

ومخوفٍ قد لاذ فيه فأمسى

فارغ البال مالك الإحساس

إن تخبْ في مناك زره لتحظى

عنده بالمنى عقيب الباس

لم أُشفّعه في أموري إلاَّ

وقضاها الإله دون مكاس

سيّدي قد نذرت لله إن فزتُ

بقصدي ولم أصب بانتكاس

زرتُ مثواك والولاء دليلي

مع كبشٍ مفلّج الأضراس

فأُضحّيه رمز تضحية النفس

وأهدي اللحوم للحرّاس

فاقض يا سيّدي حوائج عبد

موثق بالذنوب والإفلاس

10 _ العلامة السيد علي نقي الهندي(1):

يتفنّن الشعراء في النظر بالمعاني والأحاسيس، ويتمكَّن العلماء من زمامها، فالكلمات والمعاني بين أيديهم قد تُشرعن ويكسوها هتاف الغيب وندبته:

تشقُّ الجيوب على من غدا

يشقُّ له جيبه العسكري

وباح لمن جاءه سائلاً

بما زاد فخراً على فاخر

1- السيد علي نقي ابن السيد إبراهيم ابن السيد محمّد تقي الموسوي اللكهنوي الهندي، أخذ عن السيد محمّد بحر العلوم والشيخ محمّد علي الأرودبادي، ورجع إلى الهند سنة (1354ه-) وصار من مراجع التقليد، من آثاره كشف النقاب وتفسير القرآن الكريم، ولد بالهند سنة (1325ه-) وتوفي في أوّل شوال سنة (1418ه-)، عن شعراء سبع الدجيل/ حسين البلداوي: 55.

ألم يكُ هارون شقَّ الكليم

له الجيب في سالف الأعصر

رضيعا لبان الهدى والرشاد

شريكان في الأصل والعنصر

ولهذه الأبيات نقل آخر(1):

تشق الجيوب على من غدا

يشقُّ له جيبه العسكري

تجلّت مخائل من قدسه

تريك الإمامة في المنظر

فلمّا قضى نحبه في حياة

أبيه بدا الحق للمعشر

بأن الإمامة بعد النقي

من الله في الحسن العسكري

11 _ الشيخ عبد الحسين الحويزي:

سبحان الله قد أجاد الشيخ فالمعاني تتوسَّم في أصحابها كتوسُّمهم فيها وقد لا تحصل بينهما عشرة وصحبة وإن حصل بينهما تآلف:

هلال دجىً وشمس ضحىً وفرقد

سليل علي الهادي (محمّد)

أخو الحسن الزكي وعمٌّ مولى

حمى الدين القويم به مؤيَّد

سموتَ فنلتَ غايات المعالي

جميعاً _ يا سمي الجدّ _ بالجد

رأت منه الإمامة وجه سعد

وطالعها بوجه أخيه أسعد

أجل لو لم تؤجَّل فيك حلت

ولو لم يكن البداء عليك تعقد

12 _ السيد محمّد باقر الشخص ابن السيد علي الأحسائي(2):

ثقافة المرء _ وهي في مجملها منبت القيم _ هي التي ترجّح كفَّة السبل التي تُسلك والطرق التي تُنتهج في هذه الحياة، والمعتقد الديني والمعرفة

1- ذكره حسين البلداوي في شعراء سبع الدجيل: 55.

2- عالم وجيه درس على يد الميرزا النائيني والشيخ محمّد رضا آل ياسين له تمام الأصول والأوامر والنواهي ولد سنة (1316ه-) وتوفي سنة (1381ه-).

الشخصية هي أحلى وألذّ هبةٍ من مثقف لآخر، وأمّا الإحالة إلى شخص آخر قادر وكفؤ فهي الغاية في النصح، والإشادة بفضل وخصائص المحال عليه.

مبادرةٌ جميلة تساعد في تحقيق المراد هذه محاولة سيّد عرف بمكارم الأخلاق وبالسعي في قضاء حوائج الإخوان، وكأنَّ شوقه لهذا المضمار حدا به إلى نداء طلاب الحوائج بلغة صريحة ينطق بها فم يعي ويثق بما يقول:

إن كنت طالب حاجة ومراد

فأنخ بقبر محمّد بن الهادي

ذاك الذي ما أمّه ذو حاجة

إلاَّ وفاز بنيل كل مراد

ذاك الذي لم يستجر أحد به

إلاَّ وعاد بمنية المرتاد

لك يا ابن خير المرسلين مناقب

جلَّت عن الإحصاء والتعداد

لك في عظيم الذكر أيُّ فضائل

تتلى مدى الأيام والآباد

وضريح قُدسٍ دون أدنى مجده

هام السهى والكوكب الوقاد

أضحى ملاذ اللاجئين ومأمناً

للخائفين وكعبة الوفاد

يكفيك فضلاً أن أتى بك معلناً

خبر البداء مسلسل الإسناد...(1)

13 _ الشيخ عبد المهدي ابن الشيخ عبد الحسين ابن الشيخ حسن آل مطر الخفاجي النجفي(2):

تبدأ هيمنة المعرفة في رسم الصور الواقعية، لكن الشاعرية تضمحلّ وتفقد رونقها بهكذا رسم، فتغالب علم الشاعر ومعرفته من

1- مزارات أهل البيت/ محمّد حسين الجلالي: 146.

2- أخذ عن الشـيخ النائيني وكاشف الغطاء والسيد الخوئي، وعين أستاذا في كلية أصول الفقه بالنجف الأشرف، له تقريب الأصول والأحراز المجربة وديوان شعر، ولد سنة (1318ه-) وتوفي سنة (1390ه-)، وأعقب الشيخ عبد الحسين.

أجـل لونها الأفضل ووجودها الأروع، ويغالبها العلم والمعرفـة لنفس الغايـة والهـدف، وهنا تظهر قـدرة العالـم الشاعر، ففي مزج الأحرف والكلمات مقياس لقدرة الشاعر وعلمه:

ولـم ترَ عيني قبل قبرك مرقداً

يعدُّ ليوم الخطب كهفاً فيقصد

كأنَّ ذئاباً حوله قد تجمَّعت

قريش ضلال حيث أنت محمّد

تريهم من الآيات أيّ معاجز

تقوم لها العشر العقول وتقعد

وإن عدَّد التاريخ آيات مجده

فآيك لا يأتي عليه معدّد

14 _ الشيخ محمّد حسن بن الشيخ علي الطريحي(1):

يرشد الناظم إلى معدن معانٍ هي حلم الرجال وأماني القدر بقوله:

إذا رمت عزّاً وانتصاراً وتسعدا

فزر مهجة الهادي الزكي محمّدا

كريم عظيم القدر شهم سميدع

سما الشهب علياءً وفخراً وسؤددا

15 _ السيد محمّد هادي بن آية الله السيد محمّد الحسن صدر الدين العاملي الكاظمي:

وينظم السيد وسيلة المستعين وقد ضاقت به سبل تلك الأمنيات فتراه منشداً نظمه:

أبا جعفر يا غوث كل ملمة

ويا ملجأ اللاجين في الكرب والضرّ

دعوتك للأمر العسير وطالما

بك انقلب الأمر العسير إلى اليسر

16 _ الفاضل الشيخ عبد الغني الخضري(2):

ص: 177

1- خطيب ولد سنة (1317ه-) كما حكي عن خطباء المنبر الحسيني للشيخ حيدر 4: 62، كما في شعراء سبع الدجيل لحسين البلداوي.
2- ولد عام (1326ه-) بالنجف الأشرف.

يقولون: إنَّ ركوب الخيـل عزّ؛ وهو يورّث الزهو أو يحلي هيكـل الإنسـان بمظهر الزهو وإن خلت نفسه منه، ومن لطف الشـاعر أنَّه يطـالب ذوي العزّ والزهو بآيـة الود والولاء، وآيـة الود والولاء هو تقبيل التراب لـذوي العلاقـة، وكأنَّه لا يرضـى أن يكون مشـعل هـذه السـمة منبت العواطف من دون التفات وشعور عاقل، ولذا ترى مطلبه مشفوعاً بما يدين به المحبّ العاقل:

فانزل عن الخيل وقبّل تربه

حيث المنى فيه لكل طالب

فهو لسبط أحمد (محمّد)

نجل علي خيرة الأطائب

سلالة الهادي وأكرم بفتى

منحدر من هاشم وغالب

لولا البدا كان إماماً حائزاً

من المعالي أشرف المناصب

يسألنا الله غداً عن حبّكم

فحبّكم من خيرة القرائب

17 _ العلامة الشيخ محمّد علي بن أبي القاسم محمّد تقي الأوردبادي(1):

تقف الروح العراقية في أوّل حرف من هذه الأبيات وهي روح الحماسة والانفعال، روحٌ يألفها التنمُّق في سوح الفضـيلة وبساتينها، وتفقدها كرام البشـرية، ومن زمن بعيد كاد يتيه الإنسان وهو يجس الأرض بحثاً عن نبع جديد لتلك الروح، ولعلَّ الشـيخ جمع عوامل الفضيلة، فمن عامل وراثي عبَّر عنه بطيب الأصول، وآخر تربوي، وثالث غيبي، ولك القول عامل ديني يضفي من جلالته ما يخشّع القلوب وتُقدَّس لذاتها:

تأبى الفضيلة أن يمثَّل شخصه

بشراً وأن يكوَّنَ نوعه من جنسه

1- درس على يـد أبيه وشـيخ الشـريعة والسـيد حسن الصـدر والشـيخ محمّـد جواد البلاغي، وقد أجازه برواية نحو ستين علماً، فهو الفقيه الخطيب المؤرّخ الفيلسوف، ولد سنة (1312ه-) وتوفي سنة (1380ه-).

طابت أواصره بطيب أصوله

وزكت عناصره بزاكي غرسه

سيّان ماضيه وحاضر مجده

وكيومه في الدهر معجز أمسه

وحِماه مرهوب الجوانب كلّها

لمكان هيبته وشدّة بأسه

18 _ العلامة السيد صادق بن السيد باقر بن السيد محمّد الموسوي الهندي(1):

لا ـ يترك الإنسان صفحة تتمكّن من أن تحمل آثار دركه وعقله إلاّ ـ ويكلّفها بشيء مما عقل، وهنا هدية أدرك الأوائل وقعها في دنياهم واستحملها الشاعر لعالم آخر:

أبا جعفر جئنا بمزجى بضاعة

لنكتال ما نحتاج إذ مسَّنا الضرّ

فأنت عزيز الهاشميين رفعة

وأرض بك ازدانت جوانبها مصر

فأوفِ لنا الكيلين كيلاً معجَّلاً

وكيلاً لدى الميزان موعده الحشر

19 _ السيد مير علي أبو طبيخ النجفي(2):

لم أقرأ للسيد سوى هذه الأبيات التي أيقظت مخيالي بكلمات تُشممك حميَّة هاشمية،، فسبكها كبحرها متدفّق الموج سريع الإيقاع يفوح منه شذا الفتوَّة

1- أخذ عن أبيه وجدّه والسيد محمّد تقي البغدادي، نزل بلد وكيلاً للسيد أبي الحسن الأصفهاني سنة (1346ه-) عرف منه الصلاح والتقوى، وكان متضلّعاً في الفقه والأصول، من آثاره الكرَّة والرجعة وصلاة الجمعة وديوان شعر، وله وقوف تام على المذاهب الأخرى، ولد سنة (1314ه-) وتوفي 18 رجب سنة (1384ه-) أعقب السيدين موسى وباقر وسيأتي فيمن كتب عن السيد ذكر ابنه السيد موسى.

2- السـيد مير علي أبو طبيـخ بن السـيد عبّاس النجفي، أخذ عن أخواله بيت آل راضـي، وله مؤلفات في الفقه والأصول وديوان الأنواء، طبع عقيب وفاته، ولد سنة (1308ه-) وتوفي سنة (1361ه-) وخلَّف مير حسين ومير صادق. شعراء سبع الدجيل/ حسين البلداوي: 52.

ممتزجاً برائحة الحبّ، كما يفوح من هذه الأبيات اليقين بالملجأ، وقد تكفّل بذلك لفظ الأمر فلاحظ قوله: انزل، احلل، اكحل، ومشهد اليقين هذا مشيَّد على أساس النبوة، ونتيجته ضرورية لا تحتاج لبيان، فهي الجلاء لكل طرفٍ عم:

عمُّ الإمام أخو الإمام وصنوه

وابن الإمام وللنبوة ينتمي

طابت نقيبته فلا عجبٌ إذا

قرعت مناقبه مصام المرزم

فانزل بعقوته وطف بفنائه

واحلل حباك بقبره وبه احتمي

واكحل جفونك من تراب ضريحه

فهو الجلاء لكل ذي طرف عمي

20 _ الشيخ محمّد رضا الغراوي(1):

أثنى عليه صاحب شعراء الغري وأكبر خلقه، وقال عنه: إنَّه من طراز السلف الصالح وشاعر من طراز القرون المظلمة الذين تحلَّوا بالصناعة اللفظية والتمسُّك بالبديع، وقد نظم الكثير من الموشحات.

والقارئ لشعره يرى ما يحمله الشاعر بين جوانبه من أحاسيس

1- بن القاسم بن محمّد بن ناصر بن قاسم بن... محمّد المحزم الغراوي العماري، يتيم اعتنت به أُمّه، وتعهَّده السيد ميرزا حسن الشيرازي، أخذ عن الآخوند والسيد اليزدي والشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء والشيخ محمّد رضا آل ياسين والسيد عبد الرزّاق الحلو والسيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ محمّد حسين الأصفهاني والشيخ هادي الطهراني وغيرهم، ومن تلامذته الشيخ علي العسكري والشيخ محسن الغزاوي، وله نحو 66 مؤلفاً منها: أصدق المقال في علم الدراية والرجال، ونصيحة الضال في الإمامة، والعرى القاصمة في تفضيل فاطمة، ونفائس التذكرة في شرح التبصرة في 14 جزء، وإزالة الغواشي في مدرك الحواشي لليزدي على التبصرة، والزاد المدخر في شرح الباب الحادي عشر، والأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة، واقليد النجاح في شرح دعاء الصباح، وديوان شعر، وتفسير القرآن، وكتب في اللغة وآدابها، وغيرها من المؤلفات في مختلف الموضوعات والعلوم، اشتغل بالتبليغ، وكان ممثلاً للسيد أبي الحسن الأصفهاني في أبي الخصيب، ولد 10 شوال سنة (1303ه-) في قرية ميامين بطريق خراسان في طريق زيارة الإمام الرضا عليه السلام وتوفي سنة (1385ه-).

عذريـة تقرّبه لمعاني كلماته، فينحت من مخزونه اللغوي خطاباً متموّجاً، فتأتي الصور والتراكيب متفاوتة القوة والضـعف، ذات مفارقة كبيرة على مسـتوى الإيقاع والشاعريـة، وبعض ذلك ناتـج من معجمية الشاعر، وبعضه تمليه سـمات المادة الشـعرية أو الغرض منه، ولا يحسـن تجاهل تأثير البحور والأوزان في القيمة الشعرية للقصيدة، فتجد الغراوي مثلاً مكوّناً بأنفاس الفقه: أحلت، أهلت، أحرمت، سعت، حرمت، هديا، الارتداد، مضطهد... الخ، الأمر الذي يوجّه سياحة مخياله ويكبّل شاعريته، وإذا انضمَّ إلى ذلك موضوع مهم أو غرض ذو قيمة معرفية أو دينية فسيخبو وجد الشاعرية حتّى تلحق قصيدته بالنظم، وهنا تقف على مذبح الشعر والشعراء؛ تجد المذبح في هيمنة الحكمة أو المعرفة أو الغرض أو إحدى متطلّبات المضمار الشعري.

فكيف يكون الحال لو اجتمعت هذه العوامل؟ أترى نسيجاً تأتلف فيه الأحاسيس العذرية لمعانٍ ذات سمات نظامية في دلالتها ومحتواها؟ إن وجدت شـيئاً كهذا فسـتجد سـحراً يأسـر الكلمات، وإلاَّ فأنت أمام كلمات نظامية المحتوى تحمل صور الشعر وأغراضه وأحاسيسه بزي رسمي معتمد في الدواوين.

وكأنَّ الغراوي أراد التعبير بشكل رسمي عن المكنون بنفسه، فهو صبٌّ لكن نفسه تأبى إلاَّ مظاهر الوقار حتّى لو كان الحبّ والوجد والشغف أسياد الموقف وسادته؛ وهذه أبياته قد ترسم أمراً يريده القلم بين قافية شموس وبحرٍ يشبه المهرة النافرة:

صبُّ الديار بحبّكم بهج

ولسانه في ذكركم لهج

ص: 181

والبعد لو أضنى له جسداً

فشذاكم تحيى به المهج

وبعادكم قربٌ وحربكم

سلمٌ وضيق نواكم فرج

لم يحلُ لي إلاَّ كُمُ أبداً

بل كل شيء غيركم سمج

تخفيكم عنّي الورى حسداً

وعليكم قد دلَّني الأرج

إن يدرجوا نبأ السلو لكم

فهُمُ بشوط المين قد درجوا

فالروح منّي فيكم امتزجت

ولربما الروحان تمتزج

يا عرب نجد والوفا خلق

للعرب كان وهم له نهج

حاشاكم أن تنكروا شغفي

وأنا الذي في الحبّ أبتهج

تبدي الأنام هواكم وَهُمُ

لم يدخلوا إلاَّ كما خرجوا

يبدون ما لم يضمروا فترى

صدقاً وكذباً قولهم مزجوا

غروَّا الورى في حسن ظاهرهم

ولديهم قصد الهوى هَرَجُ

صافوك إن صافيتهم و إذا

ما ملت مالوا عنك وانزعجوا

لا تطري شخصاً منهم فبهم

حلو الثناء عليهم سمج

إلاَّ الثنا بمحمّد حسنٌ

وينال فيه الفوز والفلج

ابن الإمام أخو الإمام ومن

للحق قد قامت به الحجج(1)

لم تُحْصَ في عَدَّ مناقبه

وكأنَّها في لمعها سرج

1- إلى هنا تمَّ ما ذكره علي الخاقاني في شعراء الغري 8 : 410، و ذكر الأبيات الثلاثة الأخيرة حسين البلداوي في شعراء سبع الدجيل ناسباً لها إلى نفس المصدر غير أنَّ البيت الأخير غير موجود فيه.

21 _ الشيخ محمّد رضا الزين العاملي(1):

قد يتمكَّن القارئ من استشـفاف شخصـية كاتب ما من خلال معجمه اللغوي والأسـلوبية المتّبعة، وقد يقصّر في قراءته فلا يتمكَّن من رسم ملامح بيّنة، فيكتفي بتلمُّس بيئة الكاتب أو تربة الشعر، هذا إذا كانت قراءته واعية.

وسـيجد نفسه يحوم في جو الكـاتب أو يحلق مع الشاعر فيما لو تفاعل مع إيقاع الكلمات والمعاني حتّى لو لم تكن قراءته واعيـة أو واعـدة، فبيئة الشاعر منبت معانيه التي يبدع(2).

والزين مثال جيد لهذه النظرة، فبيئته لبنان _ وهو بلد معروف عند الكثير من قراء الأدب والشـعر بأنَّه منبت الرقة والحنان _ وعائلته ذات مجد وكيان، وهو ذو أساس متين من العلم والمعرفة، وتتجلّى في المثبت من أبياته شاعرية مبثوثة بين معانٍ وكلمات ألفت غرر القصائد

1- الشـيخ محمّـد رضا بن الحاج سـليمان بن علي بن زين الـدين... أسـرة معروفة بالجهاد والذود عن الحقيقة و الدين، عالم جليل وأديب شهير وشاعر موهوب، بـذل والده جهده في تربيته فأدخله المدرسة العلمية في النبطية، قرأ شـطراً من الشـرائع على يد السـيد حسن يوسـف مؤسـس المدرسة، وبعد أن أخذ قدراً من العلم هاجر إلى النجف الأشرف سنة (1316ه-) فرعاه ابن عمّه الشيخ عبد الكريم الزين ودرَّسه أيضاً، وأخذ عن الآخوند والسـيد محمّد بحر العلوم وشـيخ الشريعة، ترك النجف عام (1338ه-) بـدعوة من ابن عمّه الزعيم يوسف الزين، اعتنى بنشـر العلم، وكان دمث الأخلاق، عيّن قاضـياً للمذهب الجعفري في ناحية الشغيف، له من الآثار: ديوان شعر، والتاريخ الإسلامي، وآل الزين في التاريخ، ومرسـلات أدبية، ولد في صـيداء سـنة (1296ه-) وتوفي في بيروت سـنة (1365ه-) أثر سـقوطه من مرتفع، شعراء الغري لعلي الخاقاني 8 : 352.

2- يجسّد هذا المعنى شاعر لبناني ظريف أنهكه الفقر وجاد له الدهر بضـيافة أمير الشـعراء في قصره بمصر فلمّا رأى الحدائق الغناء وغيرها قال مداعباً: ولو كنت مكان شوقي لسال الشعر من تحتي وفوقي

العربيـة، وكأنَّها تأبى عن التخلّي عن مضـمار ألفه الشاعر نقـداً ودرساً، وهـذه سـمة شاعرية تتعالى بها الهمّة فلا ترتع في وديان المعاجم أو حضيض المعاني وهي تعيش يقين المعرفة وصلابة الدرك وفخامة التعبير.

شاعريـة أُطّرت بأسـلوبٍ تلمس عنـده روحـاً متميّزة لا تهيمن عليها الكلمات، والمعاني تسـيل في عبارات مفخمـة ومعانٍ فاخرة يسـتوقف القاري جلالها ووقارها وإن لم يجد بينها بكر المعاني، أو لم تطل عليه مفردة وليدة للتو.

فهنا شعر له روح لا تهيمن عليها الكلمات، وهناك شعر كالنور لا يبدو إلاَّ في ظلال المعاني.

هـذه شاعريـة الزين وهي تسـتغيث وتسـتنير بقبس من مظهر عالم الغيب بأبيات نظمت من آهات الحرب العالمية الأولى، فقد اضـطر هذا العالم إلى ترك النجف الأشـرف والسـكن في البادية والأرياف حتّى لفى بقرية (سمكية) من قرى الدجيل، فكان مأواه وملجأه العبد الصالح سبع الدجيل:

بمن يستغيث المرء إن ثل جانبه

إذا ما دهاه دهره ونوائبه

وسلَّ عليه من دواهيه مرهفا

تسيء مباديه وتخشى عواقبه

وسدد سهماً من عجائب صرفه

فأضحى وصرف الدهر شتى عجائبه

غرائبه في كل شرق ومغرب

وقد جمعت في القلب منّي غرائبه

وحمل قلبي ما يسيخ بحمله

ثمام ومن رضوى تدك جوانبه

بمن تدفع الجلّى بمن تدرك المنى

بمن يسترد الدهر فيمن نحاربه

نعم تدفع اللأواء بابن محمّد

ثمال الورى في الجدب تهمي مواهبه

أبا جعفر يا ابن الإمام إصاخة

لرقٍ لكم في الرق تعلو مناحبه

أيملكني دهر يودُّ بأنَّه

هو العبد لكن ذللتني نوائبه

أتيتك يا ابن المصطفى ووصيه

وخيرك موفور ومولاك طالبه

لتنجح آمالي فجودك هاطل

على الناس طراً تستهل سحائبه

وتنظر في حال امرئ رق حاله

وضاقت عليه سبله ومذاهبه

وشطت به عن مورد العز عزلة

إلى مورد بالذل سيطت مشاربه

لقد سامني المقدار عن خير موطن

إلى موطن بالشر عمت معائبه

وفرَّق ما بيني وبين أحبّتي

ومعشر إلاَّ في زمان أحاربه

فشتَّت شملي بالعراق إقامتي

وللشام من أهوى تخف ركائبه

وفي النجف الأعلى وليد أحبُّه

يجاذبني برد الأسى وأجاذبه

لك الله فأنقذني من الدهر إنَّه

أخو إحن صبَّت عليَّ مصائبه

حنانيك فاقبلني على العجز إنَّني

دخيل ومن يدخل تحل مصاعبه

أرى العرب الأحلاف يحمون من أتى

فكيف وأنتم للإله نواخبه

وكيف وأنتم للأنام أئمّة

بنوركم للخلق تجلى غياهبه

وكيف وأنتم للوجود حقيقة

تدور بكم أفلاكه وكواكبه

مدائحكم في الذكر تتلى وهل أتى

بغير علاكم (هل أتى) ومناقبه

أبا جعفر عطفاً عليَّ فإنَّني

مقيم على مغناك لست أجانبه

مقيم على مغناك أنشد مطلعاً

بمن يستغيث المرء إن ثُلَّ جانبه

22 _ الشيخ جابر الكاظمي مخمّس الأزرية المعروفة(1):

إن صحَّ إغضاء القلم عن بعض الشعراء أو قُبِل تجاوزه عن شيء من الشعر الرائق فلا جابر لغضّه عن جابر، وأنّى له بالكاظمي الغيظ لو غضَّ عن الكاظمي، فشعره ذو أرضية شفافة تنبت إيقاعاً مرح الكلمات، تخال شعره ماءً ينساب بين المعاني الوحشية فيرققها ويرقق طبع قاريها، يروّض الكلم العنود الجافي الذي ما تعوَّد التنزُّه في ثنايا القلب أو التقرُّب من نسمة الوجدان، فإذا به في قصائد الكاظمي يلهج بمعانيه، وهذه إحدى مفاصل الشعر، فقد تسمع شعراً متقشر الروح من شدّة تكلّف ناظمه، أو تقرأ كلماتٍ منظومة تتهجَّى الشعر، أرأيت رضيعاً يبدي فضوله وإعجابه بالكلمات، وقد تنظر إلى أحرفٍ تحكي خوالج شاعرها التائه، الفاقد... يهذِ ويهدر يريد أن يشعر بشيء فظنَّ نفسه يشعر، ولولا نسبية الذوق الأدبي وخداجة النقد لأسهبت في الشواهد، ولكن أنظر إلى تخميسه للأزرية لترى الكلمات المروَّضة، وانظر شعر المناسبة

1- أبو طاهر الشيخ جابر بن الشيخ عبد الحسين بن عبد الحميد المعروف بحميد بن الجواد - وهو أبو قبيلة تعرف بالجوادات في بلدة (بلد) - وينتهي نسبه إلى ربيعة بن نزار وأُمّه علوية كانت جليلة معظمة مقدّسة عابدة زاهدة متهجّدة، يحكى أنَّ صاحبي الفصول والجواهر كانا إذا جاءا لزيارة الكاظميين يزورانها في دارها لجلالتها. ولد سنة (1222ه-) وتوفي في صفر سنة (1313ه-) أو ربيع الأوّل (1312ه-)، نادرة عصره شعراً وحفظاً مع ورع وتقوى وتعفف، وببركة تخميسه للأزرية ذاع صيته وخلد اسمه في قرن وفي بلد تباهياً بوفرة نوابغ الكلمة وأرباب الشعر، وكاد أن يعدَّ في الطليعة منهم، وشعره يحكي مقاماً رائعاً في عالم الشعر، ولع بالشعر الفارسي فنظمه، وشهد له بالإجادة حتّى قيل بتفوّقه على كباره، وطغى على نسج شعره العربي، له ديوان شعر عنوانه سلوة الغريب وأهبة الأديب. أخذت الترجمة من أعيان الشيعة للسيد الأمين 4: 40؛ ومعارف الرجال للشيخ محمّد حرز الدين 1: 147؛ ومقدمة الشيخ محمّد رضا المظفر لتخميس الأزرية.

لترى التكلّف وحسبك الشعر الحر شاهداً على ما أدّعي، وذاك تيه الشعر والشعراء.

فإن بَعُد التخميس عن ناظرك ولم ينل طيفه فكرك أو خاطرك فهذه أبياته بين يديك تجمل بيّنات شعره وخصائصه التي رسمت، فلك التذوّق والنقد وأنت تقرأ:

قف بجنب الدار من هذا الحمى

واترك اللهو بأوطان الدمى

وأرح نضوك أن تجهده

منجداً طوراً وطوراً مُتْهما

...

واحبس العيس على مغنى أبي

جعفر تلقَ الغنى والمغنما

واخلع النعل بواديه ففي

نشر معناه طوى لا بل سما

...

ومزار قد تعالى شأنه

بمزور جلَّ قدراً وسما

إن عدته عصمةٌ عدَّ لها

فلقد عدَّ لنا معتصما

23 _ السيد حسين بحر العلّوم(1):

نجل أسرة حفل تاريخها بعلماء وفقهاء مجلّين وشعراء مجدّين، لم يتّخذ كتابة الشعر لحياته سلوكاً، وإنَّما تشاغل به تشاغلاً يروّح به عن مخياله أو يعدّه منفداً لبعض أمانيه ومعانيه، فها هو ينظم كلمات من وحي وقفة متأمّلة لقبر السيد سنة (1390ه-):

أبا جعفر يا رفيع المقام

1- زورق الخيال: 173.

ويا من حباه حديث (البداء)

مجداً به فاق كل الأنام

ويا من به وبآبائه

تسير العوالم سير انتظام

ويا من بمغناه تجلى الغموم

إلى ضحكة الصحو بعد الجهام(1)

وتنبلج الأمنيات العذاب

عن أفق مشرق الابتسام(2)

أتيتك من بلدي وافداً

وأنت الكريم ونجل الكرام

أروم بك الفوز يوم الجزا

وغفران ما جئته من إثام

وعيش الكفاف وستر العفاف

وصحة جسمي بعد السقام

وتحقيق آمالي الخابطات

عبر السنين كخبط الظلام

تعبت من السير نحو المدى

وكدت إلى اليأس ألقي زمامي

ولكنَّني لم أزل راجياً

رجاء المحول هطول الغمام

أبا جعفر يا منار الهدى

ومأوى الورى في الأمور الجسام

قصدتك أنهل منك المنى

فقاعي جديب ومغناي ظامي

وأنت ابن من فجَّر المستحيل

ضروع غمام بقلب الرخام

ومن يأمل الحين من أهله

فلا بدَّ من نجحه في الختام

24 _ السيد هاشم الهاشمي(3):

قصيدة تصوّر وتحلّل حالةً ما كان برهان صحتها محتاجاً إلى

1- الجَهام: السحاب الذي لا ماء فيه.

2- علق في الديوان بأنَّ: يبلج وانبلج الصبح أو الشيء: تكشَّف ووضح.

3- نجل آية الله السيد محمّد جمال الدين المتقدّم ذكره نظم قصديته هذه في طريقه لزيارة سبع الدجيل في أوائل شبابه سنة (1395ه-) وهو عالم فاضل أريحي، شديد التواضع، واسع الاطلاع، حلو المعشر، ومن أساتذة بحث الخارج في الحوزة العلمية بقم المقدّسة.

صياغة علمية لولا حرص الظالمين على محو آثار الأنبياء من زمن قديم لكنَّها خضعت للسؤال والتمحيص كما خضع غيرها.

وأوّل سؤال: ما الذي يدفع الناس إلى زيارة القبور؟!

هل هو الفضول وحبّ الاطلاع؟!

هل هو اقتناص للفرصة فيستفيدون مالاً؟!

إذا صحَّ هكذا تعليل في تبرير تصرف شريحة صغيرة فلا يصح تبرير ظاهرة عامة أكثر من فيها بعيد كل البعد عن الاستفادة المادية أو فضول المعرفة، سيّما مع خلو القبور من الآثار المادية التي يمكن أن تهدي لشيء، ولو كان الناس ينظرون إلى هكذا زيارات نظرة عبرة واعتبار لما اختصوا بأماكن معيّنة لا يتعدّونها إلاَّ إلى أمثالها.

إذن معظم الناس لا يجرّهم إلى زيارة القبور هذه الأمور.

فما الذي يدعو الناس لزيارة قبر ما؟

قد ترى الجواب مع السيد الوافد للدجيل الذي ينطق جواباً محكماً سهل التصوّر تحمل مضامين شفافة.

وهو جواب تقف بجانبه أسطر تختصر شخصيات الصراع وما قام به جانباه من أحداث صيّرت صاحب القبر يمتلك قلوب الخلق، فمن جانب تجبُّر وعنف بغواية لا يفرّق بين أثر وأثر، ومن جانب هداية وتحلّ بأنواع الفضائل ويحكي ذاك التحلي أروعها وهو ما يجذب الوفود إليه فأنت شاهد، وأنت تقرأ:

مولاي أنت لكل قلبٍ مقصد

فانظر فقبرك بالمواكب يحشد

قبرٌ به نور الولاية نابضٌ

أبداً يظلُّ على المدى يتجدّد

أين الأولى ملكوا الزمان وحاولوا

أن يطفئوا نور الهداة ويخمدوا

هدَموا قبور الصالحين وشتَّتوا

زوّارهم وتجبّروا وتمرّدوا

نعب الغراب على طلول قصورهم

وتمزّقوا وكأنَّهم لم يولدوا

والسادة الأطهار ممّن عمرهم

سجنٌ وتشريدٌ وعيشٌ أنكد

عاشوا برغم الموت نوراً خافقاً

يهدي الورى وكأنَّهم لم يُلحدوا

أمحمّدُ الطهر الزكيّ ومن ل

وفّاده من كل حدبٍ تقصد

قدموا وقد رفعوا الأكفَّ تضرّعاً

وجميل ذكرك في الشفاه يردّد

فاشفع إلى الرحمن في حاجاتهم

واسمع هتاف قلوبهم (يا سيد)

وأنا المعذّبُ جئتُ بابك سائلاً

فأمام وجهي كلُّ بابٍ موصد

يا سيّدي فاعطف عليَّ فإنّني

ظام وعطفك للمعذب مورد

25 _ الشاعر السيد مسلم بن السيد حمود الحلي(1):

يتقرَّب الشاعر بشـعره ويستشـفع بمعرفته، وهو بـذلك يقـدّم عقله مدحةً، لكن معقوله هنا الممدوح نفسه، فلمَ لا يكون نظمه مبتكراً وخطابه ملفتاً:

يا بن الأئمّة قد كانت مقدَّرة

لك الإمامة لولا محكم القدر

سارت لك السير الغرّا ولا عجب

طيب السريرة يبدي طيب السير

فهل يخاصم قوم فيك قد شهدوا

منك المعاجز في عين وفي أثر

1- السـيد مسـلم بن العلامة السـيد حمود بن السـيد ناصـر الحسيني الحلي أخذ عن أبيه والسيد الحمامي والسيد محسن الحكيم والشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء. ولد سنة (1334هـ-) وتوفي سنة (1401هـ-)، عن شعراء سبع الدجيل/ حسين البلداوي: 55.

ونقلها في شعراء سبع الدجيل بنحو آخر لعلّها من تكملة الأبيات(1):

سارت لك السير الغرّا ولا عجب

طيب السريرة يبدي طيب السير

جاءتك ترجو قبولاً منكم مدح

تنزَّهت بك عن كذب وعن أشر

وأنت معناي في شعري ومقصده

فقد أتيت بشعري نظم مبتكر

26 _ الخطيب الشاعر الشيخ محمّد علي اليعقوبي(2):

مهنة المرء ضميره الثاني الذي يحكم في كثير من سلوكياته وكلماته، وهذا معنى واضح جلي، وصاحب هذه الأبيات خطيب، والخطابة تعنى _ في المحيط السائد على أقل تقدير _ بالعناوين الرنّانة والصور التي تدغدغ الأحاسيس بما يركن إليه (يريح) جانب العقلانية في العقل الجمعي، فجذبة الشوق وفرط الغرام _ وعادة ما يستوطن اليقين بينهما وتنبت الآمال وتزهر الأماني _ وإطلالة معانٍ سماوية كالضراح والجوزاء ومشاهد أرضية مبجلة كملوك الأرض وخضوعها كلّها جاءت بحسب ما يمليه فن الخطابة، ولا يخرج عن هذا السياق التعريض بمن يسلّم بالإيماء شأنه شأن بقية التراكيب الموجودة في القصيدة، وقد أنشد هذه المرثية حين زار المرقد الطاهر، وكلماته تبدأ بانتفاضة القلب وتنتهي بانتعاشته:

ما بين سامراء والزوراء

مثوىً بساحته أطلت ثوائي

قد شاقني ذاك المقام فساقني

فرط الغرام لربعه المتنائي

متيقناً أنَّ النجاح ببابه

فأنخت آمالي به ورجائي

وضريح قُدِس هيبة لجلاله

يعلو الضراح وهامة الجوزاء

1- شعراء سبع الدجيل/ حسين البلداوي: 55.
2- الذخائر/ الشيخ محمّد علي اليعقوبي.

تأتي ملوك الأرض خاضعة له

وتؤمُّه أملاك كل سماء

ألممت فيه مسلّماً وقد اكتفى

غيري من التسليم بالإيماء

نجل الإمام أخو الإمام (محمّد)

عمُّ الإمام بقية الأمناء

قد جللَّته قبَّة من سمكها

تنحط شأواً قبة الخضراء

ضربت على ابن نبوة وإمامة

يسمو على الأشباه والنظراء

لولا البدا حاز الإمامة في الهدى

لكنَّها منصوصة بقضاء

كم من كرامات له ومناقب

جلَّت عن التعداد والإحصاء

شهدت بها الأعداء من بين الورى

ومن العجيب شهادة الأعداء

ما خصَّ نائله القريب وإنَّما

عمَّ البعيد به مع القرباء

إن يبكه الهادي أبوه فعاذر

جزعاً عليه إذا أطلت بكائي

ويشقّ جيب العسكري ولم يكن

قلبي يشقّ ولم تذب أحشائي

يا خير فرع ينتمي لأرومةٍ

ممدودة الأفنان والأفياء

حيى الحيا بلداً بقربك أنَّه

ما زال في أمن من الأسواء

أنّى يحل الجدب مربع أهله

وبفضلك استغنت عن الأنواء

فالغيث أنت لها إذا ما أمحلت

والغوث عند نزول كل بلاء

27 _ الأديب الفاضل السيد محمّد بن العلامة السيد رضا الهندي النجفي:

مع هيمنة رائعة(1) السيد حيدر الحلي على وجداني _ تلك القصيدة التي حوت مزايا لا تراها مجتمعة في قصائد غيره من الشعراء _

1- مطلعها: تركت حشاك وسلوانها فخلّ حشاي وأحزانها

لا أستطيع أن أقرأ هذه الأبيات من غير ظلال يجهد الكلمات حين تتذوَّق جمالها:

نفسي إليكم تشتكي أحزائنها

إذ أنَّها فيكم ترى سلوانها

قد آمنت فيكم على ضوء الهدى

وتحسست بودادكم إيمانها

يا آل أحمد والنجاة بحبّكم

والنفس لولاه ترى خسرانها

ما آن أن تثبوا إلى أوتاركم

أفهل نسيتم يا كرام زمانها

أفهل نسيتم ما جرى في كربلا

فيها أمية مثَّلت أضغانها

ما أنصفتكم بعد أحمد أمّةٌ

قد ضيَّعت بضياعكم عنوانها

فقتيلكم وسميمكم وسجينكم

يشكو غداً للمصطفى طغيانها

وبقرب سامراء قبر محمّد

مثل البطولة مَنْ سما شجعانها

فمن الإمامة قد سما بفضائل

هيهات ينكر مبصر برهانها

ومن البطولة والبطولة شاهد

قد حاز معناها فكان عيانها

أمحمّد عين الهداية لم تزل

تبكي عليك الدهر يا إنسانها

والدين ودَّع فيك أعظم مرشد

وبفقدك التقوى بكت عنوانها

واظلمَّت الدنيا عليك وإنَّما

أوحشت يا قمر التقى أكوانها

وبكى الإمام عليك يعلن حزنه

وبه الإمامة أعلنت أحزانها

أفقيد دنيا المكرمات عجبت من

جدث يضم خلاله طوقانها

لك في نفوس الصالحين مكانة

منها بنت تلك النفوس كيانها

لك في القلوب ضرايح قد شيّدت

وعلى ودادك أحكمت بنيانها

أمحمّد إنَّ البرية فيكم

عصت النبي وشايعت شيطانها

قد أكرمت أعدائكم وبحبّها

إنَّ الإله أذلَّها وأهانها

لم ترعَ حق محمّد في حقكم

وبظلمكم قد أغضبت رحمانها

أمحمّد منّي عليك تحية

لغة العواطف ردَّدت ألحانها

سقت الغمائم مرقداً بجواره

حشد الهدى إيمانها وأمانها

28 _ الشريف الفاضل السيد محمّد صادق الصدر(1):

الكلمات والتراكيب ترجع إلى الوراء قروناً، وهـذا ليس بعيب في الشـعر، بل ينم عن أصالـة ومتابعة لدى الشاعر وينمنم قاموس الخلف بما حوته ذاكرة السلف، ولا أدري ما سبب نظم هذه الأبيات، هل هو حديث جرى أو حادث طرى أو هي نفثة الذكريات:

كم من كرامات وآي فضائل

يتلو فضائل أيّها العرب

قد رجع الدهر يحكي من لآلئها

ورداً تضيء سماءها شهب

وأصات حادي العيس يعلى شأنها

فاهتزَّ من طرب لها ركب

عجز اللسان فلا يؤدّي حقها

وكبا البيان وضاقت الكتب

أكتفي بهـذا المقدار من الشـعر، وأحسب أنَّ هؤلاء الشـعراء _ على اختلاف مشاربهم، وتنوّع مصادرهم، وتعدُّد مهنهم _ قد طرقوا أغراضـاً كثيرة في شعرهم، وأحسب أنَّ الذاكرة قد كوَّنت صوراً جمَّة عن شعر تلمَّس أصحابه فضائل السيد وتوهجوا بأنفاس زوّاره ووفّاده.

* * *

ص: 194

1- رئيس مجلس التمييز الجعفري ببغداد.

الخاتمة: ملاحق

اشارة

ص: 195

الملحق الأوّل: زيارة السيد

اشارة

من جملة المستحبّات زيارته، قال العلامة المجلسي قدس سره: اعلم أنَّ المشاهد المنسوبة إلى أولاد الأئمّة الهادية والعترة الطاهرة وأقاربهم يستحب زيارتها والإلمام بها، فإنَّ في تعظيمهم تعظيم الأئمّة وتكريمهم.

كيفية الزيارة:

ذكر العلامة الشيخ عبّاس القمي طاب ثراه زيارتين يزار بهما أولاد الأئمّة عليهم السلام حيث قال:

روى السيد الأجل علي بن طاووس رضي الله عنه في (مصباح الزائر) زيارتين يُزار بهما أولاد الأئمّة عليهم السلام ينبغي لنا ذكرهما هنا، قال: إذا أردتَ زيارة أحد منهم _ كالقاسم بن الكاظم عليه السلام أو العبّاس بن أمير المؤمنين عليه السلام أو علي بن الحسين عليه السلام المقتول بالطف ومن جرى في الحكم مجراهم _ فقف على قبر المزور منهم فقل: ((السلام عليك أيّها الزكي، الطاهر الولي، والداعي الحفي، أشْهَدُ أنَّكَ قُلْتَ حَقّاً، وَنَطَقْتَ صِدْقاً، وَدَعَوْتَ إِلَى مَوْلايَ وَمَوْلاكَ عَلانِيَةً وَسِرّاً، فاز متَّبعك، ونجا مصدّقك، وخاب وخسر مكذّبك والمتخلّف عنك، اشهد لي بهذه الشهادة لأكون من الفائزين بمعرفتك وطاعتك وتصديقك واتّباعك، والسلام عليك يا سيدي وابن سيدي، أنْتَ بَابُ اللَّهِ الْمُؤْتَى مِنْهُ وَالْمَأخُوذُ

عَنْهُ، أَتَيْتُكَ زَائِراً، وَحَاجَاتِي لَكَ مُسْتَوْدِعاً، وَهَا أَنَا ذَا مُوَدِّعُكَ، أَسْتَوْدِعُكَ دِينِي وَأَمَانَتِي وَخَوَاتِيمَ عَمَلِي وَجَوَامِعَ أَمَلِي إِلَى مُنْتَهَى أَجَلِي، وَالسَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ)).

زيارة أخرى لأولاد الأئمّة عليهم السلام:

تقول: ((السلام على جدّك المصطفى، السلام على أبيك المرتضى، السلام على السيدين الحسن والحسين، السلام على خديجة أُمّ سيدة نساء العالمين، السلام على فاطمة أُمّ الأئمّة الطاهرين، السلام على النفوس الفاخرة، بحور العلوم الزاخرة، شفعائي في الآخرة، وأوليائي عند عود الروح إلى العظام الناخرة، أئمّة الخلق، وولاة الحق، السلام عليك أيّها الشخص الشريف الطاهر الكريم، أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنَّ محمّداً عبده ومصطفاه، وأنَّ علياً وليّه ومجتباه، وأنَّ الإمامة في ولده إلى يوم الدين، نعلم ذلك علم اليقين، ونحن لذلك معتقدون، وفي نصرهم مجتهدون))(1).

* * *

1- مفاتيح الجنان: 597.

الملحق الثاني: كتبٌ تحدّثت عن السيد

الغرض من هذا الملحق ذكر بعض المصادر التي تعين في التعرّف على مقام السيد:

1 _ المنهـاج في ذكرى آل البعّاج المنتمين إلى السـيد أبي جعفر محمّـد بن الإمام الهادي المشـهور ب- (محمّـد البعّاج)(1) ألّفه السيد سعدون بن عيسى... بن إبراهيم بن يحيى المؤيّد بالله النقوي المولود سنة (1332ه-)(2).

2 _ ذكرى أبي جعفر محمّد بن الإمام أبي الحسن علي الهادي عليهما السـلام للشـيخ حسن بن الشـيخ علي الخاقاني، رتّبه على ثلاثين باباً في 77 صفحة، فرغ منه سنة (1365ه-)(3).

3 _ المعجزات للشـيخ محمّـد علي بن عبـد الأئمّـة البلـداوي، جمع فيه المعجزات والكرامـات الـتي ظهرت عن المشـهدين الكـاظميين والعسكريين وعن حضرة السيد محمّد بن علي الهادي المدفون بقرب بلد... كتبها بعد رجوعه من زيارة مشهد خراسان (1229ه-)(4).

1- تقدَّم أنَّ هذا اللقب لبعض حفدة السيد ولم يذكر أهل الأنساب أنَّه من جملة ألقابه عليه السلام.

2- الذريعة/ آقا بزرك الطهراني 23: 171.

3- الذريعة 10: 38.

4- الذريعة 21: 215.

4 _ كرامات محمّد بن علي الهادي للشاعر جابر بن مهدي آل عبد الغفار الكشميري القزويني الكاظمي البلدي(1).

5 _ أبو جعفر بن الإمام الهادي عليه السلام، تأليف شاه أحمد علي الأوردبادي.

6 _ حياة سبع الدجيل في ترجمة السيد محمّد بن الإمام الهادي عليه السلام صاحب المشهد المشهور في الدجيل قرب بلد، للشيخ محمّد علي بن الميرزا أبي القاسم بن محمّد تقي بن محمّد قاسم الأوردبادي...(2)، له ترجمة في نفس المصدر وقد طبع الكتاب في النجف الأشرف.

7 _ سبع الدجيل للسيد موسى الموسوي الهندي دراسة وتحقيق د. جودت القزويني، يحوي فوائد جليلة طبع في دار الرافدين/ بيروت (1427هـ-).

8 _ شعراء الدجيل لحسين البلداوي.

9 _ سيد محمّد بن الإمام الهادي، لبرهان البلداوي.

* * *

1- معجم المؤلفين/ عمر كحالة 3: 106.

2- مجلة تراثنا 4: 202، مؤسسة آل البيت. وللمؤلف ترجمة في نفس المصدر.

الملحق الثالث

اشارة

يفترض أن يكون هـذا الملحق حاوياً لمجموعة من كلمات أعلام الإسـلام في كرامات الأولياء، ولكن لما لـم يكن أحد من المسـلمين ينكر حـدوث الكرامـات _ بغضّ النظر عن منشـأ تسـليمهم بالكرامـة هـل هو مـا ورد في الكتـاب العزيز من آياتٍ جرت، أو كان المنشأ السّـنّة المطهرة، أو كان الاعتقاد بها ناتـج مشاهـدات وجدانيـة _ بل تجـد أنَّ المجتمع الديني قد اتّسـعت دائرة مخياله، فصار يلهج بالكرامات، ما يصـحُّ وما لا يصـحّ، وذلك بسـبب أمثال معاويـة وأذنابه الـذين اتّخـذوا من نشـر الفضائل وسـيلة يدلّسون بها على عباد الله، رأيت أنَّ إيراد كلماتهم حشواً من القول ليس فيه كثير فائدة، ولكن رأيت أيضاً أنَّ الإغضاء عن كلّ الكلمات في وقت تكالب مبغضـي آل محمّد ومحاربي أولياء الله أمراً ليس بذي رشد فآثرت نقل اعتراف ابن تيمية بالكرامات وهو شيخ المنكرين لضروريات الدين وبديهيات المعرفة ولعلَّ (سارية الجبل)، وما ترسم من مقامات لسلاطين الفترة الأولى، هي التي منعت ابن تيمية من الإنكار فسعى سعيه لحشد كلمات التسليم:

قال ابن تيمية:

ولا يدخل في هذا الباب ما يروى من أنَّ قوماً سمعوا ردّ السلام من قبر النبي أو قبور غيره من الصالحين؛ وأنَّ سعيد بن المسيب كان

يسـمع الأذان من القبر ليالي الحرة ونحو ذلك، وكـذلك أيضاً ما يروى أنَّ رجلاً جاء إلى قبر النبي فشـكا إليه الجـدب عام الرمادة، فرآه وهو يأمره أن يأتي عمر فيأمره أن يخرج فيستسـقي الناس، فإنَّ هـذا ليس من هـذا الباب، ومثل هذا يقع كثيراً لمن هو دون النبي، وأعرف من هذه الوقائع كثيراً.

وكذلك سؤال بعضهم للنبي أو لغيره من أمّته حاجته فتقضى له فإنَّ هذا قد وقع كثيراً، وليس هو مما نحن فيه.

وعليـك أن تعلم أنَّ إجابـة النبي أو غيره لهؤلاـء السائلين ليس مما يـدلُّ على اسـتحباب السؤال، فإنَّه هو القائل: إن أحـدكم ليسألني مسألة فـأعطيه إيّاها فيخرج بها يتأبطها ناراً، فقالوا: يا رسول الله فلِمَ تعطيهم؟ قال: يأبون إلاَّ أن يسألوني ويأبى الله لي البخل، وأكثر هؤلاء السائلين الملحّين لمـا هم فيه من الحال لو لم يجابوا لاضـطرب إيمانهم، كما أنَّ السائلين له في الحياة كانوا كـذلك وفيهم من أجيب وأمر بالخروج من المدينـة، فهـذا القـدر إذا وقع يكون كرامة لصاحب القبر، أما أنَّه يدلُّ على حسن حال السائل فلا فرق بين هذا وهذا، فإنَّ الخلق لم ينهوا عن الصـلاة عنـد القبور واتخاذها مساجـد اسـتهانة بأهلها بل لما يخاف عليهم من الفتنـة، وإنَّما تكون الفتنـة إذا انعقـد سـببها، فلولا أنَّه قد يحصل عند القبور ما يخاف الافتتان به لما نهي الناس عن ذلك.

وكذلك ما يذكر من الكرامات وخوارق العادات التي توجد عند قبور الأنبياء والصالحين مثل نزول الأنوار والملائكة عندها، وتوقي الشياطين والبهائم لها، واندفاع النار عنها وعمّن جاورها، وشفاعة بعضهم

في جيرانه من الموتى، واستحباب الاندفان عند بعضهم، وحصول الأنس والسكينة عندها، ونزول العذاب بمن استهان بها، فجنس هذا حق ليس مما نحن فيه، وما في قبور الأنبياء والصالحين من كرامة الله ورحمته وما لها عند الله من الحرمة والكرامة فوق ما يتوهّمه أكثر الخلق، لكن ليس هذا موضع تفصيل ذلك(1).

هذا هو إقراره بحدوث الكرامات عند قبور الأولياء وأثر التوسّل بأولياء الله عز وجل والغرض الإشارة إلى كون المسألة مسلّمة عند الكل بل واضحة عند أعتى المعاندين.

وأمّا ما في كلمته هذه من حسن الإجابة، وعدم حسن السؤال عند القبور، فقد تقدّم جوابه، وأنَّه ورد استحباب دعاء الولد وطلب حاجته من الباري عز وجل عند قبر والديه، وقد ثبت في مظانه أنَّ النبي صلى الله عليه وآله قال لعلي: ((يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمّة))، فراجع تعرف أنَّ التعلّل بخوف الفتنة، إنَّما هو ذريعة اتّخذها ليصل إلى مرامه من منع التوسّل بأولياء الله.

وأخيراً ألفت نظر القارئ الكريم إلى أنّي:

تركت الكلام عن تاريخ المرقد وبعض ما يتّصل به لوجود كتب تعنى به ولئلاّ يطول المقام بالقارئ وإن مست الحاجة إليه، وبهذا ما يتم هذه المدوّنة في حق هذا السيد الجليل.

* * *

1- اقتضاء الصراط 1: 374.

مصادر التحقيق

القرآن الكريم.

الإرشاد: الشيخ المفيد/ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث/ قم.

الاعتصام: الشاطبي.

أعيان الشيعة: محسن الأمين/ ت حسن الأمين/ دار التعارف/ بيروت.

بحار الأنوار: المجلسي/ مؤسسة الوفاء/ بيروت/ 1403 ه .

تاريخ ابن خلدون: ابن خلدون/ ط 4/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت.

تاريخ أبي الفتوح: الشيخ جمال الدين أبي الفتوح أحمد.

تحفة الأزهار: السيد ضامن بن زين الدين النقيب.

تفسير ابن عربي: محي الدين بن عربي.

الخصال: الشيخ الصدوق/ جماعة المدرسين/ قم/ 1403 ه- .

سبع الدجيل: موسى الموسوي الهندي/ دار الرافدين/ بيروت/ 1427ه- .

سبع الدجيل: برهان البلداوي.

سيرة الإمام علي عليه السلام: أحمد بن محمّد البكري/ مط المنار/ تونس.

شعراء سبع الدجيل: حسين البلداوي.

صحيح البخاري: محمّد بن إسماعيل البخاري/ مط دار الفكر بيروت.

الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم: أبي محمّد العاملي البياضي/ ت محمّد باقر البهبودي/ مط الحيدري/ الناشر المكتبة المرتضوية.

الكافي: الشيخ الكليني/ ت عليّ أكبر غفاري/ ط 3/ 1388ه-/ مط حيدري.

الكامل في التاريخ: ابن الأثير/ دار بيروت/ 1965م.

كتاب سليم بن قيس: سليم بن قيس الهلالي/ ط النجف الأشرف.

لسان العرب: ابن منظور/ ط 1405ه-/ نشر أدب الحوزة/ قم.

مآثر الكبراء في تاريخ سامراء: الشيخ ذبيح الله بن محمّد علي المحلاتي.

مراقد المعارف: محمّد حرز الدين.

مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل/ طبع ونشر دار صادر/ بيروت.

المصباح: الكفعمي/ مؤسسة فقه الشيعة/ بيروت/ 1411 ه- .

المعجم الكبير: الطبراني/ ت السلفي/ مط دار إحياء التراث العربي/ القاهرة.

منتهى الآمالي: الشيخ عبّاس القمي.

الميزان في تفسير القرآن: السيد الطباطبائي/ مؤسسة النشر الإسلامي/ جماعة المدرسين/ قم.

نهج البلاغة: خطب الإمام عليّ عليه السلام/ ت محمّد عبده/ دار المعرفة/ بيروت.

وسائل الشيعة: الحر العاملي/ ط 2/ 1414ه-/ مؤسسة آل البيت/ مط مهر/ قم.

* * *

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

(التوبه : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمية لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجانًا. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والنذور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضًا الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟

ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟

تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلات:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 88318722 ـ 021

قسم البيع 09132000109شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹